

دراسه تحليله
فى السيره النبويه
عصرها قبل الهجره

بسم الله الرحمن الرحیم

دراسة تحليلة فی السيرة النبوية عصرها قبل الهجره

كاتب:

عباس زریابخویی

نشرت فی الطباعة:

الغدیر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

دراسة تحليلة فی السيرة النبوية عصرها قبل الهجره

اشارة

سرشناسه : زریاب خوئی عباس ۱۳۷۳ - ۱۲۹۷

عنوان و نـام پدیـدآور : دراسـهٔ تحلیلیـهٔ فی السـیرهٔ النبویـهٔ عصـرها قبـل الهجره تـالیف عبـاس زریاب خویی ترجمه علی السـیدهادی

مشخصات نشر : بیروت : الغدیر، ۱۴۱۷ق = ۱۹۹۷م = ۱۳۷۶.

مشخصات ظاهری : ص ۲۷۷

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : عنوان اصلی سیره رسول‌الله

یادداشت : کتابنامه ص ۲۷۱ - ۲۷۰؛ همچنین بهصورت زیرنویس موضوع : محمد (ص ، پیامبر اسـلام ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ق --

سرگذشتنامه موضوع : اسلام -- تاریخ -- از آغاز تا ق۱۱

شناسه افزوده : هادی علی سید، مترجم رده بندی کنگره : BP۲۲/۹/ز۴س۹۰۴۳ ۱۳۷۶

شماره کتابشناسی ملی : م۸۱-۲۳۲۲۰

تقديم

عصـر مـا قبـل الهبرةيبحث المؤلف، فی هـذا الکتـاب، فی «سـيرة رسول اللّه (ص) من الولادة حتی البعثة». ويعنی بالجـانب التاريخی من‌الموضوع فحسب، فيحقق الوقائع، ويبين صـحة وقوعهاوشـروطها وملابساتها واسبابها. ولا يخفی ان المكتبة الاسلامية بامس الحاجة الی كتاب من‌هـذا النوع، وذلک يعود الی امرين: اولهما: ان المؤلفات الاسـلامية فی السـيرة، كما يقول ابن‌خلـدون، «لم يؤمن فيها من العثور ومزلـة القـدم والحيـد عن جـادة الصـدق، وكـثيرا مـا وقع للمؤلفين و المفسـرين وائمـة النقـل المغالـط فی الحكايـات والوقـائع لاعتمادهم فيها علی مجرد النقل غثا وسـمينا، ولم يعرضوها علی اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف علی طبائع الكائنات وتحكيم النظر و البصيرة فی الاخبار فضلوا عن الحق و تاهوا فی بيداء الوهم و الغلط. وثانيهما: ان المؤلفات التی صنفها المستشـرقون كـان الغرض منهـا تلبيـة رغبـات اقوامهم واهل ديانتهم، فجاءت لتلبی هـذه الاغراض التی جعلتهم غير محايـدين، فحرفوا الوقائع والاحـداث، وراوا اليها من المنظور الـذی يخـدمهم ويضـرب الاسـلام، اضافة الی انهم ينفون الجانب الغيبی وينكرون جميع ما وراء المـادة والحس. يحاول المؤلف، وهو يعی هـذين الامرين، ان يفيـدن ايجابيات المنهجين فی الوقت الـذی يتجنب فيه سـلبياتهما. وقـد اتبع بغيـة تحقيق ذلـک منهجـا موضوعيـا يری الی الاحـداث التاريخيـة فی سياقها التـاريخی، فيرصـد الظواهر التاريخيـة، ويتبينها ويصـفها، وينفـذ الی جوهرها، فيعرف حقائقها واسـبابها الحقيقيـة، ويقـدمها الی القاریء باسـلوب سـهل واضح. ويبدو انه اسـتخدم ما يمكن ان نسـميه «المنهـج الاجتماعی النفسـی» الـذی يركز علی معرفة الظروف الاجتماعية والشخصـية التی اسـهمت فی نشوء الظاهرة وتكونها وتبلورها، ثم يبحث فی تلک الظاهرة نفسـها، فيقـدم بـذلک معرفـة تاريخية تلبی الحاجة الی التحقيق والضـبط وحسن الفهم. وقد توافرت فی المؤلف الصـفات التی يحتاجها هذا النوع من البحث فهو استاذ متمرس درس تاريخ الاسلام وسيرة النبی الاكرم (ص) عدة سنين فی جامعة طهران، وقد مكنته خبرته الواسعة فی معرفة المجتمع الجاهلی ومجتمع صدر الاسلام من الغوص مع الاحداث الی اسسـها، فقدم للكتاب مبينا مشـروعيته ومنهجه، ومهد لموضوعه ببحث ثلاث قضايا هی: الجزيرة العربية قبل الاسلام، وقريش فی مكة، والحيـاة الاجتماعيـة فی مكـة، ثم بحث فی الموضوع الاساسـی وهو سـيرة الرسول من الولادة حتی البعثـة. وقـد توخی المترجم الامانة والدقة فی نقل المادة الی اللغة العربية، اضافة الی العناية بسلامة اللغة وجمالها ومراعاتها اساليب اللغة التی ينقل اليها. وان كان المؤلف قد انتهی الی نتائج لا يوافقه عليها، فانه اكتفی بالاشارة الی ذلک بتعليقات موجزة فی الهامش. ويسر مركز الغدير ان يقدم هذا الكتاب

القيم الى قرائه آملا ان يكون قد قام بما يخدم ديننا الحنيف ونبيه الكريم (ص) مركز الغدير للدراسات الاسلامية بيروت.

مقدمة المترجم

والحمدللّه رب العالمين، والصلاة والسلام على صفوة خلقه وامين وحيه وحجته على خلقه الذى بعثه رحمة للعالمين ليخرجهم من ظلمات الجهل الى نور العلم ومن حضيض الارض الى آفاق السماء، ثم الصلاة والسلام على اهل بيته وحملة امانته ومستودع علمه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين. وبعد فاننا يمكن ان نحصر الدراسات التى كتبت حول السيرة النبوية فى طائفتين رئيسيتين: الاولى: فى فقة السيرة. والثانية: فى توثيقها. ونعنى بفقه السيرة التدبر فى احداثها و وقائعها والتامل فى كل ناحية من نواحيها. لناخذ منها الدرس والعبرة. ونجعلها تشع فى حياتنا بكل ابعادها سياسية واجتماعية واقتصادية. لقد كانت السيرة النبوية تجسيدا علميا معصوما للاسلام وتطبيقا لتعاليمه السامية فى انقى صورها واطهر معانيها. وتستهدف الدراسات فى هذا الحقل، تفجير تلك المعانى واستنطاق الوقائع والمواقف النبوية لتزهو بها حياتنا ويخضر مايبس من عروقها وجف. ولا شك ان الحبث فى هذا الباب لايتسق، ويستقيم الا اذا حسم الامر فى ركنين سابقين يشكلان معا القاعدة التى تستند اليها هذه الدراسات: الاول: حجية السيرة وما فيها من قوة الزامية وطاقة تنجزية وهذا ما تعهد به علم الاصول، بل وعلم الكلام حتى اصبحت امر بديهيا لا تجد بين المسلمين من يناقش فيه ايا كان مذهبه: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا). الثانى: توثيق السيرة، وهذا بحث تاريخى مجاله علم التاريخ، وقد عنى به المسلمون عناية فائقة حتى انهم جاوزوا فيه غيرهممن الامم وقد توزعت اعمالهم فى هذا المجال على محورين رئيسين: ۱ الاعمال التى كان غرضها الاساس حفظ السيرة من الضياع وتسجيل وقائعها قبل ان يطويها النسيان. ولما كان هذا الغرض نصب اعين المحدثين والمؤرخين فقد شغلهم عن غيره وانطلقوا يسجلون كل ما مت الى النبى (ص) بصلة من قول اوفعل. واكتفوا من التثبت من صحة الخبر والحادثة، باثبات السند فحسب. يقول الطبرى فى مقدمة: مما يكن فى كتابى هذامن خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه ان يستشنعه سامعه من اجل انه لم يعرف له وجها صحيحا، ولامعنى فى الحقيقة فليفهم انه لم يؤت فى ذلك من قبلنا وانما اتى من بعض ناقليه الينا، وانما ادينا ذلك على نحو ما ادى الينا». ولو جزنا الطبرى وتوغلنا ابعد فى عمق التاريخ لوجدنا الجيل الاول من كتاب السيرة امثال عروة بن الزبير (۹۴ ه) وابان بن‌عثمان بن عفان (۱۰۵ ه) ووهب بن منبه (۱۱۰ ه) وكذلك الجيل الثانى والثالث كابن شهاب الزهرى (۱۲۴ ه) وموسى بن عقبة (۱۴۱ ه) ومحمد بن اسحاق (۱۵۲ ه) والواقدى (۲۰۷ه) لوجدنا هم جميعا قد جروا على نفس المنوال واثبتوا الغث والسمين هذا ان لم يتزيدوا هم من عند انفسهم فى اضافة شىء غريب او اسقاط آخر اصيل لهذا كان من الطبيعى جداان تجد الراوى ياتى بالروايات المتعارضه عن الواقعة الواحدة بحيث يستحيل ان تصح معا، دون ان كيلف نفسه عناء الموازنة بينها او ترجيح بعضها على بعض. ولم تكن هذه سنة المؤرخين وحدهم بل والمحدثين كذلك. وهذا ما اشار اليه ابن حجر بقوله: «ان الحفاظ يعتمدون فى روايتهم على الاحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها على ذكرهم الاسانيد، لاعتقادهم انهم متى اوردوا الحديث باسناده فقد برئوا من عهدته واسندوا امره الى النظر فى اسناده». ۲ ولما اكتملت المادة التاريخية للاجيال التالية واستوى للمتاخرين ما جمع المتقدمون، جاءت فكرة النقد والتعليق، وكان ابن هشام، من اوائل الذين مارسوا هذا العمل، وتوالت الاعمال بعده تباعا. لقد ظهر ابن هشام فى عصر كانت الرواية الشفهية قد تراجعت فيه وانحسر دورها الى حد ما. فقد اثقلت الذاكرة العربيه آنذاک وكان عليها ان تحفظ اضافة الى ما توارثته من اخبار العرب احاديث النبى واحداث السيرة ووقائعها. لكن ذلك لم يحطمن شان الرواية الشفهية ولم يزعزع من مكانتها الموروثة اداة اولى فى النقل المامون والتوثيق المعتبر فرغم ظهور الكتب وانتشارها كان من الصعوبة بمكان التمييز بين المؤلف الذى قصد ان تروى مادته والمؤلف الذى دونها. وظلت الكتابة تزداد اهمية خصوصا فى مجال السيرة كلما ابتعد بالناس الزمن عن الصدر الاول وجفت منابع السيبرة الاساسية المتمثلة فى المشاهدة العينية والمصاحبة اليوميةه لصاحب السرة (ص). وحين فتح ابن هش ام عينيه على الدنيا كان بينه وبين الصدرالاول بطنان او ثلاثة بطون مما منحه حرية اكثر فى التصرف

والاضافة والحذف. فلم يكن مجرد راو لسيرة ابن اسحاق التى سمعها من زياد البكائى (۱۸۳ ه) بل كثيرا ما اضاف اليها اشياء لم يذكرها ابن اسحاق واسقط امورا اخرى اثبتها الاخير. وقد اوضح ابن هشام منهجه فى نقده لسيرة بن اسحاق بقوله: «وانا ان شاء اللّه مبتدىء هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ومن ولد رسول اللّه من ولده واولادهم لاصلابهم، الاول فالاول، من اسماعيل الى رسول اللّه (ص)، وما يعرض من حديثهم وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل، على هذه الجهة للاختصار، الى حديث سيرة رسول اللّه (ص) وتارك بعض ما يذكره ابناسحاق فى هذا الكتاب، مما ليس لرسول اللّه (ص) فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شىء، وليس شيئا لشىء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له، ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، واشعارا ذكرها لم ار احدا من اهل العلم بالشعر يعرفها واشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائى بروايته ومستقص ان شاء اللّه تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به». وصارت سيرة ابن هشام هذه فيما بعد محورا لاعمال كثيرة تناولتها بالشرح والتعليق حينا والنقد والاختصار حينا آخر منهاعلى سبيل المثال كتاب (الروض الانف) لعبد الرحمن السهيلى (۵۸۱ ه) فكان يتعقب ابن اسحاق وابن هشام بالتحرير والضبط حينا، وبالشرح والزيادة حينا آخر. ثم كتاب (الذخيرة فى مختصر السيرة) الذى فرغ منه مؤلفة برهان الدين ابراهيم بن محمد الشافعى سنة (۶۱۱ ه) وبعد هذا بقرن ظهر كتاب (مختصر سيرة ابن هشام) لعماد الدين ابوالعباس الواسطى وكان اختصارا فحسب. وشيئا فشيئا تنبه المؤرخون المسلمون ومنهم كتاب السيرة آالى ضرورة الالتفات بالنقد والتمحيص الى جانب آخر من المادة التاريخية ذلك هو موضوع هذه المادة والمسالة التى تعالجها. بعبارة اخرى تجاوز سند الخبر الى متنه والعبور من مسالة ضبطه وتحريره الى الموضوع الذى يعالجه والاحداث الذى تكتنفه، فقد كتب النويرى (۷۳۲ ه) فى موسوعته (نهايةالارب) قائلا: «واما من ينسخ التاريخ فانه يحتاج الى معرفة اسماء الملوك والقابهم ولغاتهم وكناهم.. وكذلك اسماء المدن والبلاد والقرى والقلاع والرساتيق والكور والاقاليم». فلكى يكون الراوى دقيقا فيما ينقل من مادة تاريخية عليه من الان فصاعدا ان يكون اضافة الى وثاقته ذو خبرة بموضوع مادته لاتشتبه عليه الالفاظ ولا تختلط عليه الاماكن والاسماء والوقائع. وتطور هذا النوع من النقد ليبلغ اعلى درجات نضجه على يد المؤرخ ابن خلدون (۸۰۸ ه) الذى بلغ اهتمامه بهذا الجانب ان قدمه على الجانب الاخر فصار عنده نقد الخبر من الداخل اهم من نقده من الخارج. ولم يشا ان يترك ذلك دون ان يضع له قواعد واضحة وضوابط عامة بينها بقوله: «لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل لم تحكم فيها اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال فى الاجتماع الانسانى، ولاقيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيرا ما وقع للمؤلفين والمفسرين وائمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا، ولم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط». وبعد ان يورد ابن خلدون شواهد عديدة على هذه الاشتباهات يختم كلامه بتقرير يقول فيه: «فاذن يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار فى السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق او ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على اصول الدول والملل ومبادىء ظهورها. واسباب حدوثها ودواعى كونها واحوال القائمين بها واخبارهم، حتى يكون مستوعب الاسباب كل حادث واقفا على اصول كل خبر. وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده فى القواعد والاصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه واستغنى عنه. وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبرى والبخارى وابن اسحاق من قبلهما وامثالهم من علماء الامة، وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه». وبهذا انفتح امام المحققين باب واسع من ابواب التاريخ واصبحت المادة التاريخية برمتها موضعا للفحص والمناقشة ومعرفة صدقها او كذبها من طريق آخر غير تعديل الراوى اوجرحه. ولعل من الاسباب التى صرفت المؤرخينن المسلمينعن الاهتمام بهذا الجانب من النقد فى وقت مبكر هو طبيعة الدوافع التى حفزتهم على كتابة التاريخ. لقد كانت فى اغلب الاحيان حوافز دينية بحيث يمكننا القول ان منا شىء

التاريخ الاسلامى كانت منا شىء دينية، بل ان التاريخ كله قد ولجه المسلمون من باب الحديث. فكان المحدث هو الاخبارى نفسه الى ان انفصلت الشخصيتان وصار الاخبارى غير المحدث لكنه بقى ادنى منه مرتبة واقل قدرا. كان (الاسناد) اى تتبع سلسلة الرواة هو موضع اهتمام المحدث والغاية التى ينشدها فى جهده وعمله وحين يصح الحديث بتعديل رواته وتوثيق ضبطه وتحريره لايبقى الا العمل به وليس هناك من مسوغ لمناقشة المتن وتطبيق القواعد المعروفة عليه. وهذا ما اشار اليه ابن خلدون فى مقدمته قائلا: «انما كان التعديل والتجريح هو المعتبر فى صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية اوجب الشارع العمل بها (متى) حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة العدالة والضبط. اما الاخبار عن والواقعات فلابد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب ان ينظر فى امكان وقوعه وصار فيها ذلك اهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط. وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة واذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار بالامكان والاستحالة ان ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران». وبذلك اصبح التاريخ الاسلامى جميعا حقبة حقبة بل واقعة واقعة موضعا للدراسة والتحقيق من هذا الجانب. وقد اجتذبت السيرة النبوية اكثر اهتمام الدارسين بهذا التاريخ وصارت محورا لعمل المحققين وميدانا لمجهودات متواصلة منذ عدة قرون حتى يومنا هذا. ورغم هذه الجهود ما زالت السيرة لنبوية بامس الحاجة الى الدراسات النقدية الجادة التى يمكنها الختراق الحجب والتاشير على مواضع الخروق التى احدثتها اصابع الككذابين والقصاصين واهل الملل والنحل. والدراسة التى بايدينا هى من دراسات المجموعة الثانية غرضها التحقيق فى الوقائع والتدقيق فى صحة ما ينسب الى رسول اللّه (ص) من الناحية التاريخية بمعنى ان موضع اهتمامها هو التاريخ فحسب فلم تدرس من السيرة الا ما كان تاريخا وما وقع منها فى هذا المجرى ولهذا كانت الحادثة موضع اهتمامها لا الحديث والواقعة النبوية لا القول النبوى. فهى ليست دراسة فهية فى السيرة النبوية ولا كلامية ولاسياسية بل هى دراسة تاريخية حصرت اهتمامها بهذا الجانب فحسب وحين يكون للواقعة اكثر من وجه تاريخى وغيره آكحادثة الاسراء والمعراج، ووقعة الغرانيق وما الى ذلك، فاننا نجد المؤلف لم يبحث فيها الا بعدها التاريخى، اى مسالة وقوع هذه الحادثة وعدم وقوعها مع الكشف عن ملابسات ذلك الوقوع ويترك ما فى الحادثة من قيمة اعجازية او مداليل آكلامية او تشريعية لمجالاتها الخاصة. وقد سعت الدراسة جاهدة لان تضع الامور فى سياقها الطبيعى وترجع الظواهر الى اسبابها الحقيقة التى اخفت رؤوسها تحت السطح. ولم تنهج فى اثبات ما ينسب للسيرة اوينفى عنها المنهج الكلاسيكى المعروف، من التدقيق فى سند الواقعة وقضايا الجرح والتعديل، وما الى ذلك، بل انتجهت منهجا اجتماعيا نفسيا يركز على تحيل الظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية الشخصية التى اكتنفت تلك الواقعة والخروج من خلال هذه المقارنات بترجيح جانب على آخرنفيا او اثباتا. وقد اكسبت المؤلف تجربته الطويلة فى هذا الميدان قدرة جيدة على تشخيص الظواهر وامدته بخبرة واسعة مكنته من سبر اغوار المجتمع الجاهلى ومجتمع صدر الاسلام ليغوص مع الاحداث التى تبرز على السطح الى جذورها، فهو لايكتفى عادة بالوصف العام الذى لا يلامس حقيقة الاشياء ولايهتدى الى كنهها. وقد اختلط المؤلف له منهجا فى هذه الدراسة اراد له ان يكون كما يبدو وسطا بين منهج بعض المؤرخين المسلمين المحدثين والمنهج الاستشراقى التشكيكى فى دراسة التاريخ. فحاول ان يلتقط من الاول ايجابياته ويتجنب فى الثانى مخاطره وسلبياته. وربما مال فى بعض تحليلاته الى هذا الطرف او ذاك فقد اخذ على المستشرقين مثلا نفيهم للجانبالغيبى فى دراسة السيرة ونكرانهم لكل ما وراء المادة والحس. بينما لم يتفق مع بعض المسلمين فى اعتبارهم السيرة النبوية ظاهرة سماويةحضة مقطوعة الصلة بالناحية البشرية وصيرورتها فى الزمان والمكان. وجريا على هذا المنهج بدا المؤلف دراسته بمقدمة تمهيدية درس فيها طبيعة المجتمع الجاهلى قبل الاسلام والعناصرالمؤثرة فيه والقيم والنظم التى كانت تحكمه وتؤثر فيه وخاصة النظام القبلى وما يترتب، وما يتصل به من اهتمام بالانساب وضبط لها باعتبارها الخيط الوحيد الذى يجمع اولئك الناس المنتشرين فى صحراء مترامية الاطراف لا يوجد فيها استقرار دائم ولا وطن دائم ولا سلطان دائم. لقد ثابر المؤلف واجتهد فى تحليل المجتمع الجاهلى وحاول ان يتعقب العناصر المؤثرة فيه الى ما بعد الاسلام ويكشف عن دورها فيما بعد فى نشوب النزاعات وانشاء التحالفات فىالعصر الاسلامى، وقد مال المؤلف فى

بعض هـذه الابحـاث الى الجـانب الثـانى (اى المنهـج الاستشـراقى) ممـا جعله ينتهى الى نتائـج لا نتفق معه فيها، اشـرنا الى بعضـها فى الهامش بتعليقات مختصرهٔ. لكن ذلک لا يضعف الدراسه ولا يقلل من اهميهٔ الجهد المبذول فيها. واخيرا نتقدم بجزيل الشکر والامتنان الى مرکز الغـدير للـدراسات الاسـلاميهٔ الـذى احتضن هـذه الدراسـهٔ وعمل على نشـرها بعـد ان مر على نقلها الى العربيهٔ اکثر من اربع سنوات. داعين المولى جـل شـانه ان ياخـذ بايـدينا جميعـا لمـا فيه خير امتناوخدمـهٔ ديننـا الحنيف ونبيه الکريم (ص) و آخر دعوانا ان الحمدللّه رب العالمين. على السيد هادى ١٨ جمادى الاخرهٔ ١۴١٧ ه ٣٠/١٠/١٩٩۶ م بيروت لبنان.

المقدمهٔ المولف

اتفق جماعهٔ من الاخوهٔ العلماء، على تاليف سلسلهٔ کتب فى حياهٔ الرسول (ص) والائمهٔ المعصومين (ع) على النحو الذى يلبى حاجات عصـرنا الراهن، ويسـتجيب لطموحات المعاصـرين الفکريـهٔ والنفسيهٔ، وقـد تحمل کل واحـد من هؤلاء الاخوهٔ الکرام الکتابهٔ فى حياهٔ واحد او اثنين من هؤلاء العظام، وعهدوا الى بالبحث فى سـيرهٔ الرسول (ص) والکتابهٔ فى هذا الامر المهم، نظرا لمعرفتهم باشـتغالى فى تـدريس تاريخ الاسـلام وسـيرهٔ النبى الاکرم لعدهٔ سـنين فى جامعهٔ طهران. هذا وقد الفت کتب عديدهٔ فى سـيرهٔ الرسول (ص) يمکننا رغم تعددها وتنوعها تصنيفها الى مجموعتين رئيسيتين تنقسم کل واحدهٔ منهما الى مجاميع اصغر. المجموعهٔ الاولى: وهى الکتب التى صنفها المؤلفون المسلمون ابتدا من القرن الهجرى الثانى الى يومنا هذا، وکان الهدف منها سد حاجهٔ المسلمين وتلبيهٔ رغبتهم الشديدهٔ فى الاطلاع على حيـاهٔ الرسول. وکـان من الطبيعى ان تزادالاضافات والاسـقاطات التى تنسجم مع مـذاهب المؤلفين کلما ابتعـدنا عن عصـر الرسول وکلما زادت العقائد وکثرت الفرق والنحل فى العالم الاسـلامى. وکلما اقتربنا من عصـر الرسول (ص) کلما قل الحذف والاسـقاط وکـذلک الاضافات والزوائد المذهبيهٔ. اما التعصـبات القوميهٔ والقبليهٔ فسـتبقى تلقى بظلها الثقيل على السـيرهٔ النبويهٔ وتترک آثارها عليها. لقد انتقل ميدان المواجههٔ بين قبائل جنوب الجزيرهٔ وشـمالها من السـهول والصحرا والمدن الى الشعر والحديث والتاريخ والقصـهٔ، وقـد ظهرت آثـار هـذه النزاعـات وامثالهـا حـتى على کتـب السـيرهٔ. المجموعـهٔ الثانيـهٔ: وهى الکتـب الـتى صـنفها المؤلفـون الاوروبيون او الاجانب غير المسـلمين، بشـکل عام. وکان الغرض منها کـذلک تلبيهٔ رغبهٔ اقوامهم واهل ديانتهم فى الاطلاع على حياهٔ رجل ربما يکون قـد ترک اکبر الاثر فى التاريـخ. اليهود المتعصبين، الـذين يعتبرون نبى الاسـلام (ص) ذلک الانسان الـذى وجه الى دينهم اقوى الضـربات، والحق به اعظم الاضرار، فلا يسعهم والحالهٔ هذه ان ينظروا اليه نظرهٔ محايدهٔ خاليهٔ من الخصومهٔ، فحرفوا الوقائع والاحداث بالصورهٔ التى تخدمهم وتضـر بالاسلام. وقد تعرض ايمان المفکرين والمؤرخين المؤمنين بالکنيسهٔ والقائمين عليها الى هزهٔ عنيفـهٔ منـذ القرن التاسع عشـر فما بعدنتيجـهٔ لظهور افکار عصـر النهضـهٔ منذ القرن الثامن عشـر، ونالالکتاب قدرا اکثر من الحريهٔ، ولم يعودوا مجبرين على متابعـهٔ اصـحاب الکنيسـهٔ، اضف الى ذلک نفوذ الروح العلميـهٔ والتحقيقيـهٔ فى طريقـهٔ کتابـهٔ التاريـخ، فقد تبدلت طريقـهٔ ولهجهٔ کتاب تاريـخ الاسـلام وسـيرهٔ الرسول (ص) فى اوروبا، وآلت بالتدريـج الى النقد العلمى للمصادر وابدا وجهات النظر المحايـدهٔ والمجردهٔ عن العصبيهٔ الدينيهٔ والقوميهٔ بدلا عن النهج السابق، وبذلت المساعى للتحقيق فى حياهٔ نبى الاسـلام (ص) وسيرته بنفس القـدر المبذول للتحقيق فى سـيرهٔ موسـى وعيسـى (ع) وکنفوسـيوس وزرادشت وامثالهم. ورغم ان التحقيق العلمى فى المصادر والوثائق والروايات المرتبطـهٔ بتاريـخ صـدر الاسـلام اعطى نتائج مهمهٔ نسبيا من وجههٔ نظر کتابهٔ التاريخ، وطرح جانبا اکثر آرا مصادر تاريـخ الاسـلام المتحيزهٔ والناجمـهٔ عن العصبيـهٔ، فقـد برز خطر آخر فى هـذا النوع من الکتابـهٔ قتل بصـيص الامل الذى اوجده النفس التحقيقى غير المنحاز، وابـدله الى حالهٔ من الياس، ولم يکن ذلک فى تاريخ الاسـلام فحسب بل ظهر بنفس الشدهٔ بل اکثروا خطر فى تاريخ الاديان والمذاهب الاخرى. لم يکن هؤلاء الکتاب ينظرون الى الدين باعتباره شيئا فوق الطبيعهٔ، انما تعاملوا معه تعاملهم مع سائر الشؤون الاجتماعيـهٔ، ولم يکن ثمـهٔ فرق فى نظرهم بين الـدين وباقى الامور والظواهر الاجتماعيـهٔ، والتحقيق فى تاريـخ وظهور الاديان لـديهم کالتحقيق فى تاريخ السـياسهٔ والاقتصاد والشؤون الحربيـهٔ وتغلب بعض الاقوام والـدول على بعض، ولذلک صار الدينعندهم

امرا دنيويا. وان خطر تحول الـدين الى امر دنيوى من شانه ان يزعزع ايمان وعقيـدة اولئك المشـتاقين المتطلعين الى معرفة سـير العظام من اصـحاب الرسالات وتاريـخ ظهور الاديان، وهـذا هو خطر «تـدوين التاريـخ» الذى يرى ان معرفة كل شـىء يجرى فى اطار التاريخ ومن خلال تطوره، ولا يقيم ايـة اهميـة «للصورة» و «الماهيـة» و «المثال»، وهكـذا يصـبح الـدين امرا طبيعيا ناشـئا عن غريزة الخوف او المصالـح الاخلاقيـة او العامـل الاقتصـادى او مـا شـابه ذلـك، لاـن تاريـخ تطور كـل شـىء يجرى فى اطـار الطبيعـة، وتنطوى «الكتابة التاريخيـة» و «انباء التاريخ» على خطر اهم، ذلك هو خطر الوقوع فى النسبية ونسبية الامور وخصوصا الاخلاقيات، فبموجب هذه النظرة يجب ان تكون حقيقـة الامور متحققـة فى تطورها ونموها، اذن ليست هناك حقيقـة مطلقـة كتلك التى يـذهب اليها اصـحاب الاديان ويـدعون لها، كما لا توجد قيم اخلاقية مطلقة، كل شـىء مرتبط بطبيعته السياسـية غير الثابتة، وله فى كل حالة وآن حقيقة تختلف عن الحالات السابقة واللاحقة لها. ولكن اثبتت الهزات والاضطرابات والتحولات الاجتماعية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ان عدم الايمـان بحقـائق مسلمة وثابتـة وغير قابلـة للتغير، لا يسـلب المجتمعات البشـرية قـدرتها على تحسـين اوضاعها الاجتماعيـة والاخلاقية فحسب بـل ويجعـل العلاـئق الاجتماعيـة والاخلاقيـة فى حالـة مؤسـفة من الضـعف والانحلاـل، ومهما كانت القوانين الوضـعية صارمة وشاملة ومهما بذل من جهد لتطبيقها لا يمكنها ان تحل محل قوانين الاديان الابدية الحاكمة على القلوب والمهيمنة على اعماق نفوس البشـر، ففى بناء المجتمعات تكون القوانين الوضـعية كالقوانين والقواعد الهندسـية التى يسـتخدمها المهندسون والمعماريون فى تشييد المبانى. فلو فقدت المواد الانشائية اللازمة واريد اقامة مبنى طبقا للقوانين الهندسـية من الورق والمقوى مثلا، فقد يبدو مثل هذا المبنى جميلاـ ومستقرا من الخـارج، ولكنه سـرعان مـا ينهـار عنـد تعرضه لابسـط هزة، كمـا هى عليه الاـن المجتمعات التى بلغت قمـة الرفاه الاقتصـادى والتى يجرى فيهـا تطبيق القوانين الوضـعية بشـدة وصـرامة، نجـدها تعيش الفسـاد الاخلاقى والاجتماعى اكثر من اى مكان وزمـان آخرين. اذا لا يمكن النظر الى الـدين على انه مجرد ظاهرة تاريخيـة، ولا يمكن قراته من خلال التطورات والتحولات التاريخية الصرفة، فالنظرة التاريخية الى الدين شىء لازم لكنه غير كاف، فاذا ما حاولنا متابعة ظهور وانتشار دين ما على ضوء الموازين التاريخية المتاحـة، فيجب ان يتم ذلـك من خلاـل الانتبـاه الى كمـال «الصـورة» و «المثـال» وخلودهمـا، فهمـا الحاكمـان على تلـك التطـورات والتحولات والملازمان للدين فى جميع مراحله، وهما اللذان يحفظانه من السـقوط فى حضيض النسبية، بل يجب ان نعتبر ذلك اصلا، اما مراحل التطور والتحول والمجريات التاريخيـة فهى فرع. يقول الشاعر الايرانى مولوى: انك لترى صورة القمر والنجوم مسـتقرة على ماء يجرى باستمرار [۱] .ان الامور الطبيعيـة فى عالم الطبيعـة والامور الانسانيـة ومنها التاريخ، انما هى بناء– على طبيعتها الزمانية– دائما فى حالـة حركـة وتجـدد وسـيلان، وهذا من الامور المسـلمة تقريبا لدى الجميع باسـتثناء اولئك الذين ينكرون الحركة، اما الامور غير الماديـة وغير الطبيعيـة فهى ليست فى معرض الكون والفسـاد، وليس لهـا صـيرورة، بل ان وجودها ثابت ومتحقق من الاول ولاتخضع للحركـة والتغيير، واثبـات ذلك من شؤون العلم الالهى وما ورا الطبيعـة، ونحن نبحثه هنا على انه من الامور المسـلمة او باعتباره اصـلا موضوعيا ثابتا. كـذلك الـذات الالهيـة المنزهـة عن المادة والتركيب والحاكمة على الكون والمهيمنة عليه، هى الاخرى ابدية لا تتغير، وكـذلك القوانين الالهيـة الحاكمـة على العـالم والهاديـة له بحكم اللّه، هى الاءخرى ابديـة لا تتغير، ومن هـذه القوانين قانون الحركة والسـيلان وتطور الاـمور الطبيعيـة الـذى هو ثـابت وابـدى. فقـانون التطور الـذى يبين تطور الموجودات وتغيرها الـدائم هو نفسه ثابت وابـدى من ناحيـة انتسابه الى ما ورا الطبيعـة و ذاتالبارى. ان الاديان الالهيـة ابديـة وازليـة وثابتـة كقانون الحركـة والتكامل من ناحية انتسابها الى ذات البارى تعالى، اما من ناحيـة وجودها فى عالم الطبيعـة وفى المجتمعات الانسانية فانها تابعة الى قوانين الطبيعة ومنقادة للحركـة والاسـتمرارية والتطور. ولاـ بـد لمن يؤرخ للاديـان الالهيـة ان ياخـذ بنظر الاعتبار كلا الجانبين الطبيعى والالهى، فهو فى اطار الطبيعـة والمجتمعات الانسانيـة مشـمول بقوانين الزمن والتاريخ والحركة، ومن جهةكونه الهيا وكونه فوق الطبيعة ثابت وازلى، هذا هو سر التطابق والتوافق بين الاية الشـريفة (ان الدين عند اللّه الاسـلام) «آلعمران: ۱۹». الناظرة الى الجانب الالهى الخالد، والاية الشـريفة (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى) «المائدة: ۳». الناظرة الى سير الدين فى مجرى الطبيعة والتاريخ. ولكن ينبغى الانتباه

الى ان تلك سنة الهية، والسنة الالهية غير قابلة للتغيير والتبدل، فكل شىء فى عالم الطبيعة ومنها التاريخ يجرى طبقا للاسباب والمسببات القانونية، اىالعلة والمعلول. كل شىء فى الطبيعة- بناء على ارادة اللّه الازلية- مقهور للطبيعة ومحكوم لاحكام تلك السنة، لكن لايمكن للنظرة المتفحصة الا ان تلمح اليد الخفية الغيبية والمشيئة الالهية فى سير هذه الاحداث الطبيعية وضمن هذا التسلسل من العلل والمعلولات. واخيرا فانه لا بد للمؤرخ والمحقق من عينين ينظر باحديهما الى عالم الغيب والارادة الالهية، وبالأخرى الى عالم الحس وعالم الطبيعة ويرى فيها اسبابه ولوازمه، ينبغى ان يتمتع بالنظرتين ولا يكون احادى النظرة والاتجاه. فرغم ايماننا حين نستعرض احوال النبى الاكرم (ص) بانه مبعوث من قبل اللّه سبحانه وتعالى وانه هادى البشرية، وان دينه اكمل الاديان، وهو خاتم الانبياء، وان رسالته فوق الزمان والمكان، ومصونة عن التغيير والتبدل، ولكننا لا نملك الا ان نتابع سير الاحداث التاريخية وفقا لما يجرى فى الطبيعة وعالم المادة، فنبى الاسلام (ص) كاى بشر آخر ولد من اب وام، ثم كبر وتزوج، واخيرا ارتحل عن هذه الدنيا. فالولادة والموت، والرشد والبلوغ، والشباب والشيخوخة، انما هى امور حتمية يواجهها كل كائن حى، ولا يوجد فى حياته (ص) من هذه الناحية امر معجز خارق للعادة، واذا ما حكمنا عليه (ص) من خلال التاريخ فيجب ان تنسب الامور الخارقة للعادة والمعجزات والكرامات الى الجانب الالهى فيه، ونتحدث فى ذلك على ضوء معتقداتنا. واذا ما سكت التاريخ عن هذه الناحية، فلا نبدل سكوته هذا الى نعى وانكار ونؤكد فى باب المعجزة على معجزته التاريخية فقط، وهى القرآن الكريم الذى ثبت انه ابدى، ولا يستطيع احد ان ياتى بمثله، وقد انجزاللّه وعده وتعهد بحفظه من اى تغيير او تبديل طيلة الاربعة عشر قرنا الماضية، وسيبقى الى الابد. وفضلا عن هذا، فان اى امر معجز نسب اليه، له وجهان وجانبان كوجهى العملة الواحدة، لا يمكن فصلهما، احدهما الهى غيبى، فنحن على يقين ان لا شىء يخرج عن ارادته سبحانه وتعالى، ومهما بدا الامر مستحيلا فى عالم الطبيعة، فانه خارج عالم الطبيعة امر ممكن وقابل للتصور. والجانب الاخر هو الجانب الطبيعى الذى نعتقد فى حدوده ان جميع ماينسب الى الانبياء (ع) من معاجز وامور خارقة للعادة قابلة للتعليل والتفسير من ناحية عالم المادة والطبيعة، واذا ما ظهرعجز فى تحليلها وتعليلها فان ذلك عائد الى عجزنا نحن، وما اكثر الامور الطبيعية فى هذا العالم التى ما زالت عقول البشرعاجزة عن ادراك كنهها وتفسيرها! وسنسعى مع ذلك الى توجيه تلك المسائل بما تتيحه لنامداليل الايات والاخبار الشريفة، وبما لا يذهب بنا بعيدا عن الذوق والسليقة، توجيها لا يتنافى وقوانين الطبيعة الظاهرة المانوسة لدينا. وهذه التوجيهات التى ستطرح فى مناسباتها من الوقائع التاريخية وحوادث حياة الرسول (ص) لا تعنى خوضنا فى المسائل الكلامية والاعتقادية، فنبحث مثلا بمناسبة الاسرا والمعراج مسالة المعراج الجسمانى والروحانى، فهذه الأمور وامثالها من مسائل علم الكلام الاسلامى، ولا صلة لها بالتاريخ. ولانها ذكرت فى سيرة الرسول (ص) فسنضطر الىاستعراضها بالقدر الذى تدعو الحاجة اليه، وسيكون ذلك فى نطاق سيرة الرسول (ص) والتاريخ، وسنصرف النظر عن المعجزات التى نسبت اليه (ص) والتى لا صلة لها بحادثة او واقعة تاريخية معينة، اذ تنعدم هنا العلاقة بالتاريخ وتدخل المسالة فى مباحث علم الكلام ومسالة اثبات النبوة الخاصة.

القرآن و سيرة الرسول

لا يمكننا قول شىء فيما يخص القرآن الكريم، فوق ما يقوله القرآن نفسه، وهذه الاية الشريفة التى تقول: (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) «البقرة: ٢» هى بيان لصفتين مهمتين فى القرآن الكريم: كونه قطعيا، وكونه هاديا، وتعنى قطعيته بالنسبة للمسلمين شيئين، احدهما: صدوره القطعى من قبل اللّه تعالى، والاخر: ان جميع آيات هذا الكتاب العظيم سمعت بلسان عربى مبين نطق بها الرسول (ص)، وحفظت بدقة وحرص متواصل طيلة اربعة عشر قرنا، وستبقى هكذا محفوظة على مر العصور وتعاقب الايام، وما نقصده بهذا الحديث ان القرآن الكريم من اوثق الوثائق الباقية عن الرسول (ص) واكثرها يقينية. واذا ما تردد البعض من غير المسلمين فى قطعية صدور القرآن الكريم عن اللّه سبحانه وتعالى، فانهم لا يترددون بصدور كلماته وآياته عن الرسول (ص) نفسه، ولا قيمة لتردد قلة معدودة فى هذا المجال، وربما سنتعرض لهذا الموضوع فى مباحث قادمة بصورة استدلالية اكثر تفصيلا. وكون القرآن قطعى

الصـدور عن الرسول (ص) (اى مع قطع النظر عن كونه وحيا الهيا) فان ذلك وحـده يجعله وثيقة لها قيمة تاريخية خاصة بالنسـبة لحياة الرسول (ص). اما ما يمكن اسـتخلاصه بشكل واضح من الاية الشريفة، ان القرآن الكريم بلحاظ الموضوع كتاب هداية وارشاد وليس شيئا آخر، وما نجده من كثرة الايات التى تتحدث عن حياة الانبياء امثال: يوسف وموسى ونوح وابراهيم وعيسى عليهم السلام، او التى تتحـدث عن مصـير بعض الاقوام من قبيل عاد وثمود وقوم لوط وامثالهم، انما هى متعلقـة بالدرجـة الأولى بموضوع الهدايـة والتوجيه، وهكـذا الايـات التى تتحـدث عن سـيرة الرسول (ص) وشؤون حيـاته ومـا واجهه من احـداث وتطورات فى اثنائها هى الاءخرى تتعلق بموضوع الهدايـة قبـل اى شـىء آخر، ويتضـح هـذا المعنى عنـد ادنى تامل فيها. ولكن ذلك لا يمنع من ان تكون تلك الايات بمثابة وثيقـة قطعيـة يسـتند اليهـا كتاب السـيرة لمعرفـة حياة الرسول (ص) والاحـداث التى حفلت بها حياته الشـريفة. وبـذلك يكون القرآن الكريم اعظم الوثائق التاريخية اتقانا، واكثرها قطعية بالنسبة الى بعض ما حدث للرسول (ص) اثناء حياته، وهو يؤيد ما ورد حول حياته (ص) فى المصادر الأخرى. ولكن نظرا لان مسالـة الهدايـة هى الموضوع الاساسـى لهذه الايات، فانها لم تات فى القرآن الكريم بنظم وترتيب تاريخى، بل جاءت فى مواضع ومناسـبات اخرى يرتبط اكثرها بالهدف الاساسـى للقرآن الكريم. مصادر سـيرة الرسول (ص): بدا تدوين سـيرة الرسول (ص) فى الوقت الذى اصـبحت الحاجة اليها محسوسة، وقد استشـعر الناس بهذه الحاجة عندما فقدوا تدريجيا عددا كبيرا من الصحابة (ص) الذين كانوا شهودا على احداث كبرى فى حياته، وكان المسلمون، من غيرالعرب واهل البلاد المفتوحة، يستشـعرون عظمة الدين‌الجديد بعمق ويتوقون لمعرفة احوال صاحب الرسالة (ص)، فقد كان اهل المدن الاسـلامية الكبرى من الكوفة والبصـرة ودمشق ومصـر والرى فى اتم الشوق واللهفـة لمعرفة وقائع ايام الرسول (ص) وصدر الاسـلام، وقد اصـبح العدد المحدود من اصـحاب الرسول (ص) الـذين ما زالوا على قيـد الحياة مرجعا اوليا ومصـدرا اساسـيا يرجع اليه فى هذا المجال، ثم اخذ المحيطون بهم والراوون عنهم والـذين اطلق عليهم (التابعون)، يحتلون نفس الموقع تـدريجيا. وكانت مرجعيـة التابعين من اولاد الصـحابة فى المدينة، سيما اولاد المهاجرين الـذين هم اقرب الناس اليه (ص)، اكثر وضوحا من غيرها، وتتاكـد هـذه المرجعية اكثر حين يكون لدى التابعى نفسه شوق ورغبـة فى الاطلاع على حياة الرسول ووقائع صدر الاسـلام، وتذكر كتب السـيرة والحديث علمين بارزين من التابعين هما: ابان بن عثمان بن عفان، ابن الخليفة الثالث والمتوفى عام (۸۱او ۱۰۵ه) والاخر ابو عبداللّه (عروة بن الزبير بن العوام الاسدى) المتوفى عام (۹۱ ه) وابوه من اشـهر اصـحاب الرسول (ص)، ولكن لاسـباب سياسـية كما يبدو لم يمض العمل بتدوين سيرة الرسول (ص) ايام الامويين الا ببطء، ولم تسـمح المصالح والمطامع السياسـية لهذا العمل ان يتقدم رغم شوق الناس وتعطشـهم الشديد اليه. والسـبب فى ذلك هو ان بنى اميـة كان اكثرهم من اعـدا الـدعوة الاسـلامية ايام انطلاقتها الاولى، وعلى راسـهم زعيم هذه العائلة ابو سـفيان، الذى كان من الـد اعـدا الرسول (ص)، وهو الذى قاد معارك كفار قريش ضد المسـلمين، ولم يسـلم هو وابناؤه وعدد آخر من بنى امية الا فى السـنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة. فكتابة تاريخ الاسلام وتدوين حياة الرسول (ص) واستعراض فتوحاته، التى كان خصمه الرئيسى فيهـا وعـدو الاسـلام الاول بنى اميـة واجـداد الخلفـاء الامويين وعشـيرتهم، ان تاريخا كهـذا لا يسـر هـذا البطن الا اذا حرف كثير من الاحـداث والوقائع بالشـكل الـذى يخـدم مصالـح بنى امية. هـذا وقـد كان اهل المدينـة (اى الانصار) قد اوقعوا بالمكيين والقرشـيين، وخصوصـا بنى اميـة، ضـربات قويـة، ولم يقفوا الى جـانب عثمـان بن عفان الأموى فى الثورة التى آلت الى قتله، فمن الطبيعى فى مثل هـذه الحالـة ان تكون ثمار تـدوين سـيرة الرسول (ص) لصالح الانصار، وهذا ما لا يسع خلفاء بنى امية قبوله. ومن جانب آخر كان بنو هـاشم، وهم اسـرة الرسول (ص)، قـد بـذلوا التضـحيات الجسـام فى تلـك المعارك، وابروا من الشـجاعة والاقـدام شـيئا عجيبا، وكان اميرالمؤمنين على بن ابى طالب (ع) قد قتل جماعة من رؤوس بنى امية فى معركة بدر، فى الوقت الذى كان خصـمه الرئيسـى ومدعى الخلافـة من بنى اميـة هو معاويـة بن ابى سـفيان. فلا يمكن لبنى اميـة ان يرتضوا تدوين تاريخ، يحتل اعداؤهم موقع الصدارة فيه دفاعا عن الاسـلام وتاييدا له، ويحتل اجدادهم موقع الاعدا الالدا للاسـلام ودعوته، اللهم الا ان يكتب تاريخ ليس فيه ذكر لاعمال بنى امية، ولا اشارة لمعاداتهم الشديـدة للاسـلام. وهناك من الشواهـد التى فى ايـدينا ما يؤكـد هـذا الامر بل يجعله اقرب الى اليقين. احد هذه

الشواهد رواية ينقلها الزبير بن بكار فى الموفقيات، [۲] جاء فيها: «قدم علينا سليمان بن عبدالملک، [۳] حاجا سنة اثنتين وثمانين، وهو ولى عهد، فمربالمدينة، فدخل عليه الناس، فسلموا عليه، وركب الى مشاهد النبى (ص) التى صلى فيها، وحيث اصيب اصحابه بأحد، ومعه ابان بن عثمان وعمر بن عثمان، وابو بكر بن عبداللّه بن ابى احمد، فاتوا به قباء، ومسجد الفضيخ، ومشربة ام ابراهيم، واحد، وكل ذلک يسالهم، ويخبرونه عما كان، ثم امر ابان بن‌عثمان ان يكتب سيرة النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم ومغازيه، فقال ابان: هى عندى قد اخذتها مصححة ممن اثق به، فامر بنسخها، والقى فيها «الى عشرة من الكتاب، فكتبوها فى رق، فلما صارت اليه نظر فاذا فيها ذكر الانصار فى العقبتين، وذكر الانصار فى بدر، فقال: ما كنت ارى لهؤلاء القوم هذا الفضل، فاما ان يكون اهل بيتى غمصوا عليهم، واما ان لا يكونوا كذلک. فقال ابان بن عثمان: ايها الامير، لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم من خذلانه، ان القول بالحق، هم على ما وصفنا لک فى كتابنا هذا. قال: ما حاجتى الى ان انسخ ذاک حتى اذكره لامير المؤمنين، لعله يخالفه، فامر بذلک الكتاب فحرق. وقال: اسال امير المؤمنين اذا رجعت، فان يوافقه، فما ايسر نسخه! فرجع سليمان بن عبد الملک فاخبر اباه بالذى كان من قول ابان، فقال عبد الملک: وما حاجتک ان تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل، تعرف اهل الشام امورا لا نريد ان يعرفوها. قال سليمان: فلذلک يا امير المؤمنين، امرت بتخريق ما كنت نسخته حتى استطلع راى امير المؤمنين. فصوب رايه. وكان عبد الملک يثقل عليه ذلک، ثم ان سليمان جلس مع قبيصة بن ذؤيب، فاخبره خبر ابان بن عثمان، وما نسخ من تلک الكتب، وما خالف امير المؤمنين فيها، فقال قبيصة: لولا ما كرهه امير المؤمنين، لكان من الحظ ان تعلمها وتعلمها ولدک واعقابهم، ان حظ امير المؤمنين فيها لوافر، ان اهل بيت اميرالمؤمنين لاكثر من شهد بدرا، فشهدها من بنى عبد شمس ستة عشر رجلا من انفسهم وحلفائهم ومواليهم، وحليف القوم منهم، ومولى القوم منهم، وتوفى رسول اللّه (ص) وعماله من بنى امية اربعة: عتاب بن اسيد على مكة، وابان بن سعيد على البحرين، وخالد بن سعيد على اليمن، وابو سفيان بن حرب على نجران، عاملا لرسول اللّه (ص) ولكنى رايت اميرالمؤمنين كره من ذلک شيئا، فما كره فلا تخالفه. ثم قال قبيصة: لقد رايتنى وهو يعنى عبد الملک وعدة من ابناء المهاجرين، مالنا علم غير ذلک حتى احكمناه، ثم نظرنا بعد فى الحلال والحرام. فقال سليمان: يا ابا اسحاق، الا تخبرنى عن هذا البغض من‌امير المؤمنين واهل بيته لهذا الحى من الانصار وحرمانهم اياهم، لم كانا؟، فقال: يا ابن اخى، اول من احدث ذلک معاوية بن ابى سفيان، ثم احدثه ابو عبد الملک، ثم احدثه ابوک. فقال:علام ذلک؟ قال: فواللّه ما اريد به الا لاعلمه واعرفه. فقال: لانهم قتلوا قوما من قومهم، وما كان من خذلانهم عثمان رضى اللّه عنهم فحقدوا عليهم، وتوارثوا ذلک الحقد، وكنت احب لامير المؤمنين ان يكون على غير ذلک لهم، وان اخرج من مالى، فكلمه. فقال سليمان: افعل واللّه. فكلمه وقبيصة حاضر، فاخبره قبيصة بما كان من محاورتهم. فقال عبد الملک: واللّه ما اقدر على غير ذلک، فدعونا من ذكرهم، فاسكت القوم». وتتضمن الرواية المذكورة، التى نكاد نطمئن الى صحتها، نقاطا مهمة، الاءولى: رغبة الجيل الثالث بعد الرسول فى الاطلاع على سيرته (ص). والثانية: ان هذه السيرة قد دونت منذ القدم، فاخذها ابان بن عثمان وهو من التابعين عن احد الثقات وربما كان من اصحاب رسول اللّه (ص). وعلى هذا يمكننا القول ان هناک من بين الصحابة من كان يدون احداث ذلک العصر، ويؤيد ذلک خبر مروى عن عبداللّه بن عمر بن العاص انه كان يكتب كل ما يسمعه من الرسول (ص) فى كتاب اطلق عليه (الصحيفة الصادقة) [۴] ولا تدل الرواية على تدوين الوقائع والاحداث بل تنص على تدوين الحديث. والنقطة المهمة الأخرى التى هى محل بحثنا ان بنى امية كانوا يكرهون انتشار سيرة الرسول (ص) وتدوينها لاسباب سياسية اوعصبيات عشائرية، او بصورة اكثر تحديدا بسبب الاحداث الدامية التى وقعت بين الانصار وبنى امية. وهناک روايات تتحدث عن ان عبد الملک بن مروان كان قدسال عروة بن الزبير كتبا بعض الاسئلة المتعلقة باحداث صدر الاسلام واجابه الاخير عليها. وربما كان يمكن اعتبار ذلک دليلا على رغبة عبد الملک فى الاطلاع على سيرة النبى (ص) لو كان ما سال عنه عبد الملک ذا قيمة واهمية او من المسائل الحساسة كفضائل بنى هاشم ومناقب الانصار، انما كانت حول مسائل اخرى من قبيل خروج ابى سفيان لمعركة بدر، او وقائع معركة خالد بن الوليد فى فتح مكة وغير ذلک. ومن ضمن الروايات التى تحكى معارضة بنى امية لتدوين السيرة، خبر جاءنا عن خالد بن عبداللّه القسرى، حاكم العراقين

فی عهـد هشام بن عبد الملک، والمقتول فی السـجن عام ۱۳۵ او ۱۳۶ ه، حیث یقول الخبر الـذی اورده صاحب الاغانی: ان خالـد بن عبداللّه طلب من العالم والمحدث المشـهور محمد بن شـهاب الزهری ان یکتب له السیرهٔ، فقال له: فانه یمر بی الشیء من سیر علی بن ابی طالب صلوات اللّهعلیه اذکره؟ فقال: لا، الا ان تراه فی قعر الجحیم. [۵] وکانخالد والیا من قبل هشام بن عبد الملک، ورغم وجود الصـفات الجیدهٔ من السـخاء والفصاحهٔ الا انه کان رجلا بخیلا ومتهمافی دینه، وبالفساد وخصوصا الفساد الاخلاقی، حیث نقل عنهفی شبـابه انه: کان فی حـداثته یتخنث ویتتبع المغنین والمخنثین متهما ویمشـی بین عمر بن ابیربیعـهٔ وبین النساء فی رسائلهن الیه [۶] .رغم هذا کله لم یسـتطع بنو امیهٔ الوقوف امام رغبهٔ الناس وشوقهم فی الاطلاع علی السـیرهٔ، فشـرعت شخصـیات عظیمهٔ وعلماء کبار، امثال: ابن شـهاب الزهری، وابو الاسود، وموسـی بن عقبهٔ، ومحمد بن اسـحاق، وابو معشـر السندی بتالیف وتدوین سیرهٔ الرسول (ص). ومن اهم تلک الاثار، التی وصـلت الینا واشملها: سیرهٔ محمد بن اسحاق بتلخیص ابی محمد عبدالملک بن هشام الحمیری النحوی المتوفی (۲۱۸ او ۲۱۳ ه) کمـا انهـا تعتبر اقـدم واوثق کتاب حول الرسول (ص). ومصادرنا الاساسـیهٔ فی کتابنا هـذا، اولا: ذلک التلخیص (ای تلخیص ابن هشام) المعروف بسـیرهٔ ابن هشام، وثانیا: تاریـخ الطبری، الـذی ینقل سـیرهٔ ابن اسـحاق بطرق اخری (ای عن رواهٔ آخرین نقلوا عن محمد بن اسـحاق، امثال سـلمهٔ بنالفضل، ویونس بن بکیر. والثالث: سـیرهٔ ابن اسحاق عن نسخهٔ القرویین، وهی النسخهٔ التی وجـدت فی مکتبهٔ القرویین فی مدینهٔ فاس المغربیهٔ، وبتحقیق محمد حمید اللّه عام ۱۹۷۹ م، وقد طبعت فی المغرب، ونسخهٔ القرویین بروایـهٔ یونس بن بکیر. ومن مصادرنا الاءخری: کتاب (المغازی) لمحمد بنعمر الواقدی (طبعهٔ لندن، ۱۹۶۶) وطبقات ابن سعد کاتب الواقدی (منشورات زاخاو، برلین) وکتاب (انساب الاشراف) للبلاذری (ج ۱)، وکتب اخری سنشیر الیها اثناء البحث.

الجزیرهٔ العربیهٔ قبل الاسلام

اشاره

لم یکتشف تاریـخ شبه الجزیرهٔ العربیهٔ بشـکل علمی الا فیالقرن التاسع عشـر، ففی هذا القرن توغل السـیاح وعلماء الاثارفی الصـحرا العربیـهٔ، و عثروا علی کثیر من الاثار والمجسـمات القدیمـهٔ التی وجـدوها موزعـهٔ فی الاجزا الماهولـهٔ منها، وخاصهٔ فی القسم الجنوبی الغنی جدا بتلک الاثار. واستطاعوا بعد جهود مضنیهٔ قراتها وتحلیل النقوش التی کانت علیها والخروج بنتائج علمیهٔ قیمهٔ، ازاحت الستار عن تاریـخ قـدیم، ولولاـ هـذه الـدراسات لکـانت تلک الاثار ترقـد فی باطن الارض حتی هذهاللحظـهٔ. وطبقا لهـذه الحفریات ثبت ان هناک حضارات مهمهٔ نمت وترعرعت فوق هذه الارض قبل مولد المسیح (ع)، وخضعت لملوک وحکومات متعددهٔ فرضت سیطرتها علی هذه البلاد، ولسنا الان بصدد هذا البحث الذی یشکل الیوم قسما مستقلا فی الدراسات الشرقیهٔ، ذلک ان تلک الحضارهٔ کانت قد زالت وانتهی امرهـا قبـل مولـد الرسول (ص) فی النصف الثـانی من القرن السـادس المیلاـدی، وکـان النـاس قـد نسوا لغتهم وکتابتهم القدیمـهٔ حتی ان الخـط الحمیری ما کان یقرا الامن قبل علماء معـدودین فی ذلک العصـر وبصـعوبهٔ بالغـهٔ. وقـد وجـدت اللغهٔ العربیهٔ المتداولـهٔ حالیا، والتی نزل بها القرآن الکریم علی صـدر الرسول (ص)، رواجا ملحوظا فی القرن السادس المیلادی بین البدو والقبائل التی اسـتوطنت القسم الشمالی من شبه الجزیرهٔ العربیهٔ، وظهر شعرا عرب نبغوا فی نظم الشعر واظهروا ثرا اللغهٔ العربیهٔ ونضجها وقدرتها علی حمل ثقافات وافکار غنیهٔ، وکانت هذه اللغهٔ قد انتشـرت حتی غطت شبه الجزیرهٔ العربیهٔ من الشمال الی اقصی الجنوب. وقد رافق الانتشار اللغوی هـذا انتشار للعادات والانماط الحیاتیـهٔ التی کان علیها اهل البادیهٔ واصـحاب اللغهٔ الاصـلیون، وسادت فی الجنوب کما فی الشمال النظم القبلیهٔ والاعراف العشائریهٔ نفسها باستثناء بعض المدن فی الیمن. وقد تزاید نفوذ هذا النظام القبلی حتی خضع له اهل المـدر فی مدن مکهٔ والطائف ویثرب، واسـتحکم بهم تماما. ولا یمکننا فهم سـیرهٔ الرسول (ص) وادراک المعانی الحقیقیهٔ لمواقفه مع افراد قبیلته، ومعرفـهٔ العلاقات التی کانت تربط قریش بباقی القبائل، وکذلک تقییم حروب الرسول (ص) ومغازیه، الا بدراسهٔ المجتمع

العربى آنـذاک والاحاطة باوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية، ونقصد بهذه الاوضاع نظامالقبائل العربية فى ذلک الزمان الذى كان يحكم كما اشـرنا سابقا شـبه الجزيرة العربية باكملها تقريبا، ولهذا سـتنتفى الحاجة لدراسة التاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية وما سجلهعلماء التاريخ وخبرا الاثار عن تلک الادوار القديمة من تاريخ هذا الجزء من العالم.

النظام القبلى

القبيلـة: وحـدة اجتماعيـة يـدعى افرادها انحـدارهم من اب واحـدحتى لو كان هـذا الاب بعيدا جدا ويعيشون حياة اجتماعية واقتصادية مشتركـة. والحياة الاقتصاديـة المشتركـة، هى عبارة عن امتلاک مرعى ومرتع مشترک، والاشتراک فى سوق القبائل المتنقل، وكذلک الانتقال، من مرعى الى مرعى ومن واحـة الى اخرى بصورة جماعية، اما الاشتراک فى الحياة الاجتماعية فيتحقق من خلال طاعة رئيس القبيلـة او شـيخ العشـيرة كمـا يطلق عليه فى شـبه جزيرة العرب، ومشاركـة افراد القبيلـة جميعا فى الحروب والغزو والـدفاع عنها، واخذ القصـاص وتسلم الـديات، ديات قتلى القبيلـة من قبيلـة القاتل، وكـذلک دفع ديـة المقتول الى قبيلته، واتخاذ قرار التحالف مع القبائل الاخرى، او بالعكس، اى الخروج من التحالف وفک عرى الاتحاد، وغير ذلک من امور يشترک افراد القبيلـة الواحدة فيها. ويتضح من هـذا ان النظام القبلى من شؤون اهل الباديـة وسـكان الصـحرا، ولهذا فهو نمط من الحياة متقدم زمنيا على نمط حياة المدن، ويعتبر هذا الاخير اعلى مرتبـة منه، واكثر تعقيـدا من ناحيـة التطور الاجتماعى. وتعتبر المسؤوليـة المشتركـة لافراد القبيلـة، فى الدفاع عن مصالحها الاقتصاديـة والاجتماعيـة، من اهم خصـائص النظـام القبلى، وفيمـا اذا جفت الصـحرا وعجزت مواردهـا عن تلبيـة حاجـة القبيلـة وتوفير مسـتلزماتها الغذائية والمعيشية فسيكون ابناء القبيلة جميعا امام مسؤولية مشتركة لغزو القبائل، بل القرى والمدن المجاورة، لتامين الحياة الاقتصاديـة لجميع افراد القبيلـة، وقد اورثت هذه المسؤولية المشتركة لافراد القبيلة، فىالحروب الدفاعية والهجومية، حالة من الشـجاعة والاقدام والجلد عند افراد القبائل لا يملكها اهل المدن بصورة عامة. فالحياة الاجتماعية المتطورة تستدعى تقسيم الاعمال بحيث تكون جماعـة معينـة مسؤولـة عن توفير مسـتلزمات العيش، بينمـا تتحمـل جماعـة اخرى قضايا الـدفاع وحمايـة مصالـح المجتمع. وكان هـذا الاحساس المشترک بالـدفاع عن المصالـح الحيويـة هوالمسؤول عن بروز سـمة التعصب فى المجتمع الجاهلى، وهى حالة من التضامن الوثيق بين افراد القبيلـة الواحدة فى الامور الاقتصادية والمعيشـية، ما لبثت ان تحولت الى امر معنوى روحى كالشـعور بالاعتزاز والفخر والشـرف بالانتماء الى القبيلة، ولولا هذه المشاعر والاحاسـيس، ما كان الانسان القبلى مؤهلا للتحرک والحضور الى ساحة الدفاع متى ما دعـت الحاجـة. ومن هنا صارت الشـجاعة والتعصب والشـرف ووالتفاخر بالوحدة القبلية، التى كانت تتشـكل غالبا من المحافظة على الانسـاب وعلى سـمعة الاباء والاجـداد من ان يمسـها شـىء، صـفاتا مشتركـة لافراد القبائل البدويـة بشـكل عام، ولا تشاهـد مثل هـذه الصـفات بين سـكان المدن بصورة عامة، سـيما مايخص الانساب والمحافظة على اسماء الاباء والاجداد التى كانت غائبة فى المدن الا عند الاشراف والاعيان، ولم يتقن اهل المدن فن معرفة القبائل والاحلاف التى تجمعهاوالتفرعات والافخاذ التى تنشا منها.

اهمية النسب داخل القبيلة

رغم الـدور الاساسـى الـذى تلعبه العوامل الاقتصاديـة والاجتماعيـة فى حفظ كيان القبيلـة، يبقى للنسب مكانته الخاصة كمائز تمتاز به القبائل عن بعضـها البعض، ويحدد لها شخصـيتها الذاتية دون ان تختلط مع بعضها. لهذا كان ابناء القبائل يسعون جهدهم لحفظ اسماء آبائهم واجـدادهم، وبـذلک لا يحفظون نسـبهم، اى هويـة قبيلتهم، فحسب، بل ويستحضـرون مفاخر القبيلة ومناقبها، ليسـتحثوا الهمم، ويزيدوا التعصب حدة وقوة. وكان سكان المدن لا يشعرون بالحاجة الملحة لمثل هذه الأمور، رغم حاجتهم الى عوامل الفخر والشرف لتحقيق الانجازات الاجتماعيـة المهمـة، لكن ليس بتلک الشدة التى كان عليها اهل البادية، وكان عمر ينتقص من انباط العراق ويقول: ان هؤلاء ينسـبون انفسـهم الى قراهم ومحال سـكنهم عندما يسالون عن اصـلهم ونسـبهم. وكان يوصـى العرب بالمحافظة على انسابهم

لكى ينتسبوا اليها عندما يسالون عن اصلهم [٧] .

حقيقة النسب

يقول ابن خلدون فى مقدمته: ان النسب امر وهمى ليس له حقيقة، وتكمن اهميته فى ربطه للاقارب بعضهم مع بعض وتعصبهم لبعضهم. [٨] ولعل هذا القول ينطوى على شىء من المبالغة، لكنه لا يفتقر الى الحقيقة تماما، فمن خلال مطالعة علم الانساب لدى العرب نجد فى التحالفات القبلية التى تنظم فيها القبائل الضعيفة الى القبائل القوية، ينسب اهل القبائل الضعيفة انفسهم الى القبائل القوية التى تحالفوا معها، الى ان يؤدى ذلك بمرور الزمن الى نسيان انتمائهم الى قبائلهم الاصلية، ولا يبقى امامهم سوى نسب واحد هو نسبهم الى القبيلة القوية، ويصدق نفس الامر فى حالة الاستلحاق والجوز والولاء بالنسبة الى الافراد.

الحلف

كانت الاحلاف والمواثيق من الامور الشائعة جدا لدى العرب، فرضتها المتطلبات السياسية وضرورات حفظ الكيان القبلى من الزوال، حيث تتفق قبيلتان او اكثر بشكل كلى او فى امور معينة على ان يدافعا عن بعضهما، ويتحدا معاضد العدو المشترك، ويتم هذا الاتحاد فى مراسم خاصة منها القسم اوالحلف، ولهذا سمى بالحلف او التحالف، او ما الى ذلك من الفاظ اشتقت من المعنى نفسه، كما تجرى مراسم اخرى بهذه المناسبة سنشير الى بعضها ضمن الحديث عن حلف «المطيبين». ولهذه الاحلاف آثار كبيرة على النسب كما اشرنا سابقا فغالبا ما ينتهى ابناء القبائل المتحالفة الى نسب واحد بمرور الزمن ويصيرون وكانهم ابناء قبيلة واحدة.

الجوار

من الاعراف التى كانت شائعة لدى العرب والتى فرضتها طبيعة الحياة الصحراوية والقبلية. فكان الفرد او القبيلة الضعيفان يلجاان الى من يجاورهما ويلوذان به خوفا من الافراد او القبائل الاقوى. فهما يطلبان الجوار، وفى حالة قبول لجوئهما او (جوارهما) من قبل الفرد او القبيلة (المجيرة) فسيعتبر الاعتدا على هؤلاء بمثابة اعتدا على الفرد او القبيلة المجيرة، ويحدث احيانا ان يسترد الجوار بطلب من المجيراو غيره، وكل من اعطاء الجوار او استرداده لا يتم الا باعلانه على عامة القوم.

الولاء

وهو من العوامل المهمة فى تعيين النسبة الى القبائل حتى اشتهرت بين العرب مقولة «الولاء لحمة كلحمة النسب». وكان الولاء على عدة انواع، منها ولاء «العتق»، ويتحقق هذا فيما اذا اطلق شخص عبدا، فسينسب ذلك العبد المحرر الى عشيرة الشخص الذى حرره واطلقه، ويسمى مولى فلان «المحرر»، والمولى هو الشخص المتحرر. ولهذه الحالة احكامها الخاصة فى الفقه فى باب المواريث وغيرها. ويرتبط هذا (المولى) اوالشخص المتحرر بالقبيلة التى حررته وينتسب اليها، ولكن مع اضافة كلمة (بالولاء)، اى ان نسبته الى هذه القبيلة ولاء لاحقيقة، ويحصل الولاء ايضا من المعاشرة والحلف والتعاهد كما حدث ليهود يثرب مع قبيلتى الاوس والخزرج. وكان يطلق اسم الموالى على غير العرب جميعا بعد الفتوحات الاسلامية، ولوحظ نوع من الاصرار الشديد على ان يطلق اسم الموالى على غير العرب خلال ايام الدولة الاموية. وينطوى التعبير بالموالى على شىء من الاستصغار والتحقير، فالمولى رغم انه اعلى فى المرتبة الاجتماعية من العبد، الا انه ادنى من المالك. وفى مقدمة ابن خلدون فصل «فى ان البيت والشرف للموالى واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا ـ بانسابهم»، يقول: «فشرف المولى منشق من شرف مواليه، وبناؤه من بنائهم، فلم ينفعه نسب ولادته»، ويروى فى هذا الباب حديث عن الرسول (ص): «مولى القوم منهم».

الاستلحاق

والاستلحاق من الموارد التى يتم فيها الغاء النسب الاصل واكتساب نسب جديد مكانه، وذلك عندما يلحق شخص من عائلة او قوم معينين شخصا آخر بنفسه كابن له او اخ، ويدعى الشخص الذى يلحق نسبه بنسب آخر ب (الدعى) والجمع (ادعياء)، وسنرى كيف ان زيد بن حارثة صار يدعى زيد بن محمد (ص)، وبهذا نزلت الاية (۴) من سورة الاحزاب: (وماجعل ادعیآءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم واللّه يقول الحق وهو يهدى السبيل). وهنا نهى صريح عن (التبنى) اواتخاذ (البنوة). اما الاية التى تليها فتقول: (ادعوهم لابائهم هو اقسط عند اللّه فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما اخطاتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان اللّه غفورا رحيما) «الاحزاب: ۵»، فبعد هذه الاية اصبح زيد يسمى باسم ابيه زيد بن حارثة. ولعل من المناسب ان نذكر الحادثة التى وقعت فى خلافة معاوية، حيث قام معاوية باستلحاق زياد بن ابيه بنسبه، وخالف بذلك صريح الاية الشريفة السابقة، الدال على ان الاب غير الشرعى ليس ابا فى الاسلام، كما ان اثبات ذلك فى الموارد المشكوكة من الأمور الصعبة جدا ان لم تكن المستحيلة.

الخلع

وبعكس الاستلحاق كان هناك الخلع عند العرب، حيث يتم التبرى من الاشخاص الذين يرتكبون الجرائم والاعمال الشنيعة التى من شانها ان تلحق العار بعوائلهم وقبائلهم التى ينتسبون اليها، لذا تبادر القبيلة او الاب الى اعلان المتبرئة من ذلك الشخص على الملا العام، وبعد ذلك تكون الجهة المتبرية غير مسؤولة عن الجرائم التى يرتكبها، وغير ملزمة فى دفع الدية عن الخليع. ويسمى مثل هذا الشخص ب (الخليع)، ويحدث احيانا ان يتحد الخلعاء مع بعضهم فى وسط البادية ليكونوا قوة تهدد الطرق والقوافل. كان قيس بن الحدادية من خلعاء العرب المشهورين، وهو من قبيلة خزاعة، وكان شجاعا وشاعرا، قام بقطع الطرق على القوافل فطردته خزاعة وتخلت عنه، واعلنت ذلك فى سوق عكاظ، وقالت: انها لن تكون بعد الان مسؤولة عن جرائمه، وقد وردت اخبار قيس بن الحدادية (حدادية بضم او كسر الحاء هو اسم امه) فى كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى. [۹] ومن بين الذين خلعوا من قبائلهم فى عهد الاسلام يعلى الاحول الاردبى وهو شاعروقاطع طريق [۱۰].

اهمية انساب القبائل فى تاريخ الاسلام

تؤكد الاية (۱۳) من سورة الحجرات على هذا الموضوع حيث تقول: (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند اللّه اتقاكم..). والدلالة الالتزامية لهذه الاية الشريفة هى رفض واستنكار العصبيات القبلية والخصومات العنصرية والتفاخر بالانساب، وكلها من الظواهر التى اشتهرت بها العرب، وبلغت حدا جعل القبائل العربية لاتعرف شيئا اسمه قوم او امة (العرب) ولم تكن تفهم معنى للوطنية او القومية، وللقبيلة او الشعب احيانا، الذى هو اكبر منها (مجموعة من القبائل يجمعها نسب واحد) معنى يشبه معنى المدينة عند اليونانيين او معنى الامة عند الكثير من شعوب العالم فى القرون الحديثة. ويطلق على اهل البادية «الاعراب» كما يطلق اللفظ نفسه بنوع من الاستخفاف على البدو الرحل فى الصحرا دلالة على خشونتهم وجفاف اخلاقهم. وقد وردت كلمة (عربى) فى اللغة العربية التى كانت لغة عامة القبائل، ونادرا ما كانت تستعمل كلمة (العرب) بالمعنى نفسه الذى استعملت فيه بعد الاسلام، وقد وردت اشارة فى (سورة الحجرات) الى الحرب التى نشبت بين طائفتين من المسلمين فى المدينة (الاوس والخزرج) على اثر عدا قبلى وتخاصم عشائرى (تفسير الطبرى فى ذيل هذه الاية من سورة الحجرات). ولم يات الاسلام، وهو دين التوحيد، للقضاء على التمييز القبلى فحسب، وانما جاء ليمحو التمييز العنصرى بشكل عام، وان معنى التوحيد فى مراتبه الدنيا هو ايجاد الوحدة

بين الناس تحت شعار الاسلام. ولم تسنح الفرصة امام هذه التعاليم الالهية السامية لتاخذ طريقها الى قلوب المسلمين بحيث تجعل مفهوم توحيد الناس والمساواة فيما بينهم، التى لم تزل هدف الانسانية المنشود، واقعا معاشا. وفى هذه السورة نفسها اى سورة الحجرات، توجد اشارة الى هذا المعنى، فبعد ان تشجب الاية الشريفة النزاع والتفاخر القبلى تاتى الاية التالية لتقول: (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فىقلوبكم..) «الحجرات: ۱۴» ويدل مجىء هذه الاية بعد تلك الاية مباشرة على ان المقصود بالايمان هو الايمان بهذا المبداعلى الصعيد الاجتماعى، اى الايمان بالمساواة ورفض التمايز القبلى والتفاخر بالانساب، وهذا ما لم يستقر بعد فى قلوب العرب ووجدانهم. وفى الوقت الذى اختفت فيه المفاخرات النسبية والعداوات القبلية اثناء الفتوحات الاسلامية، نجد انها قد عادت بعد تفجر الحروب الداخلية ايام خلافة امير المؤمنين على بن ابىطالب (ع)، واستفحلت فى النصف الثانى من القرن الهجرى الاول، فكانت من اهم الاسباب التى ادت الى سقوط الدولة الاموية. والى هذا السبب يعود الرواج الواضح لعلم الانساب فى القرن الهجرى الاول، حيث كانت التحالفات القبلية الكبرى بامس الحاجة لمعرفة انسابها وشد الاواصر فيما بينها لتدافع عن كيانها وتقاوم اعداها، اضافة الى ان تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام يتلخص ككل فى التنازع والتخاصم القبلى والتفاخر بالانساب، الامر الذى ادى الى تطور علم الانساب لتمييز القبائل المختلفة بعضها عن بعض. ورغم ان الحروب التى خاضها الرسول (ص) كانت بينالاسلام والكفر، وبين التوحيد والشرك، الا انها كانت فى لباسها الدنيوى والمادى تتحول الى حرب بين القبائل، ففى الوقت الذى كان الرسول (ص) يقود المهاجرين فى معركة بدر، كان ابو سفيان يقود كفار قريش، والاثنان كانا من قريش، الا انها كانت فى واقعها حربا بين قريش من جانب وقبائل الاوس والخزرج من جانب آخر، فبعد معركة احد نجد شعرا قريش يتغنون بانتصارهم على الاوس والخزرج، ويتفاخرون بذلك النصر. وفضلا عن هذا فان الاية الشريفة من سورة الحجرات، تذكران معرفة القبائل والطوائف والاطلاع على انسابها انما هى من اجل تشخيص هوية الافراد، ولان التاريخ هو عبارة عن تاريخ الاحاد والافراد اذا ما قطعنا النظر عن جانبه العام والانتزاعى فلا يمكن معرفة هؤلاء الاشخاص والاحاد فى التاريخ الاسلامى الا عن طريق الاحاطة بالقبائل والانساب، ومن هنا يمكن ادراك الاهمية الخاصة لمعرفة القبائل وانسابها فى فهم التاريخ الاسلامى.

اقسام الطوائف

كانت القبيلة اشهر وحدة اجتماعية واكثرها شيوعا وتداولا فى حياة العرب فى الجزيرة العربية، ولا نجد تعريفا محددا لها اكثر من كونها اشتراك فى النسب وطرق المعيشة والامور الاجتماعية الاخرى، فليس من المعروف او الواضح عدد العوائل او الافراد الذين تتكون منهم القبيلة الواحدة. وتوجد تقسيمات اخرى اكبر من القبيلة او اصغر منها، تنقسم فيها القبيلة الى فروع متعددة، وهذه الأخرى غير محددة فىعدد العوائل او الافراد الذين تتكون منهم، واشهرهذه التقسيمات ما ذكره (النويرى) فى (نهاية الارب) [۱۱] .حيث اعتبر (الجذم) و (الجماهير) و (الشعب) و (القبيلة) من الاقسام الكبرى بينما الصغرى عبارة عن (العمارة) و (البطن) و (الفخذ) و (العشيرة) و (الفصيلة) و (الرهط). واختلف ايضا فى تحديد مصاديق هذه الاسماء، فبينما جرت العادة على اعتبار قريش قبيلة مثلا، نجد علماء الانساب لا يوافقون على ذلك بل يجعلونها عادة عمارة، اما القبائل فهى امثال: مضر، وربيعة، وبنى مخزوم، وبنى عبد مناف، او بنى هاشم، اما بنو امية فهم بطن، ويعتبر العباسيون فصيلة، وكذلك الطالبيون، ويذكر النويرى فى نسب الرسول (ص) بنى عدنان، ويقول: انهم «جذم»، ويطلق على معد «جمهور»، وعلى نزار «شعب»، وعلى مضر «قبيلة»، وعلى خندف «عمارة»، وعلى كنانة «بطن»، وعلى قريش «فخذ» وعلى قصى «عشيرة»، وعلى عبدمناف «فصيلة» ويسمى بنى هاشم «رهط».

اليمانى والنزارى او القحطانى و العدنانى

كانت القبائل فى صدر الاسلام تنقسم الى شعبتين او شعبين كبيرين يمانى ونزارى. وقد حدث ذلك بسبب ما ظهر من خصومات

ونزعات قبلية بين مجموعتين من القبائل. وليس خافيا ان الخصومات القبلية كانت موجودة قبل الاسلام، وكانت فى اغلبها خصومات وحروبا تنشا لعوامل اقتصادية اومعيشية او لاسباب ثارية، اما على شكل خصومات شاملة بين ما يسمى باهل الجنوب واهل الشمال، او القحطانيين والعدنانيين، فهذا ما لم يلحظ قبل الاسلام. ويرجع اصل هذه المسالة الى هجرة القبائل من الجنوب او اليمن الى الشمال، فكانت القبائل التى هاجرت من الجنوب ووجدت لها مراتع شتوية هناك، قد احيت هذه المسالة التى كانت قد طرحت بصورتها العامة المبهمة، حيث ارجع الشماليون نسبهم الى نزار او معد او عدنان، واخيرا الى اسماعيل بن ابراهيم (ع)، ولهذا اصبح جميع هؤلاء يسمون فيما بعد بالعرب المستعربة (اى المتعربين)، فمن المعروف ان اسماعيل وابراهيم ليسا من‌العرب، وصار ابناء اسماعيل عربا بعد ان استوطنوا شبه‌الجزيرة العربية فى جزئها الشمالى، وقد انتسبت قريش، التى كانت تستوطن مكة، الى نزار بن معد بن عدنان، ولهذا صاريطلق على القرشيين (النزاريين) او (المعديين) او (العدنانيين)، اما سكان المدينة وهم فى الغالب من قبيلتى الاوس والخزرج فهم يمانيون جاءوا من الجنوب. وحتى الخصومات التى حدثت بين قريش وقبيلتى الاوس والخزرج لم تكن موجودة قبل الاسلام، ولم ير لها اثر يذكر فى الشعر الجاهلى، بعكس النزاع بين الاوس والخزرج داخل المدينة نفسها حيث كان قدبلغ الذروة قبيل الهجرة، وكاد ان يهدد الطرفين بالفناء. واكتسبت قبيلتا الاوس والخزرج اسما جديدا بعد هجرة الرسول (ص) الى المدينة، فصاروا يسمون ب «الانصار» اما الذين هاجروا من مكة الى المدينة فصاروا يدعون ب (المهاجرين). ولم يظهر فى حياة الرسول (ص) خلاف واضح بين المهاجرين والانصار، اما بعد وفاته (ص) فقد احدثت مسالة الخلافة تنافسا شديدا بين المهاجرين والانصار، او بين قريش وقبيلتى الاوس والخزرج، ويمكن الاشارة هنا الى ظهور بعض الخصومات القديمة بين الاوس والخزرج انفسهم، التى انتهت لصالح قريش وحسمت الخلافة لها. وقد ساهمت الفتوحات الاسلامية وهجرة العرب الى بلداناخرى خارج شبه الجزيرة العربية واستقرارهم فى مدن مثل الكوفة والبصرة، فى تجميد الاختلافات واختفائها مؤقتا. حتى جاء الخليفة الثالث عثمان الاموى القرشى الذى قتل بيد الانصار (اهل المدينة)، فقد تحول هذا الحدث الى حجة رفعها معاوية لتحريك الناس، وتعبئتها للمطالبة بدم عثمان والانتقام من قتلته، وتبدلت هذه الخصومة بين الانصار (وهم من قبائل الجنوب او اليمن) من جانب والمطالبين بدم عثمان من جانب آخر الى خلاف بين عرب الجنوب وعرب الشمال او بين اليمانيين والنزاريين، هذا مع ان قيادة الطرفين المتخاصمين فى معركة صفين كانت من قريش (امير المؤمنين ومعاوية)، وقد بلغ النزاع بين القبائل مبلغا عظيما بعد مقتل‌عثمان ومعركة صفين وعاد كما كان قبل الاسلام، غير ان المسائل الاقتصادية وقضايا قطع الطرق لم تعد موجودة بين الطرفين، بل تجلى الخلاف على شكل نزاع بين طائفتين كبيرتين من العرب اليمانيين والنزاريين. وقد زادت العوامل السياسية هذا النزاع اتساعا واخرجته على شكل خصومات عرقية (لا نقصد بالعرق هنا المعنى المعروف اليوم، بل نقصدبه ذلك الامر الذى يصنف الناس على اساس الدم او الجنس او ما يشبههما من الامور الاءخرى، ويفصل فصلا اصطناعيا بين جماعتين كبيرتين من البشر، ويؤدى الى ظهور النزاع واثارة الضغائن بينهما). وصل الخلاف بين هاتين المجموعتين من القبائل النزارية واليمانية الى الحد الذى اوقد بينهما نار الحرب واحدث معارك داخلية ايام الدولة الأموية ادت الى ضعفها ومن ثم سقوطها، وقد هيات هذه الاختلافات فرصة جيدة للشعرا والخطباء ليذكوا نار الاحقاد ويذكروا الطرفين بامجادهم ومناقبهم، ولم يكن النزاريون او المعديون او العدنانيون، ومنهم قريش والرسول (ص) والخلفاء جميعا، بحاجة ماسة الى البحث عن مفاخر وامجاد اخرى، اما الجنوبيون من اهل اليمن، فقد كانوا فى صدد تحويل هذه الخصوصية الجغرافية الى خصوصية عرقية، فكما ان الشماليين نسبوا انفسهم بموجب العهد القديم الى اسماعيل، نسب الجنوبيون انفسهم الى قحطان (او يقطان كما فى العهد القديم) ومن هنا صار يعرف اليمانى والنزارى بالقحطانى والعدنانى فى التاريخ الاسلامى. ونريد بهذا التفصيل ان نوضح ان تصنيف القبائل العربية الى مجموعتين كبيرتين عدنانية وقحطانية، كان قد ظهربعد الاسلام.. فرغم ان القبائل العربية كانت تحرص فى تاريخها قبل الاسلام على معرفة انسابها واستحضار آبائها واجدادها كوسيلة من وسائل حفظ كيانها وحماية وحدتها.. الاان تلك السلسلة النسبية لم تصل الى حد تقسيم القبائل العربيةجميعا الى قسمين رئيسيين او ثلاثة اقسام او اربعة.

تدوين الانساب

اتضح ان القبائل كانت قبل الاسلام تحرص على حفظ سلسلة نسبها، وكان يوجد بين افرادها من له الخبرة والمعرفة اكثر من غيره، فكانوا يرجعون اليه عندما يشكل الامر عليهم، وكان جبير بن مطعم اكثر افراد قريش معرفة فى علم الانساب اثناء خلافة عمر بن الخطاب، وكان اخذ علمه عن ابى‌بكر. [١٢] وهو احد الثلاثة (جبير بن مطعم، ومخرمة بن‌نوفل، وعقيل بن ابى طالب) الذين استعان بهم عمر عندما عزم على تشكيل ديوان العطايا لتحديد اعطياتالناس وانسابهم [١٣] .ونتيجة لتفاقم حالة التنافس والتخاصم بين القبائل نشات الحاجة الى خبرا يهتمون بشؤون الانساب ويدونوها. وظهرت فعلا طائفة من هؤلاء الذين عرفوا ب (النسابة)، وقد الفوا كتبافى ذلك، اشهرها واهمها واكثرها شمولا كتاب (جمهرة الانساب، لهشام بن محمد الكلبى). وبهذا يتضح ان تدوين انساب العرب وجمعها بالشكل الذى ورد فى كتب التاريخ والانساب، قد حدث بعد ظهورالاسلام، وقد دونها المؤلفون وجمعوها من افواه الناس،وبالاستعانة بالنسابة الذين كانوا يحفظون الانساب عن ظهر قلب. ونظرا للعصبيات القبلية الشديدة وما ورد من روايات عديدة حول تزوير الانساب والحاق بعضها ببعض لاسباب سياسية، فان الاعتماد الكلى على المعلومات التى وردت بهذا الشان فى كتب السير والاخبار، قد لا يكون عملا علميا تتوفر فيه الدقة اللازمة، خصوصا ان احتفاظ شخص واحد بمثل هذا العدد الهائل من الاسماء لمدة طويلة قد لا يكون امرا عاديا، سيما اذاكان الاعتماد على الذاكرة وحدها. غير ان الكتابة فى سيرة الرسول (ص) والتاليف فى تاريخ صدر الاسلام، ربما لا يحتاج الى اكثر من معرفة اجمالية، باحوال العرب فى ذلك العصر، وكيف كانوا ينظرون الى التركيب القبلى، وما هى الطبقات التى كان عليها المجتمع العربى، والانساب التى تنتمى اليها القبائل المكونة لهذا المجتمع؟ فكل ما كان من عصبيات وخصومات ومفاخرات مبنى على هذه الامور الادعائية. اما التحقيق او التفصيل فى هذه المسالة، فهو عمل مستقل، وينبغى ان ينظر اليه على انه بحث منفصل عن السيرة والتاريخ، اذ لو انتهى هذا التحقيق الى نتائج علمية غير تلك النتائج التى عرفت عن ذلك العصر ونقلت عنه، فسوف لن يحدث ذلك شيئا على مسار التاريخ. ان العصبيات والمشاجرات جميعا كانت مبنية على اساس مايعرفه هؤلاء من معلومات، وما يعتقدون به من الصحة والخطا، لا على اساس ما هو ثابت حقا وواقعا. ومن اجل ادراك تاريخ الاسلام وسيرة الرسول (ص)، لابد من الاطلاع على اوضاع مدينتى مكة والمدينة ايام ظهورالدعوة الاسلامية، ومعرفة القبائل التى كانت تستوطن هاتين المدينتين، وبناء على هذا سنحاول اولا تسليط الضوء على اوضاع قريش واحوال مكة فى تلك الفترة، اما الاحاطة باوضاع مدينتى الحجاز الاخريين: المدينة والطائف، ودراسة شؤون القبائل التى كانت تعيش فيهما، فنرجئه الى محله.

مكة قبل الاسلام

واد غير ذى زرع

جاء فى الاية (٣٧) من سورة ابراهيم: (ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون). تنص الاية الشريفة على ان مكة بنيت بواد غير ذى زرع اى غير صالح للزراعة واد يقع بين سلاسل جبلية صخرية، واذا ماسقط عليها المطر احيانا فانه ينحدر بشدة محدثا سيلا. تقع‌هذه المدينة فى الحجاز فى الجزء الغربى من شبه الجزيرة العربية بين البحر الاحمر وجبال سراة التى تمتد من الشمال الى حدود اليمن، وتبعد مكة عن ميناء جدة الواقع على البحرالاحمر مسافة (٧٠) كلم. واصبحت هذه المدينة المقدسة، بفضل وسائل المدنية الحديثة، من اهم المدن العامرة فى شبه الجزيرة العربية، اما موقعها فلم يكن مناسبا، كما عرضته الاية الشريفة، للعيش والسكن والعمارة، اذ تتواجد المدن عادة فى الوديان الخصبة، او بالقرب من الانهار الجارية، او على سواحل البحار، او فى السهول الخضرا. وكان كلما اجتمع اهل البادية وبدو الصحرا فى مكان معين، وبداوا يشتغلون بالزراعة وتربية الحيوانات، تكونت طبقة جديدة من اهل المشاغل الاخرى غير الزراعية،

كالحرفيين والتجار الذين يقومون بالمبادلات التى كان يحتاجها المزارعون، وتهيئة الوسائل الزراعية واصلاحها، ومع مرورالزمن تكونت مدن تضم اناسا يعملون بغير الزراعة وتربية الحيوانات، وعملهم الاساس هو الحرف والصناعات المختلفة التى نشات الحاجة اليها نتيجة الاشتغال بالزراعة والاستقرار فى تجمعات سكنية كبيرة، وهكذا ظهرت طبقات اخرى من التجار والصرافين والعمال والملاكين والحكام. وبنيت فيما بعد مدن على ضفاف الانهار وفى سواحل البحارلاغراض تجارية، ومنذ الثورة الصناعية وحتى الان اخذت تشاد المدن الصناعية بالقرب من المناجم وحول المصانع الكبرى، وقد اتضح الان افتقاد مكة فى اول بنائها لكل مبررات نشوء المدن، التى مر ذكرها، ولهذا يطرح السؤال التالى: ماالذى دعا الى بنائها؟. ان الهدف من ورا بناء هذه المدينة المقدسة كان هدفا دينيا منذ اللحظات الأولى طبقا للاية الشريفة، بمعنى انها انشئت للعبادة، يعبد فيها ابراهيم وبعض افراد اسرته ربهم الى جواربيته المقدس (عند بيتك المحرم) ولانها كانت غير آهلة وتنعدم فيها الحياة، فقد توجه ابراهيم الى ربه طالبا منه ان يجعل افئدة من الناس تهوى اليهم، لكن يبقى السؤال: لماذا ينشا مثل هذا المبنى المقدس والمعبد الالهى فى مثل هذا المحيط الجاف والقاسى؟.

الكعبة اول بيت

قال تعالى: (ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا) «آل عمران: ۹۶، ۹۷». تؤكد الايتان الشريفتان على ان الكعبة المشرفة الواقعة فى مكة، هى اول بيت وضع للناس، وهنا يبرز السؤال الثانى: كيف تكون الكعبة اول بيت، ومكة اول مدينة، ونحن نعلم يقينا بوجود مدن ومعابد اقدم منهما بنيت منذ القدم فى مصر وكلده وآشور والصين والهند؟. والجواب يكمن فى قوله تعالى: (وضع للناس) فالمعابد التى بنيت فى العصور القديمة كانت خاصة بمدن وقبائل معينة، كما يعكس ذلك بوضوح تاريخ الاديان القديمة والاقوام البائدة، فقد وقعت معارك عديدة من اجل السيطرة على المعابد، ودارت بين الاقوام المختلفة حروب دامية كان هدفها تحطيم معابد الاقوام الأخرى وحرقها، وغالبا ما كانت تعتبر سيطرة قوم ما على المعابد والاصنام علامة على تغلبهم وانتصارهم، بينما تواجه الاقوام المغلوبة التى تحرم من معابدها، وتسلب منها آلهتها، التدهور والتبعية والانهيار القومى والثقافى، وربما الزوال والفناء. وهكذا فان جميع تلك المعابد تشترك فى كونها معابد خاصة بقوم دون قوم، وبمكان دون آخر، خلافا للكعبة المشرفة التى وضعت للناس كافة، من اى عنصر او مكان كانوا. وهنا سيطرح السؤال السابق نفسه بالحاح اشد: ما هى الحكمة من وضع مثلهذا المكان المقدس فى هذه الارض الجافة القاحلة؟.

فيه آيات بينات

يجب ان نبحث عن جواب هذا السؤال فى طيات الاية الشريفة التى تقول: (فيه آيات بينات) يقول الطبرى فى تفسيرهذه الاية من سورة آل عمران: ان واحدة من هذه الايات مقام ابراهيم، والأخرى الحجر الاسود، والثالثة الحطيم. ومن المستبعد ان يكون الحطيم الجدار المبنى على شكل نصف دائرة، ويقع حجر اسماعيل بينه وبين الكعبة من تلك الايات الالهية التى تشير اليها الاية الشريفة. اما الحجر الاسود فهو من اوضح تلك الايات واهمها، ومن المحتمل جدا ان يكون بناء الكعبة لاجله. لقد ورد فى الروايات ان الحجر الاسود نزل من السماء، وسنشير فى المواضع المناسبة الى ان كل حادثة دينية لها جانبان: احدهما الهى غيبى، والاخر طبيعى مادى. ولو كانتجميع الايات الالهية تظهر للناس على شكل قضايا ربانية خارقة لقوانين الطبيعة، او بعبارة اخرى على صورة معجزات، فلن يبقى مجال للانكار والتغاضى، وبالتالى سيؤمن اشد الناس كفرا واكثرهم عنادا فى التاريخ الاسلامى، امثال ابى جهل وابى لهب. اما اذا خلت الايات الربانية من الجانب الالهى الغيبى، واصبحت لا تختلف عن غيرها من الاءمور الطبيعية، فسيكون لايمان بعض الناس وكفر بعضهم الاخر معنى ومغزى. فالايات الالهية والقضايا الغيبية يجب ان تتجلى فى هذا العالم باللباس المادى الطبيعى، ولا ينبغى ان تكون خارقة للنواميس الكونية والقوانين الطبيعية فى الوقت الذى يستطيع فيه الانسان الواعى ذو البصيرة ان يدرك المعانى الغيبية ويلمح

الاثـار الالهيـة فى تلـك الايات والعلامات. ولا يوجـد تناقض بين ان يكون هـذا الحجر الاسود مرسـلا من السـماء وبين ان يكون احد الاجسام والاحجار السـماوية الكثيرة جـدا المعلقـة فى الفضاء، والتى تسـقط على الارض بـدرجات حراريـة عالية جدا نتيجة احتكاكها بالغلاف الجوى وتاثرها بقوة الجاذبيـة الارضيـة، واذا اعتبرها الانسان المادى مجرد حجر هوى من السـماء، فان الانسان المؤمن الـذى يعتقد بالقدرة الالهية والايات الربانية سيرى فى ذلك آية اخرى من آيات البارى جل وعلا. واخيرا فان كثيرا من الايات الالهية تتحول الى امور عادية غير مثيرة تالفها نفوسـنا نتيجة تكررها فنعتاد عليها، امثال النجوم والسماء والارض والقمر وطلوع الشمس وغروبها، التى صـارت ظواهر عاديـة لاـ تلفت نظرنـا بسـبب مشاهـدتنا لهـا يوميا،علما ان كل جرم من هـذه الاجرام وكل جسم صـغير نراه على هـذه الارض، انما هو عالم من الايات والغرائب قائم بـذاته. هـذا فى الوقت الـذى ننظر الى الظواهر الأخرى بمزيـد من الاسـتغراب والخشـية، كالخسوف والكسوف والصواعق والزلازل، لانها لا تحدث الا نادرا، كما سن لها الشارع المقدس صـلاة خاصة سميت بصلاة الايات، التى يجب على المكلف اداؤهـا عنـد حـدوث احـدى تلـك الايات. فسـقوط الحجر من السـماء، يعتبر هو الاخر امرا غير عادى، يلفت انظار الانسان الواعى الى عالم آخر غير العالم المعاش يوميا والمتكرر على مـدار الساعة. لقد لفت هذا الحجر، الذى سـقط من السـماء فى مكـة، انظارعـدد من النـاس (وربمـا كـان منهم ابراهيم واسـماعيل) كـانوايعيشون هنـاك، الى وجـود قوة عظيمـة فوق هـذه القوى الاعتياديـة، ولاـ يمكن ارجاعها الى تلك الاصـنام الجامـدة والارباب المفتعلـة. وقـد كان ابراهيم (ع)، طبقا لما يعرضه القرآن الكريـم، يفكر منذ الصـغر بهذه القدرة العظيمة التى هى اكبر من الشـمس والقمر والنجوم، وكل الاصنام التى كان الناس يعتقدون انها هى التى تمثـل تلك القوة الخارقـة قـد تحطمت، وكان هـذا ايضا من دواعى الالتفات الى القـدرة العاليـة المتفوقـة على هـذه القوى العاديـة. لا يمكن ان يكون هـذا الحجر الاـسود الهابـط من السـماء الها وصـنما لقبيلـة دون اخرى او لقوم دون قوم، لقـد جاء هـذا الحجرمن جهة اخرى فى هـذا الفضاء معبرا عن تلك القدرة العظمى، اذن لماذا لا نتوجه اليه؟، ونجعل من موضع سـقوطه معبدا نعبد فيه تلك القدرة العليـا التى يخضع الجميع لها؟ وقام ابراهيم (ع) بمساعـدة ابنه اسـماعيل او شـخص آخر قبله ببناء جـدار حول هـذا المكان على شـكل مكعب بواسطة احجار رصف بعضها على بعض حتى وصل ارتفاعها الى ما يساوى قامة انسان او اكثر، ثم وضع الحجر الاسود فى احد اركان هذا المبنى، ولاول مرة وقف ابراهيم (ع) يصـلى الى حجر آخر، وربما تكون صـلاته هذه صلاة يقصد بها وجه اللّه وحده، وفى مكـان لا يختص بقبيلـة او قوم دون غيرهم. وهـذا ما اشارت اليه الايـة الشـريفة (۱۲۷) من سـورة البقرة: (واذ يرفع ابراهيم القواعـد من البيت واسـماعيل ربنا تقبل منا انك انت السـميع العليم). وبهذا اصـبحت الكعبة اول بيت وضع للناس جميعا، فقد اسـس ليعبد فيه رب النـاس جميعـا، والههم الـذى لا شـريك له، وبهـذا فهو اقـدم من معابـد اليهود والنصارى، لان ابراهيم (ع) جـدا ليهود والعرب، وليس هناك فى العالم اجمع من معبـد وضع للّهوحـده اقـدم منه، تقول الايـة الكريمة (۱۲۵) من سورة البقرة: (واذ جعلنـا البيت مثابـة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود).

مكة تصبح مدينة

بعـد ان اسـتقر ابراهيم (ع) وذووه فى هـذا المكان، اخـذ الناس يترددون اليه ويقصـدونه للزيارة او لغيرها، ثم اسـتوطن آخرون المكان نفسه للعمـل على خدمـة الزوار والمسـافرين، واخـذ هؤلاـء يبنون المنـازل لتـامين سـكنهم وسـكن الحجاج القادمين من اماكن بعيـدة، وهكـذا لم يمض وقت طويـل حتى تم تشـييد هـذه المدينـة فى ذلـك الوادى القاحـل الخـالى من الزرع والحيـاة. كانت القوافل تنقل الامتعة، وخاصة المواد الصـمغية والعطرية، من جنوب شـبه الجزيرة العربية الى شمالها، ليستخرج منها الطيب فتعطر به المعابد والمنازل فى الشام وفلسطين وآسيا الصغرى وايطاليا. وكانت هذه القوافل تحتاج الى محطات استراحة على الطريق، وتمثل مكة فى موقعها الذى بنيت فيه محطـة استراحـة جيـدة، وقـد زادتهـا الابـار، التى حفرت فيهـا لتوفير المـاء للزوار والمسـتوطنين، اهميـة، حيث كانت ترد اليها القوافل التجاريـة التى ارهقها الطريق الصـحراوى الطويل، وهكـذا تحولت مكة بمرور الزمن الى مدينة دينية تجارية، اسـتقطبت اهتمام

القبائـل التى وقعت بينهـا معـارك عديـدة منـذ القـدم من اجـل السيطرة عليها. فخضـعت اولا الى سيطرة قبيلـة جهرم، ثم خزاعـة التى استمرت هيمنتهـا حتى طردتها قريش وحلت محلها. وقـد اشـتغل القرشـيون كسدنـة لبيت اللّه الحرام، يوفرون المسـتلزمات الضـرورية لزواره، ويسهرون على صيانته وحمايته وامنه، واهتموا من جانب آخر بتوفير سوق جيدة لتجار الجنوب والشمال لعرض بضائعهم وبيعها لتجار الشام والعراق وباقى انحاء شبه الجزيرة العربية.

قريش فى مكة

مكانة قبيلة قريش

تصـنف قبيلة قريش ضـمن القبائل الشمالية او المعدية اوالعدنانية فى التصنيف الاساسى الذى يقسم العرب جميعا الى قسمين رئيسيين: الجنوبيين والشـماليين او اليمـانيين والنزاريين، او القحطـانيين والعـدنانيين، وتنتمى قريش الى فرع كنانـة من قبائل مضـر ضـمن القسـم العدنانى، ويرجع نسب الرسول (ص)، وكذلك خلفاء بنى امية وبنى العباس واكثر زعماء المسلمين فى صدر الاسلام، الى هذه القبيلة، واذا مااعتبرنا قريش قبيلة، فان تفرعاتها وشـعبها يمكن ان نطلق عليها افخاذا وبطونا، ومن اراد الاطلاع اكثر على التاريخ الاسـلامى لابد له من الاحاطة بهذه التفرعات التى سيرد ذكرها كثيرا فى التاريخ الاسـلامى عند الحديث عن الرموز الاسـلامية والشخصيات المرموقة التى تنتهى الى تلك الافخاذ والبطون. فهر بن مالك: تنتهى كافـة بطون قريش وافخاذها الى فهر بن مالك بن النضـربن كنانـة، لذلك فهو الجد الاـعلى لقريش. قريش الظواهر: هنـاك بطنـان من اولاـد فهر بن مالك يطلق عليهما (قريش الظواهر)، هما بنو الحارث وبنو المحارب، وكانوا يستوطنون خارج مكة، والى بنى الحارث ينتهى نسب عبيداللّه بن‌الجراح، وينتسب الضحاك بن قيس الفهرى، الذى قتل فى معركـة (مرج راهط) بين بنى امية وانصار الزبير، الى بنى المحارب، وكان الضـحاك على راس انصار الزبير فى تلك المعركة. غالب بن فهر: تلتقى طائفـة بنى ادرم ببطون قريش الأخرى فى غالب بن‌فهر، اما البطون الأخرى فجـدها لؤى بن غالب. لؤى بن غالب: وهـو الجـد الرابـع لبطن بنى كعب وبنى عـامر وبنى اسامـة وبنى خزيمـة، وكعب بن لـؤى جـد الرسول (ص)، ويعتبر عمرو بن‌عبـد ود العامرى الـذى قتل على يد اميرالمؤمنين (ع) فى معركة الخندق من مشاهير هذا البطن. كعب بن لؤى: يعتبر كعب بن لؤى جد الرسول (ص)، الجد الثانى لبطن بنى‌عدى وبنى الهصـيص. ويعد عمر بن الخطاب اشهر شخصية فى بنى عدى، وكان بنو الهصيص بطنين، هما بنـو سـهم وبنو جمـح، واشـهر رجـال بنى سـهم عمر بن العـاص الداعـدا اميرالمؤمنين على بن ابى طـالب (ع)، بينمـا كـان صـفوان بن اميـةوعثمان بن مظعون اشـهر بنى جمـح جميعا. مرة بن كعب بن لؤى: يلتقى البطنان: بنو تيم، وبنو مخزوم، باجداد الرسول (ص) بمرة بن كعب بن لؤى، وابرز رجال بنى تيم: ابو بكر بن ابى قحافة، وليس بين بنى مخزوم او بنى يقظة رجل اشـهر من خالد بن‌الوليد، وابى جهل بن هشام الد خصوم الرسول (ص) فى مكة واكثرهم عنادا، هذا وتنتسب ام سـلمة زوجة الرسول (ص) الى البطن نفسه. بنو زهرة: ويعتبر كلاـب بـن مرة بـن كعب جـد الرسـول (ص) جـدا لبطن بنى زهرة ايضـا، ومنهم ام الرسـول (ص) آمنـة بنت وهب، وكـذلك الصـحابى عبد الرحمن بن عوف. بنو اسد وبنو عبد الدار: وتلتقى هاتان الطائفتان بنسب الرسول (ص) بواسطة قصى بن كلاب، واشهر افراد بنى اسـد زوجـة الرسـول (ص) خديجـة بنت خويلـد، والزبير بن العـوام، والى بنى عبـد الـدار يعود نسب بنى شـيبة سدنـة الكعبة المشـرفة. بنو اميـة وبنو عبـد المطلب: يجتمع بنو هاشم وبنو عبـد المطلب وبنو امية فى عبد مناف، وينقسم بنو امية الى قسـمين: بنو امية الاكبر، ومنهم: عثمان بن‌عفان، وابو سـفيان وابنه معاويـة، ومروان بن الحكم. وبنو امية الاصـغر ويسـمون (بالعبلات). بنو هاشم: واليهم يعـود نسب الرسول (ص) وامير المؤمنين على بن ابى‌طـالب (ع)، فهمـا من اولاـد عبـد المطلب بن هـاشم بن عبـد منـاف بن قصـى بن كلاب، ولعبـد المطلب بن هاشم، طبقا لقول بعض‌علماء الانساب، اثنا عشـر ولـدا، هم: عبـداللّه، ابو طالب، الزبير،عبـد الكعبة، العباس، ضرار، حمزة، حجـل، ابو لهب، قثم،عيـذاق الحـارث. وعبـداللّه هو ابو الرسول (ص)، وابو طالب والـد امير المؤمنين‌على بن ابى طالب

(ع)، والعباس جد خلفاء بنى العباس. وفى حياة الرسول (ص) اشتهر كل من حمزة وابى لهب، احدهما اكتسب شهرته بنصرة رسول اللّه (ص) ووقوفه الى جانب دعوة ابن اخيه، وهو حمزة، بينما اشتهر ابولهب بعدائه للرسول (ص) وايذائه لاصحابه، وتكذيبه لدعوته (ص). ولم يعقب من ابناء عبد المطلب سوى اربعة، هم: العباس، وابوطالب، وابو لهب، والحارث. [۱۴] وهناك اختلاف فى اسماء بعض اولاد عبد المطلب وعددهم، حيث قال بعضهم: انهم عشرة اولاد.

تسلط قريش على مكة

انشئت مكة اولا كمدينة دينية للزوار الذين يقصدونها من انحاء مختلفة، ثم ما لبث ان اشتغل اهلها بالتجارة، وبعد ان تكاثر اولاد اسماعيل حسب رواية ابن اسحاق فى اطراف مكة، كانت هناك قبيلتان قد تركتا اليمن بحثا عن المرتع والمنزل كما يبدو هما (جرهم) و (قطورا)، قد وصلتا مكة، ووجدتا هناك مدينة نالت اعجابهما لما وجدتا فيها من الماءوالكلا، فوضعتا فيها الرحال، واستقرتا هناك [۱۵] .يفهم من تلك الروايات ان اولاد اسماعيل (ع) وهم سكان مكة الاصليون اخذ عددهم يتزايد حول مكة وفى اطرافها، فبداوا يحفرون الابار، ويزرعون الاشجار، وبعد فترة تحول ذلك الوادى (غير ذى زرع) الى واد عامر، ويفهم مما جاء عقب تلك الرواية ان مكة كانت محطة للقوافل القادمة والذاهبة، غير ان الرواية لم توضح اهداف تلك القوافل، وهل انها كانت تقصد الزيارة والعبادة فحسب، ام انها كانت تقوم بانشطة تجارية ايضا فى هذه البلدة؟ وطبقا لتلك القصة التى اوردها ابن اسحاق، فان ابناء القبيلتين «جرهم» و «قطورا» كانوا ابناء عم، وكان «مضاض» زعيما لقبيلة (جرهم)، بينما اتخذت (قطورا) سميدع، رئيسا لها، واستقرسميدع بقومه اسفل مكة، بينما استوطن (مضاض) مع قومهاعاليها. وقد فرضت الطائفتان ضرائب مالية على القادمين الى‌مكة، فكانت جرهم تاخذ هذه الضرائب من الزوار القادمين الى مكة من اعاليها وقبل دخولهم اليها، بينما كانت «قطورا» تاخذ الضرائب نفسها من زوار مكة الداخلين اليها من اسفلها. ويبدو ان اهل مكة لم يشتغلوا بعد بالتجارة، وكانوا يعتمدون فى تامين معيشتهم على ما تدره عليهم حيواناتهم، وما يتقاضونه من ضرائب مالية من الزوار. ويبدو ان هؤلاء الزوار الذين كانوا يتوافدون الى مكة بهدف الزيارة وتادية المراسم العبادية المتبعة كانوا فى الوقت نفسه يقدمون بعض الاموال والهدايا الى الكعبة، وهذا ما دعا كل من القبيلتين (جرهم) و (قطورا) الى ان يهجروا اليمن ويتجهوا الى مكة بهدف السيطرة عليها والاستحواذ على هذه الاموال التى كانت تهدى الى الكعبة، وكذلك لتقاضى الضرائب المالية المفروضة على الزوار القادمين الى هذه المدينة الدينية. وقد ادى هذا الطمع الذى قاد كل من «جرهم» و «قطورا» الى ان يتركوا اليمن ويستوطنوا مكة الى التنازع، بل والتقاتل فيما بينهم، كل يريد السيطرة والاستئثار بالمنافع، وحسمت نتيجة الصراع لصالح (جرهم) وانتصرت علىنظيرتها (قطورا). [۱۶] .وحين سيطرت جرهم على مكة لم تبادر الى طرد ابناء اسماعيل من هذه المنطقة، بل قامت بتوثيق العلائق معهم وايجاد الصلات المختلفة التى من شانها ان تشدهم وتقارب فيما بينهم، ولكى يجنبوا المدينة (القتل والفساد والتخريب) عمدوا الى ابرام معاهدة صلح فيما بينهم، التزموا بموجبها بحفظ حرمة المدينة وعدم القيام باى عمل من شانه هتك حرمتها وتعكير صفو الحياة فيها. لقد اسهم هذا الوضع فى اعطاء اهمية اضافية لهذه المدينة، وادى الى تزايد عدد الزوار الوافدين اليها، وبالتالى الى تضاعف مواردها المالية. وفى هذا الوقت كانت حالة (اولاد اسماعيل) قد تدهورت، وتحولوا من حاكمين لهذه البلدة الى محكومين فيها، واخذ عددهم يتزايد تدريجيا، بينما كانت الطبقة الحاكمة تبدو اقل عددا، لكنها قد استاثرت (الطبقة الحاكمة جرهم) بجميع الموارد لنفسها، وعاشت حياة مترفة دب فيها الفساد والتهتك، وكانت لا ترعى الا ولا ذمة، ولا تتورع عن ارتكاب مختلف الاعمال التى تتناقض وحرمة هذه المدينة المقدسة، فقد شهرت السلاح بوجه كل من عارضها، واخذتهم بالشدة والقسوة، ثم عم شرها حتى شمل حجاج البيت، فذاقوا منها كل اذى ومكروه. ولغرض التباهى بالاموال واكتساب المزيد من الثروات التى تنفقها للانفاق على الملذات، لجات الطبقة الحاكمة الى زيادة الضرائب المفروضة على الزوار، بل وذهبت الى ابعد من ذلك عندما بدات ببيع بعض الحلى والهدايا الثمينة التى كانت توضع فى الكعبة وتعلق على جدرانها. وقد اتخذ ابناء اسماعيل موقف

الصمت امام هذه الاعمال مراعاة كما يبدو لقرابتهم من الطبقة الحاكمة، واملا فى الحصول على شىء من موارد المدينة وعائداتها، ولم يعترض احد من اولئك الذين كانوا يعيشون داخل مكة على جرهم، بل بدات الاعتراضات تثار عليها من قبيلة قوية اخرى كانت تسكن اطراف مكة هى (قبيلة خزاعة). استفادت قبيلة خزاعة، التى كانت قد جاءت من اليمن مناخطاء جرهم وفسادها، فحشدت حولها المعارضين، وفى مقدمتهم قبيلة بكر، وترجع الى بنى بكر بن عبد مناة، وهى من كنانة، ومن القبائل التى كانت تستوطن شمال شبه الجزيرة العربية، وانضم اليها كذلك اولاد اسماعيل الذين ضاقوا ذرعا بتصرفات «جرهم»، وبهذا استطاعت خزاعة ان تخلع جرهم عن عرشها، وتحل محلها فى حكم المدينة والسيطرة على مواردها الكبيرة التى كانت تاتيهم دونما عناء. بعد السيطرة على الكعبة نشب الخلاف بين الفاتحين الجدد خزاعة، وبكر بن عبد مناة حول الرئاسة، وبعد فترة من الخصومة والنزاع استقرت الاءمور لصالح بطن من خزاعة ترعى (غبشان). وقد اوجد تسلط خزاعة وضعا جديدا فى مكة، فحتى مجيئها كان اولاد اسماعيل ما زالوا يحافظون على بقايا تعاليم دين التوحيد رغم خضوعهم لسيطرة (جرهم)، هذا ما تنقله الروايات التى تتحدث عن تاريخ ما قبل الاسلام، وربما اعتبر ذلك برهان على ان ابناء اسماعيل تبعوا آباءهم فى البقاء على عقيدة التوحيد وعبادة اللّه وحده. غير ان سيطرة جرهم، القبيلة القادمة من اقصى جنوب شبه الجزيرة العربية، ادى الى ضعف هذه العقيدة التوحيدية، وافساد بعض تعاليمها، وقد جاء فى الرواية: «انه كان اولاد معدعلى بقية من دين اسماعيل». ولكن انتهى كل شىء بعد ان سيطرت خزاعة على الاءمور، واعادت الاوضاع الى سابقعهدها من الشرك وعبادة الاوثان، وهكذا استحكم الشرك فى مكة. وقد نسبت هذه الاعمال فى تاريخ ما قبل الاسلام الى احد زعماء خزاعة المسمى عمر بن لحى، وقيل انه تعلم عبادة الاوثان من اهل الشام وجاء بها الى مكة، ويبدو ان سبب نسبة عبادة الاصنام التى كانت عليها خزاعة الى عمر بن لحى، يعود الى كون هذا الاخير زعيما لهذه القبيلة التى يعتقد اكثر علماء انساب العرب بانها جاءت من اليمن. وقد خالف بعض النسابة ذلك، وقرروا اعتمادا على بعض الروايات ان خزاعة من عرب الشمال. [۱۷] وبما ان هؤلاء كانوا كبقية العرب من عبدة الاوثان، فقد فرضوا عقيدتهم تلك على اهل مكة، وطبعوا المدينة بطابعهم الخاص. وقد نقلت خزاعة اعرافا اخرى الى مكة، حاربها الاسلام فيما بعد ونهى عن متابعتها، وتركزت هذه الاعراف حول الابل والاغنام التى كانوا يمتنعون عن تناول لحومها فى اوقات معينة او يهدونها الى اصنامهم، حيث نهى القرآن الكريم عن ذلك فى الاية الشريفة (۱۰۳) من سورة المائدة: (ما جعل اللّه من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام). لكن لم تبلغ عبادة الاصنام فى مكة فى عهد خزاعة درجة تختفى معها كل معالم عقيدة التوحيد من تعظيم بيت اللّه واقامة مراسم الحج، حتى انهم كانوا يرددون اثناء الطواف شعار التقديس للّه ولاوثانهم، ويعترفون بان اللّه هو المالك الحقيقى الذى تستمد منه اصنامهم قوتها، الا انهم كانوا يشركون فىعبادته تعالى، حيث يهتفون «لبيك لا شريك لكالا شريك هو لك تملكه وما ملك» [۱۸] .

نمو قدرة قريش وسيطرتها على مكة

فى الوقت الذى كانت فيه مكة تخضع لسلطة خزاعة، كانت بطون قريش وافخاذها متفرقة وموزعة على مناطق متباعدة لايجمعها مكان واحد، وكانت السلطة تنتقل فى خزاعة بالوراثة الى ان وصلت الى آخر زعيم لهم، وهو حليل بن حبشية او (حبشية). ويبدو ان هذا الرجل لم ينجب سوى الاناث، وكانت (حبى) احدى بناته التى زوجها من قصى بن كلابزعيم قبيلة قريش فى حينها [۱۹] .وعلى رواية زيد فان قصى كان قد ذهب الى ديار «قضاعة» مع امه التى كانت قد تزوجت احد رجالهم، ونظرا لابتعاده عن مواطن الاهل، واغترابه، فقد سمى (قصى) اشارة الى ابتعاده وغربته. وكان قصى قد عاد الى مكة ثانية، على اثر حادثة واستطاع بما كان يتمتع به من شجاعة وبسالة ان ينال اعجاب رئيسها فى عهده «حليل بن الحبشية» فزوجه بنته (حبى). وربما كان حليل يهدف من ورا هذا الزواج الى استمالة قريش، والتى كانت قد تزايدت قوتها كثيرا، وكذلك استمالة قضاعة التى تربطها بقصى صلة رحم عن طريق امه. وقد عجز (حليل) فى آخر عمره عن ادا مهامه فى ادارة شؤونالكعبة ورعاية زوارها، فسلم مفتاح الكعبة الى ابنته حبى، التى سلمته بدورها الى

زوجها قصى بموافقة ابيها، وقد احسن الزوج ولما كان عليه من ذكاء وطموح استثمار الفرصة، فاخذ يفرض سيطرته على مكة، ويمد نفوذه الى الكعبة ليستولى على مواردها، وكان مما اعانه كثيرا على ذلك اسناد قبيلته «قريش» له، ووقوفها الى جانبه، اضافة الى الدعم الذى حظى به من قبيلة زوج امه «قضاعة»، وكانت كلا القبيلتين على جانب من القوة والنفوذ. وقد بدات خزاعة، بعد وفاة حليل، تخشى قصى وتخاف من تعاظم نفوذه، فبادرت الى اخذ مفتاح الكعبة من حيى، فما كان من قصى الا الاهابة بقريش واحلافها من بنى كنانة وقضاعة للوقوف الى جانبه ومساندته فى نزاعه مع خزاعة، فلبوا دعوته، وحضروا فى موسم الحج الى مكة، اعرابا عن تاييدهم له، واستعدادا للتضحية فى سبيل نصرته. ثم طلبوا الى خزاعة ان تعيد مفتاح الكعبة الى قصى كما سلمه له حليل، غير ان خزاعة رفضت ذلك، فنشب القتال بينها وبين قريش وقضاعة، رغم حرمة المكان (مكة) وحرمة الزمان (ايام الحج)، واخيرا توقف القتال بين الطرفين بتدخل بعض القبائل للاصلاح، ووافقا معا على ان يحكم بينهما رجل من كنانة. ويفهم من فحوى القصة التى ينقلها الازرقى: ان الغلبة كانت لقريش وحلفائها فى هذه المعركة، الامر الذى دفع خزاعة الى الموافقة على الصلح والتحكيم، وهذا ما تؤيده ايضا كثرة القتلى بين بنى خزاعة. كان الحكم من بنى بكر بن عبد مناة، وهم من بنى كنانة المحالفين لخزاعة، ويبدو ان غموض موقف بنى كنانة فى هذه الحرب، ووقوف بعض افرادهم الى جانب قريش، ووقوف البعض الاخر الى جانب خزاعة، واتخاذ بعضهم الحياد، هوالذى دفع قريش لقبول الحكم البكرى الكنانى. وجاء حكم القاضى وهو يعمر بن عوف لصالح قريش وقصى، فقضى ان لا دية للدماء التى اريقت فى هذه المعركة، وان تعود السدانة (سدانة الكعبة) وحمايتها والسهر على مصالحها لقصى، لان حليل كان قد اعطاه اياها. وفى هذا المجال اختلاف بين رواية ابن اسحاق ورواية الازرقى، حيث جاء فى رواية ابن اسحاق ان يعمر بن عوف قد قضى بان لا دية لدم خزاعة، بينما قضى بالدية على خزاعة لما اهرقته من دماء قريش، وسبب ذلك كما هو واضح ان الحق كان مع قريش فى هذا النزاع، وتتحمل خزاعة، التى خاضت حربا ظالمة، دية ما سفكته من دماء قريش. لكننا لا نرى صحة مثل هذا الحكم، اذ يكفى خزاعة ضعفا اقصاؤها عن رئاسة مكة وسدانة الكعبة فضلا عن ان تتحمل دية قتلى اعدائها، وان يصل بها الضعف الى درجة قبولها بمثل هذا العار، وبناء على ذلك فاننا نرجع صحة رواية الازرقى. وهناك نقطة افتراق اخرى بين الروايتين، اذ يعزو ابن اسحاق سبب النزاع الى خلاف حصل بين قصى وبطن الصوفة حول بعض الموارد التى كانت تحصل عليها هذه الاخيرة فى موسم الحج، ولكن هناك غموض فى روايته من ناحية الجهة التى كانت تملك مثل هذه الموارد آنذاك، وهل هى الصوفة، او آل صفوان؟ لذا تصبح رواية الازرقى اكثر قبولا، هذا مع احتمال ان تكون رواية الازرقى قد لاحظت هذا الابهام وبادرت الى تصحيحه. وبغض النظر عن هذه التفصيلات، فان قريش كانت قد فرضت سيطرتها على مكة بمساندة قضاعة، ولعل مسالة التحكيم جاءت لتعطى هذه السيطرة طابعها الشرعى، وتضفى عليها لباسا من الحق، بدلا من ان تكون نتيجة القوة والقهر. وجاء فى رواية الازرقى ان قرار القاضى كان قد نص على عدم اخراج خزاعة من مكة، [۲۰] بينما جاء فى رواية اخريان قصى اخرج خزاعة وبنى بكر من مكة. [۲۱] .وقد تكون الرواية الاخيرة هى الاقرب الى الصحة، باعتبار ان مكة لم تكن بتلك السعة التى تستوعب قريش مع خزاعة التى كانت تسكنها اصلا.

اعمال قصى فى مكة

اسكان قريش

كان اول عمل قام به قصى هو اسكان قريش فى مكة، فقام اولا طبقا لرواية ابن اسحاق بتقسيم مكة بين بطون قريش، واعطى كل جماعة منازلها التى اقامت فيها.

قطع الاشجار

امر قصـی بقطع الاشـجار التی کانت فی الحرم لیتسنی لقریش البناء فیه، فی وقت کان الناس یتخوفون من قطع الاشجار التی کانت فی مکـهٔ باعتبارهـا جزأ من الحرم. وهنـاک روایـهٔ اخری تقول: ان النـاس ظلت علی عبادتهـا بالامتنـاع عن قطع اشـجار الحرم حـتی ظهور الاسلام، وکان عبداللّه بن الزبیر اول من خالف هذه السنهٔ باباحته قطعاشجار الحرم [۲۲] .

تاسیس دار الندوهٔ

ان تاسـیس مثل هـذه الـدار التی کانت بمثابـهٔ ناد یتم فیه تـداول مختلف شؤون المدینـهٔ، یعتبر عملا جدیـدا لم یسـبق لاهل البادیهٔ ان شاهـدوا مثله، وکان قصـی طبقا للروایات هو الـذی اسسـها فی مکهٔ، مع ان مکهٔ کانت قد تحولت الی حاضـرهٔ منذز من، وسـکنها قبل قریش کل من «جرهم» و «خزاعهٔ». وظل یسودها النظام القبلی حتی ظهور الاسـلام، وهکذا کان حال المدن الاءخری فی شـبه الجزیرهٔ العربیهٔ، مثل الطائف التی کان یسـکنها بنو ثقیف، ویثرب التی اسـتوطنتها قبیلتا الاوس والخزرج، فجاء تاسیس دار الندوهٔ علی ید قصی کاول علامـهٔ علی وجود مدینـهٔ بالمعنی الصـحیح، کما ان النظام الـذی وضع لادارهٔ هـذا النادی کان هو الاخر من الأمور الملفتهٔ للنظر وقتهـا، حیث نص علی ان یکون ابنـاء قصـی جمیعا اعضاء فی هـذا النادی بینما لا یسـتطیع ابناء بطون قریش الاخرون ان یحصـلوا علی العضویـهٔ الا بعـد بلوغهم الاربعین. ویعتبر ذلک اوضـح دلیل علی اعتقاد قریش بضـرورهٔ المحافظـهٔ علی الشـرف العائلی، الذی هو من خصائص النظام القبلی، ویعبر شـرط بلوغ الاربعین عن اصرار قریش علی ضرورهٔ بلوغ عضو النادی مرحلهٔ النضج والکمال العقلی التی لاـ تتحقق، فی نظر قریش والعرب جمیعـا، الاـ بعـد بلوغ هـذا السن. ولم تکن الوظائف التی انیطت بهـذا النادی باقل طرافـهٔ والفاتا من شروط دخوله، فکانت فی معالجاتها الاجتماعیهٔ وتحدیداتها الادبیهٔ والعرفیهٔ تشکل دلالهٔ للباحث الاجتماعی الذی یرید معرفهٔ الشعوب وتقالیـدها. کـان من مسؤولیـات النـادی تحدیـد سن البلوغ، وتزویـج الفتیـات، وعلیه ان یعلن بلوغ الفتـاهٔ ذلـک السن ویزودهـا بلباس خاص.. ومن واجبات النادی ایضا ختن الـذکور من الاطفال. وکان ینبغیان یتم التزویـج بعـد موافقـهٔ اعضاء النادی، هـذا اضافهٔ الی ما کان یقوم به من اعمال سیاسـیهٔ وحربیـهٔ، کاعلان الحرب، واقامـهٔ المراسم الخاصـهٔ باسـتقبال وتودیع القوافل، وجعل باب هذه الدار او تلک الی البیت الحرام. والجدیر بالملاحظهٔ ان هذه التشـریعات والقرارات التی تصدرعن دار الندوهٔ کان ینظر الیها من قبل قصـی علی انها سـنن مقدسهٔ تجب طاعتها فی الحیاهٔ وبعد الممات کالتعالیم الدینیهٔ، قال ابن سعد: یتبعون امره کالدین لا یعمل بغیره فیحیاته وبعد موته. [۲۳] .

وضع الضرائب

وجاء فی روایهٔ ابن سعد ان قصی کان قد فرض ضرائب مالیهٔ علی الداخلین مکهٔ من غیر اهلها، وکان یعشر من دخل مکهٔ سوی اهلها. [۲۴] فکان علی من ینوی زیارهٔ مکـهٔ وادا الحـج ودخول الکعبـهٔ ان یـدفع مقدارا من المال، یسـهم من خلاله فی تامین ما تحتاجه هذه المدینـهٔ الدینیـهٔ من نفقات وما تحتاجه الکعبـهٔ من صـیانهٔ وامور اخری، وشـکلت هذه الضـرائب المالیهٔ موردا لا باس به، مما اثار طمع القبائل، فثارت بینها الحروب والمعارک للسیطرهٔ علی هذا الوادی القاحل (غیر ذی الزرع).

مناصب الحج

اسـتحدث قصـی بعض المنـاصب، ووزع المسؤولیـات المختلفـهٔ لتسـهیل امر الحـج والقیام بالخـدمات اللازمـهٔ للحجاج باحسن صورهٔ ممکنـهٔ، فجعل حراسهٔ الکعبهٔ وخدمتها والسـهر علیها والوقوف علی ابوابها مسؤولیهٔ مسـتقلهٔ اسـماها (الحجابهٔ)، واوکل مهمهٔ القیام بها لجماعهٔ من قریش اسماهم «الحجاب». ثم امر جماعهٔ آخرین بالقیام بشؤون سقایهٔ الحاج وتوفیر مایلزمهم من میاه الشرب، وکان هؤلاء یعـدون مخازن خاصـهٔ للمیاه من الجلود، یضـعونها الی جانب الکعبهٔ، ویقفون علیها ایام الحج لیسـقوا الحجیج منها. واسـتحدث قصـی

ضريبـة سـماها «الرفادة» وهی مساهمـة حالية يدفعها القرشـيون سـنويا، لتقدم بين يدی قصـی فی موسم الحج، الذی ينفقها بدوره على الحجيـج الفقرا الذين لايسـتطيعون توفير ما يلزمهم من زاد ومؤونة اثناء الحج. ووزع قصـی تلك المناصب بين ابنائه، فجعل حجابة دار الندوة ورئاسـتها لعبد الدار الذی كان يحبه كثيرا، وجعله ايضا حامل لوائه، واعطی سدانة البيت وقيادة الحجيج لعبد مناف. وفی رواية اخری لابن اسحاق: ان جميع هذه المناصب اسندت لعبد الدار [۲۵] لما كان يتمتع به من مكانة خاصة واحترام وتقدير بين ابناء قصی. وبعد معاهدة (حلف المطيبين) صارت سقاية الحاجوالرفادة من شؤون ابناء عبد مناف [۲۶] .

المسؤوليات و المناصب الأخری

استـحدثـت بعد قصی مناصب ومسؤوليات جديدة، ظلت تنتقل بين بطون قريش حسب الشرف والمكانة الاجتماعية وطبقة النسب التی تؤلف المنظومـة القبليـة داخلهـا، وبمرور الزمن صارت هـذه المناصب ارثا كالمناصب السابقـة تتـداوله بطون معينـة من قريش حسـب الترتيب الطبقی الذی كان عليه المجتمع المكی، واستمر هذا الوضع الی ان ظهر الرسول (ص) فی مكة، طبقا لما رواه ابن هشامومحمد الكلبی [۲۷] .وفی هـذا الوقت كانت السـقاية قد اصـبحت بيد العباس بن عبدالمطلب، الذی احتفظ بهذا المنصب بعد فتح مكة، وكان ابوسـفيان بن حرب صـاحب لوا قريش، ويطلق علی اللوا اسم (العقـاب)، ويحمـل اللوا عـادة القائـد اثنـاء المعركـة، وكلما رفض القائد حمل اللوا وجب علی ابی سـفيان بن حرب حمله وقيادة المعركة. وكان من الأمور التی اسـتحدثت فيما بعد (الاشـناق) وهو من شؤون الدية، ويحق لمن يتسلم هذا المنصب ان يعين الدية التی تقع علی القبيلة حسب رايه، وكان لا يقبل ذلك من احد غيره، وقد صار هذا المنصب لبنی تيم، وعندما بعث الرسول (ص) فی مكة كان قد تسـلمه ابو بكر. ومن المناصب المستحدثة ايضا منصب (القبة) ومنصب (الاعنـة)، وقـد عهد بهما الی بنی مخزوم، حتی تولاهما خالد بن الوليد، ويبدو انهما كانا يختصان بشؤون الحرب والتجهيزات الحربية، كتهيئـة الخيم والخيول والمؤن وما شابه ذلك. ويبدو ان الحاجة قد دعت قريش الی اسـتحداث منصب باسم «السـفارة» يتولی صاحبها تمثيل قريش فی المفاوضات التی تجری لحل نزاعاتها الحربيـة مع الاطراف الأخری، كما ينوب عنها فی جميع المحادثات القبليـة التی تعقـد عادة لحل الخلافات بين القبائل حلا سـلميا، وكان هـذا المنصب قـد وقع قبل الهجرة النبويـة بيـد بنی عـدی التی انتدبت له عمر بن‌الخطاب، احد ابرز شخصـياتها آنذاك، بينما تسـلم صفوان بن‌امية منصب الاشراف علی اجرا القرعة (الايسار والازلام) وهو من بنی جمـح الذين عهد اليهم بهذا المنصب. وجعلوا ادارة الاوقاف والاموال التی كانت تهدی لاصـنام قريش فی بنی سـهم، وكان المسؤول عنهـا حينئـذ الحـارث بـن قيس، وقـد اطلـق علی هـذه الاـدارة اسـم (الحكومـة والاـموال المحجرة). ومن المنـاصب المسـتحدثة ايضـا (العمارة)، وذلك لتنظيم شؤون البيت الحرام، وعدم السـماح بارتكاب الاعمال المخالفة للقواعد العامة، او تداول الاحاديث السـيئة، او رفع الاصوات بما لا ينسـجم والاصول العامة داخل الحرم، واوكل هذا الامر لبنی هاشم. وهناك منصب آخر اطلق عليه (حلوان النفر)، اذ يلجا عادة فی ايام الحرب الی الاقتراع لتعيين رئيس او قائـد فخری للحرب، ويشارك فی هـذه القرعـة جميع الذكور من بنی هاشم، صغيرهم وكبيرهم. ففی حرب الفجار وقعت القرعـة مثلا علی العباس بن عبـد المطلب كقائد فخری ورمزی للحرب، وكان حينها طفلا ليس الا. وهكذا يتضح الفرق بين هذا المنصب ومنصب حمل لوا (العقاب).

تغير الوضع الاقتصادی فی مكة

تم لقريش السـيطرة علی مكـة فی اواخر القرن الخـامس الميلاـدی، فقـد ولـد الرسول (ص) عام (۵۷۰ م) وكان عبـداللّه والـد الرسول (ص) قـد توفی فی الايام الأولی لولادته (ص)، وليس بين عبداللّه وقصـی سوی ثلاث بطون (عبد المطلب وهاشم وعبد مناف)، وكان عبد مناف كبير السن حين سيطر قصی علی مكة، وبناء علی ذلك، فان الفترة بين عهد قصی وعام (۵۷۰م) لا يمكن ان تكون اكثر من (۱۰۰ عـام) فی اقصـی احتمالاتهـا، لـذلك يمكننـا القول ان سيطرة قريش علی مكـة كان فی حـدود اواخر القرن الخامس الميلادی.

ويبـدو ان اشـتغال قريش بالتجارة تم بعـد سـيطرتها على مكـة وهيمنتها على الحـج، حيث اخذت تتاجر مع بلدان اخرى خارج الحجاز وشـبه الجزيرة العربيـة، واصـبحت مركزا تجاريـا مهمـا يربـط بين سواحـل البحر الاـحمر والبحر المتوسـط وجنوب شـبه الجزيرة العربية والعراق، وذلـك لوقوعهـا فى قلب الطرق التجاريـة التى تصـل بين الشـمال والجنوب والشـرق والغرب، ولاـ يعنى هـذا انعـدام النشـاط التجارى قبل سـيطرة قريش على مكة، فهناك نشاط تجارى سابق بين الروم وبلاد الشام وجنوب شبه الجزيرة العربية والمحيط الهندى، اذ كانت القوافل التجاريـة تاتى بالعطور من الهنـد وجنوب شـبه الجزيرة العربية الى البلاد المتمدنة، وتعود بمصـنوعات هذه البلاد الى شبه الجزيرة العربيـة. لكن هـذا النشاط التجارى، كانت تقوم به اقوام اخرى غير اهل مكـة، وربما كانت مكة فقط محطةاستراحة وتزود للقوافل التجاريـة القاطعـة للصـحرا، والـدليل‌على ذلك اننا لم نجد فى اخبار (جرهم) وخزاعة وهم سـكان مكة الاصـليون ما يدل على انهم كانوا يعملون فى التجارة، كما اننا نجـد من الروايات ما يؤكد ان عبد مناف احد ابناء قصـى هواول من قام بعقد صـفقات تجارية كبيرة مع جيرانه، وحاز على‌قبول البـدو بمرافقـة القوافل التجاريـة وحمايتها. ويبدو ان القرشـيين اسـتفادوا كثيرا من التجارب المرة التى مربها القسم الجنوبى من شـبه الجزيرة العربية فى حدود عام (۵۲۵ م) فما بعد، والتى انتهت الى سـيطرة الاحباش على‌اليمن. كان لتلك الحـوادث الـتى وقعت فى اوائـل القرن السـادس الميلاـدى فى اليمن وجنـوب شـبه الجزيرة العربيـة علاقـة وطيـدة بـالوضع الاقتصـادى والسياسى العام لتلك المنطقة، وكانت الامبراطورية الرومانية تسعى لفرض سيطرتها على سواحل المحيط الهندى والبحر الاحمر لتامين الطريق امام القوافل التجاريـة العائدة اليها. وكانت تحاول ضـمن هذا المسـعى ان تجد لها موطى قدم داخل شـبه الجزيرة العربية، وقد شجعتها مسيحية ملك الحبشة على ذلك ووجدت فيه فرصة مهمة لبسط النفوذ. وقد وقف الملك الحميرى اليهودى (ذو نواس) بوجه النصارى فى شـبه الجزيرة العربيـة والحبشـة، فقام ملك الحبشـية بتجهيز قوة عسـكرية بحريـة، وشن هجوما على اليمن بمساعـدة الروم، وبعـد حوادث عديـدة تمت له السـيطرة عليهـا وقتـل ملكها (ذا نواس). ثم قام الاحباش بتنصـيب احـد المسـيحيين الحميريين المسـمى (سـميفع) ملكـا على اليمن، [۲۸] وقتل‌هـذا على اثر تمرد كبير حـدث ضـده، وفتـح البـاب من جديـد لتـدخل الاحبـاش الـذين اعادوا سيطرتهم على اليمن، واسـتمرت هـذه السيطرة الى عهـد ابرهـة (ابراهيم). ورغم انهـذا الاـخير حبشـى، ويبـدو انه كان يتبع النجاشـى ظاهريا، الا ان ادارته لشؤون اليمن كانت مسـتقلة. استمر حكم ابرهة لجنوب شبه الجزيرة العربية مدة اربعين‌عاما تقريبا، وكان قد فرض على القسم الجنوبى من شـبه الجزيرة العربيـة حكمـا صارمـا وقويـا طيلـة هـذه الفترة حتى قام بهجومه الشـهير على مكـة عام (۵۷۰ م)، والـذى واجه فيه الفشل الـذريع، وبعـد هـذه الحملـة الفاشـلة بـدا حكمه يتصدع الى ان سـقط بعد تدخل الفرس، وانتهى بذلك حكم الاحباش لجنوب شـبه الجزيرة العربية. وكان ابرهة قد بلغ فى حكمه لليمن من القوة والهيبة درجة جعلت اباطرة عصـره (امبراطور الروم وملك الفرس وملك الحبشة وملك الغساسنة وملك الحيرة) يتسابقون فيما بينهم لخطب وده والفوز برضاه، فكان سفراؤهم يتوافدون عليه الواحـد بعـد الاخر، وكان ذلك من الامور التى سـجلهاابرهة وتركها فى تاريخه. [۲۹] .لقد اعطى هذا الوضع شبه الجزيرة العربية بعـدا عالميا، فتحفزت كل من الـدولتين الكبيرتين فى ذلك العصـر (الدولـة الساسانية، والدولة الرومانية) للعمل لايجاد مناطق نفوذ لها داخل شـبه الجزيرة العربيـة. وكان لكل واحـدة من هاتين الامبراطوريتين اهـدافها الخاصـة من ورا هذا النشاط، فكان هدف الفرس هو قطع الطرق التجاريـة وحرمـان الامبراطوريـة الرومانيـة من ممارسـة نشاطهـا التجـارى والاقتصـادى مع بلـدان الجنوب، من خلال فرض الهيمنة على سواحل المحيط الهندى وجنوب شـبه الجزيرة العربية، وعلى العكس تماما فقد كان الروم يسـعون من ورا ذلك الى تامين طرقهم التجارية وحماية النشاط الاقتصادى للامبراطورية الرومانية، الذى كان يوفر لها سـلعا رخيصة بطرق سـهلة. وكان من الطبيعى ان تحـدث هذه التطورات بعض التبدلات فى الاوضاع الاقتصادية والتجارية المحلية والعالمية، وتؤدى الى اكتشاف طرق جديدة للتجارة، وقد اقترنت هذه التطورات مع اخبار متظافرة عن ظهور وضع اقتصادى وتجارى جيد فى مكة، وعن اشتراك قريش كطرف فى التجارة بين الشـمال والجنوب والشـرق والغرب، ومن الطبيعى ايضا ان تعزى هذه المسـتجدات الى الاحداث المذكورة، رغم اننا ما زلنا نجهل الكيفية التى حصلت بها هذه التبدلات بصورة دقيقة.

تجارهٔ قريش مع الخارج

يقول الطبرى نقلاـ عن هشـام بن محمـد الكلبى: «ان اولاـد عبـد منـاف كانوا اول من اخـذ لقريش العصم»، اى اول من عقـد صـفقات تجاريـهٔ مع الـدول المجـاورهٔ، فقـد ابرم هاشم اتفاقا مع بيزانس امبراطور الروم فى الشام، واخـذ عهـدا من ملك الغساسـنهٔ للمتاجرهٔ مع الشام، بينما عقـد عبد شـمس (الابنالاخر لعبد مناف) اتفاقا مشابها مع النجاشـى الاكبر ملك الحبشهٔ، ومضـى نوفل (الابن الثالث لعبد منـاف) الى بلاـد فـارس، فوقع مع خسـروان امبراطور الفرس عقـدا تجاريـا، فى الوقت الـذى اختار مطلب وهو الابن الرابع لعبـد مناف الدولهٔ الحميريهٔ، كطرف تجارى يتعامل معه، فابرم مع ملكها (ابرههٔ) او (سـميفع) معاهدهٔ تجاريهٔ مماثلهٔ للمعاهدات التى عقدها اخوته الثلاثهٔ. وتتضـمن روايهٔ الطبرى لهذه القصهٔ نقطهٔ مهمهٔ حيث قال: «فانتشروا من الحرم»، اى خرجوا من مكهٔ، وانطلق وامنها الى الخارج. ولعـل ذلـك العمل التجارى الاول الـذى يقوم به اهل مكـهٔ مع الـدول المجاورهٔ، ليحصـلوا منه ورائه على موارد تتجاوز فى حجمها ما كانوا يحصـلون عليه من الضـرائب الماليـهٔ التى فرضت على القوافل التجاريـهٔ المارهٔ عبر مكـهٔ، وما كانوا يجمعونه من الحجيج فى كل عام، وقـد رافق هذا النشاط التجارى اضـطرابات واسـعهٔ وحروب عديدهٔ جرت على ارض اليمن، وادت الى امتناع بعض التجار القدماء من ممارسهٔ نشاطهم التجارى، فى الوقت الذى وقعت تجارهٔ قريش جميعها بيد ابناء عبد مناف. وما يمكن ان نسـتخلصه من هذا السـرد التـاريخى ان تجـارهٔ قريش مع العـالم الخـارجى، ومـا كـانت تـدره عليها من موارد ضـخمهٔ، لم تنعكس آثارها على المجتمع القرشـى بصورهٔ عامـهٔ، بل اسـتاثر بها عـدد محـدود جـدا من القرشـيين شـكل مع مرور الزمن طبقـهٔ راقيـهٔ، وتمضـى الروايـهٔ الى القول: ان هـذا الانتعاش التجارى تبعته سـنوات من الضـيق والشدهٔ، بل القحط الذى حل بمكهٔ، وذهب على اثره الكثير من ثرواتها. وحينها كان هاشم قد سافر الى الشام، وامر من هناك باحضار الخبز وارساله باكياس خاصهٔ الى مكهٔ، كما اوصى بذبح الابل التى كانت تحمل الخبز الى مكـهٔ، وتوزيع لحمهـا على الناس مع ثريـد الخبز الـذى كان ينقع بماء اللحم، ولهـذا سـمى بهاشم (لانه هشم الثريـد لقومه). ويفهم من ذلـك ان التجـار كانوا من فئات اخرى غير المزارعين واصـحاب الحيوانات والابل، كماان القحط قـد اصاب المزارع والحيوانات، ولم يضـر بالتجـار وتجـارتهم، ولهـذا اسـتطاع هاشم (وهو التاجر المعروف) انقاذ الموقف بارسال كميات ضـخمهٔ من الخبز الى مكـهٔ، كما يفهم من توصـيهٔ هاشم بذبح الابل التى كانت تحمل هذا الخبز الى مكهٔ ان الابل قد فقدت هناك، واصـبحت مكهٔ لا تجد منها ماتسد به رمقها.

حملهٔ ابرههٔ على مكهٔ

بعـد ان اسـتتبت الأمور لابرهـهٔ فى جنوب شـبه الجزيرهٔ العربيـهٔ، واتسق له الامر، وخضع له جميع القبائل والبـدو فىتلك المنطقهٔ، اخذ يفكر فى غزو شـمال شبه الجزيرهٔ العربيهٔ والحجاز لاخضاعها الى سيطرته وضمها بالقوهٔ الى حكمه، كما هى عادهٔ الملوك دائما حينما يستتب لهم الامر فى مكان معين فانهم يبداون بالتفكير فى توسيع ملكهم وضم المزيد من الاراضى والاقوام المجاورهٔ الى دولهم. وقد لا يخلو الامر من عوامل اخرى دفعت ابرهـهٔ الى التشـريع فى حملته على شـمال شـبه الجزيرهٔ العربيـهٔ، وفى مقدمـهٔ هذهالأمور المحتملهٔ سعى ابرههٔ الى الاقتراب اكثر منالامبراطوريهٔ الرومانيهٔ فى بلاد الشام، فهما (اى المملكتان) يدينان بالدين المسيحى، رغم ان الاحباش يعقوبيى المـذهب، ولهم اختلافاتهم الخاصـهٔ مع الروم. ولعل الروم قـد ساهموا فى تحريك ابرههٔ، ودفعه الى هذه الحملهٔ، على امل ان تقع الطرق التجاريـهٔ المؤديـهٔ الى المحيط الهنـدى فى قبضهٔ دولهٔ مسـيحيهٔ لا يساورهم القلق بشانها. وربما ساقه الى ذلك حسده لاهل مكـهٔ، فضـاق ذرعـا من اتسـاع نشـاطهم التجـارى ونمو ثرواتهم بسـرعهٔ فائقـهٔ عن طريق التجـارهٔ، لقـد اثـار ذلـك الثرا وتلـك المكانهٔ الاقتصاديـهٔ التى كـانت تتمتع بهـا مكـهٔ مطـامع ابرهـهٔ، وجعلته يفكر فى فرض هيمنته على هـذا المركز الاقتصـادى والتجارى والـدينى النشـيط. وتـذكر الروايات التاريخيـهٔ من اسـباب حملـهٔ ابرهـهٔ على مكهٔ، انه كان قد بنى فى صـنعاء كنيسـهٔ كبرى (قليس) وبذل لذلك

اموالا طائلة من اجل ان يحول اليها انظار سكان شبه الجزيرة العربية جميعا، ويجعلها كعبة جديدة لهم، وبذلك تصبح صنعاء المركز السياسى الاهم فى شبه الجزيرة العربية، ويتحول ابناء الجزيرة تدريجيا الى الديانة المسيحية التى كان يدين بها ابرهة وقومه. ولكن الأمور جرت باتجاه آخر، ولم يحظ هذا المبنى الكنسى الضخم باحترام تجار الشمال الذين كانوا يزورون صنعاء باستمرار لغرض التجارة، بل انهم كانوا ينظرون اليه بمزيد من الاحتقار والاشمئزاز، خصوصا انه انشى من قبل قوم آخرين من خارج شبه الجزيرة العربية ويتكلمون لغة اخرى غير لغتهم. لقد ادت هذه النظرة وذلك الاحتقار الى هدر قدسية هذا المبنى الضخم الذى كان محترما لدى ابرهة، فثار غضبه وقرر الهجوم على المركز الدينى والاقتصادى لشمال شبه الجزيرة العربية لهدمه، والفسح فى المجال امام عاصمته صنعاء لتغدواهم مركز سياسى واقتصادى على ارض شبه الجزيرة العربية، ولتبسط المسيحية وجودها على هذه الارض من الشمال الى اقصى الجنوب. ومهما كانت الاهداف المتوخاة، فقد جهز ابرهة جيشه، واعد نفسه اعدادا جيدا للقيام بهذه الحملة، فتحرك من اليمن قاصدا الحجاز وطبقا لما ورد فى تاريخ هذه الحملة جعل ابرهة على مقدمة جيشه فيلا، كان قد اتى به من افريقيا، اسمه (محمود)، وقيل: انه جلب معه ثلاثة عشر فيلا، وفى طريقه الى الشمال تعرض جيشه الى هجمات متتالية من قبل بدو الصحرا والقبائل الواقعة على الطريق فهزمها جميعا واسر شيوخها، وعندما وصل مكة، كان اهلها قد غادروها ولاذوا بصياصى الجبال والمرتفعات المجاورة. لم يترك ابرهة شيئا من الابل والممتلكات الا ونهبه، حتى قيل انه استولى على مئتى بعير من ابل عبد المطلب وحده، ولماجاءه عبد المطلب يلتمسه ان يرد اليه مئتى بعير اصابها له، قال ابرهة لترجمانه: «قل له قد كنت اعجبتنى حين رايتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى، اتكلمنى فى ابلك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه»؟! قال عبد المطلب: «انا رب الابل، وللبيت رب يمنعه». ثم امر ابرهة جيشه بالهجوم لهدم البيت، فالقى الفيل نفسه الى الارض، فصعدوا الجبل وضربوا الفيل فابى، فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول، ووجهوه الى الشام ففعل كذلك، ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه الى مكة فسقط الى الارض. وارسل اللّه عليهم طيرا ابابيل من البحر امثال الخطاطيف، مع كل طير منها ثلاثة احجار تحملها: حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه، فقذفتهم بها، وهى مثل الحمص والعدس، لاتصيب احدا منهم الا هلك، وليس كلهم اصابت، وارسل اللّهسيلا القاهم فى البحر، وخرج من سلم مع ابرهة هاربا يبتدرون الطريق الذى جاءوا منه.. فخرجوا يتساقطون بكل منهمل، واصيب ابرهة فى جسده، فسقطت اعضاؤه عضوا عضوا، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل الفرخ، فما ماتحتى انصدع صدره. [۳۰] .

القرآن الكريم و اصحاب الفيل

قد يصعب على العقل قبول ما ورد فى كتب التاريخ من تفاصيل حول هذه القصة، خصوصا مسالة الطيور التى امطرت الجيش الحبشى بالحجارة، وكانت السبب فى الحاق الهزيمة به وحمله على الفرار مع قائده ابرهة، لولا نزول القرآن بها ونصه عليها فى سورة الفيل، واخباره عن كيفية هلاك اصحاب الفيل بتلك الحجارة التى حملتها الطير الابابيل. تذهب اكثر الروايات الى ان ولادة الرسول (ص) كانت فى عام الفيل (اى العام الذى حدثت فيه تلك الواقعة، وبما ان الرسول (ص) لم يبعث الا فى الاربعين من عمره الشريف، فان الاشخاص الذين كان لهم من العمر خمسين او ستين او سبعين او ثمانين عاما عند نزول سورة الفيل كانوا من الذينعاصروا هذه الواقعة، وشاهدوا الفيل فى مكة، وهم ما زالوا يتذكرونها جيدا بتفاصيلها، وقد سكتوا ولم يعترض منهم احد، لانهم لاحظوا انطباق الرواية القرآنية على الواقع تماما، وانها لم تات بشىء غير الذى شاهدوه بأم اعينهم، وتختلف هذه الايةعن الايات التى ذكرت احداثا وقعت فى ازمنة قديمة لم يعاصرها احد ممن عاش فى عصر القرآن مثل: (الم تر كيف فعل ربك بعاد) «الفجر: ۶». وقد اشار الشيخ الطوسى فى تفسير التبيان الى هذه النقطة، وبناء على هذا فاما ان تكون القصة كما ترويها الاية بالمعنى الظاهر من الفاظها فى خصوص ارسال الطير الابابيل التى رمتهم بحجارة من سجيل، او تكون للاية الكريمة معنى آخر غاب عنا واصبحنا لا ندركه على حقيقته، لان الكلام الالهى لابد ان يكون مطابقا للواقع والحقيقة، رغم ان هذه الحقيقة قدتبين بصورة التمثيل او التاويل. ورد فى الاية الشريفة

کلمتـان لم یتضـح معناهمـا تمامـا للمفسـرین بما فیهم المفسـرین القـدامی، الاولی: کلمـهٔ (ابابیل) والثانیـهٔ: (سـجیل)، فما وضع لهاتین الکلمتین من معنی لم یکن مقنعـا تمـام الاقنـاع، فقـالوا مثلاـ فی معنی کلمـهٔ (سـجیل) انهـا تعریب لکلمتی (سـنگ وکـل) [۳۱] وهذا یتضـمن نوعا من الحشوا لتکرار لا یلیق بکلام اللّه. ومن جانب آخر یفهم من الروایات ان جیش ابرهـهٔ کان قـد اصـیب بمرض جلدی (الحصـبهٔ او الجدری) بما فیهم قائد الجیش ابرههٔ نفسه، واتفقت هذه الروایات علی ان ابرههٔ نجا من الهلاک، وعاد الی الیمن، وعاش مدهٔ هناک قبل ان یموت. واذا ما حاولنا تفسیر الایات الشریفهٔ بما ینسجم مع السنن الطبیعیهٔ، کان علینا ان نقول: ان اللّه سبحانه وتعالی اراد دفع الاعدا ورد کیدهم عن الکعبهٔ المشـرفهٔ، فابتلاهم بمرض شدید لم یسـتطیعوا معه مواصلهٔ حملتهم، فأجبروا علی العودهٔ بعد ان الحقت بهم الخسائر الجسـیمهٔ دون قتال، فیصـبح ما جاء فی الایتین الکریمتین: (وارسل علیهم طیرا ابابیل، ترمیهم بحجارهٔ من سـجیل) «الفیل: ۳-۴». اشارهٔ الی هذا المرض العضال، ویمکن ان نسـتخلص من بعض الروایات ان ثمهٔ عاصفهٔ کانت قد هبت من البحر الاحمر باتجاه مکهٔ، وحملت معها الطیور والحجارهٔ والحصـی والقتها علی رؤوس الاحباش. ومهما کانت صورهٔ الضربهٔ التی هزم بسببها جیش الحبشـهٔ، سوا کانت علی شـکل طیور حقیقیهٔ رمت جیشه بالحجارهٔ فاهلکته، او بصورهٔ اخری ا کثر انسـجاما مع قوانین الطبیعهٔ، فالنتیجهٔ واحـدهٔ هی ان اللّه هزم ابرهـهٔ وجیشه، وصـدهم عن الحاق الاذی بمکـهٔ والکعبـهٔ المشـرفهٔ التی کان مقررا لها ان تصـبح قبلـهٔ للعالمین ومطافا لهم ومرکزا لاعظم واسـمی رسالات التوحید وادیان السـماء. وهکذا حصـلت المعجزهٔ بمنع ابرههٔ وجیشه من احتلال مکهٔ وقتل الناس هناک وتهـدیم الکعبهٔ، فان اللّه لم یکن یرید ذلک بل یرید ان یجعل عما قریب من هذه البلدهٔ منطلقا للدین الاسـلامی الحنیف الی جمیع انحاء العالم.

لایلاف قریش

تـاتی سورهٔ قریش بعـد سورهٔ الفیـل مباشـرهٔ فی القرآن الکریم، وتبتـدی بالاـیتین الکریمتین (۱ – ۲): «(لایلاـف قریش، ایلافهم رحلهٔ الشـتاء والصیف)». وقد اختلف المفسرون فی معنی اللام التی وردت فی (لایلاف) فقال بعضهم: انها لام التعجب، بینما ارجعها آخرون الی السـورهٔ الـتی قبلهـا (ای سـورهٔ الفیـل) فیکون المعنی ان اللّه ارسـل علی الاحبـاش الطیر الابابیـل الـتی ترمیهم بحجـارهٔ من سـجیل لیهلکهم وتبقی قریش آمنـهٔ فی رحلتیهـا التجاریتین: رحلـهٔ الشـتاء الی الیمن ورحلـهٔ الصـیف الی الشام. وقـد رفض الطبری قبول هـذا التفسـیر، وقال: ان ذلک یسـتلزم کون السورتین سورهٔ واحـدهٔ. ومن الطریف ان الفقه الشـیعی یعتبر السورتین سورهٔ واحـدهٔ، وبناء علی ذلک فقد افتی فقهاء الشـیعهٔ بان قراهٔ سورهٔ الفیل وحدها بعد الفاتحهٔ فی الصلاهٔ غیر مجز، بل لا بد من ان نضیف الیها فی القراهٔ سورهٔ قریش. وقـد یکون رای فقهاء الشـیعهٔ هو الاصح والاقرب الی مضـمون السورتین والاکثر انسـجاما مع واقع الاحداث فی تلک المرحلهٔ التاریخیـهٔ. اذ یقـول القرآن الکریـم: ان اللّـه حطم جیش ابرهـهٔ، ورده خائبـا، لکی تبقی قریش آمنـهٔ مطمئنـهٔ فی سـفرها التجـاری نحو الشمال والجنوب، وهذا بدوره کان احدی العلل التی حفزت ابرههٔ لمهاجمهٔ مکهٔ. اذ حاول منعها من المتاجرهٔ بین الیمن والحبشهٔ وبین الیمن والمحیط الهندی. وضـمن هذا السیاق جاءت الایتان (۳– ۴) من سورهٔ قریش: (فلیعبـدوا رب هذا البیت، الذی اطعمهم من جوع وآمنهم منخوف)، ویمکن ان یکون قوله تعالی: (آمنهم من خوف) اشارهٔ الی قطع نفوذ الاحباش فی شـبه الجزیرهٔ العربیـهٔ الی الابـد، فقـد تضافرت الروایات علی ان هناک ملکین هما (مسـروق) و (یکسوم) وکلاهما من ابناء ابرهـهٔ حکما الیمن بعد وفاهٔ ابیهما، ثم جاء ملک الفرس انو شـروان فاعان سـیف بن ذی یزن فی الیمن علی الاحباش فطردهم من الیمن وازال ملکهم. کان ذلک بعد سنوات من عام الفیل، اذ لم تزل قریش خائفـهٔ غیر مطمئنهٔ بعد عودهٔ ابرههٔ الی الیمن، وهی تتوقع انتقامه لابنائه وجنوده الذین هلکوا هناک فی ایهٔ لحظـهٔ، الی ان اذلهم اللّه علی ید سـیف بن ذی یزن والقائد الایرانی وهرز، اللذین طرداهم من الیمن، وطهرا شـبه الجزیرهٔ العربیهٔ منهم الی الابد.

الاختلافات داخل قریش

مرت الاشارة فيما سبق الى ان كل من هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب، كانوا جميعا ابناء عبد مناف، وقد سيطروا على التجارة الخارجية، حتى صارت حكرا عليهم لا ـ ينازعهم عليها احد، وجمعوا من هذا الطريق ثروة طائلة بهرت الناس من حولهم، فاخذوا ينظرون اليهم بمزيد من التقدير والاحترام، حيث كانت العرب تقيم للمال وزنا كبيرا فی الجاهلية، وتعتبره دالة على الشرف والعظمة ومدعاة للفخر والتباهی. وفی مجتمع كهذا لا تنفصل فيه المكانة الاقتصادية عن الموقع السياسی، فالقدرة الاقتصادية تجلب نفوذا سياسيا يتناسب وحجمها، كان ينبغی لابناء عبد مناف ان يكونوا زعماء مكة السياسيين تبعا لزعامتهم الاقتصادية. اما قصی فقد منح كافة المناصب، وجمع فی يده ازمة الامور الدينية والسياسية وغيرها فی مكة، ثم سلمها جميعا الى ابنه المحبوب لديه عبد الدار، ومن ثم انتقلت بالارث الى ابنائه، فی وقت كان يرى فيه ابناء عبد مناف انفسهم الاولى بهذه المناصب، بعد ان اتسعت تجارتهم فی الخارج، واثروا ثرا فاحشا، وراوا انهم احق بها منهم لشرفهم وفضلهم فی قومهم. لم تذكر الرواية سبب هذا الفضل والشرف، غير انه كان يعود فی حقيقة الامر الى تمولهم. كان هاشم ايام الجاهلية بصدد سلب هذه المسؤوليات من ابناء عبد الدار، غير ان هؤلاء قاوموا تلك المحاولة بطبيعة الحال، ولم يستسلموا لها، ومن هنا بدا النزاع.

حلف المطيبين ولعقة الدم

افلح اولاد عبد مناف فی عقد تحالفات مع بنی اسد وبنی زهرة وبنی تيم وبنی الحارث من بطون قريش، واقسموا ان لايعودوا عن هذا الحلف او تقطع رقابهم. قال البلاذری: اما الرفادة والسقاية، فانهما لم تزالا فی حياة قصی الى عبد بن قصی، ثم صارتا الى عبد الدار بن قصی، حتى عظم شان بنی عبد مناف بن قصی، فقالوا: نحن اولى بما يتولاه بنو عبد الدار، فجمعوا من مال اليهم وعرف فضلهم من بنی اسد وبنی زهرة وبنی تيم، ومن كان داخل مكة من بنیالحارث، واتوا باناء فيه طيب، فغمسوا ايديهم فيه، ومسحوها بالكعبة، وتحالفوا ان لا يسلم بعضهم بعضا ما بل بحرصوفة، وسمی الحلف بحلف المطيبين [۳۲] .لم يشا ابناء عبد الدار الوقوف متفرجين، بل سعوا الى ابرام اتفاقات تحالفية مع باقی بطون قريش، وكانت هذه البطون،عبارة عن بنی مخزوم وبنی جمح وبنی سهم وبنی عدی، وقدعاب بنو عدی (معاهدة المطيبين) وسخروا منهما بقولهم: «انالطيب لربات الحجال» فاتوا بجفنة فيها دم، فغمسوا ايديهم فيها، وكان العرب اذا تحالفوا غمسوا ايديهم فی الملح والرماد، فسمی بنو عدی منذ ذلك الحين بلعقة الدم او ولغة الدم. ويقال: ان بعضهم لعق من الدم، وسمی الحلف بحلف لعقة الدم. وهنا تلاحظ آثار النعمة وافرازات الترف، حيث ابی ابناء عبد مناف، وهم التجار الكبار، الذين كانوا فی سفر دائم الى العراق واليمن والحبشة، والاثرياء الاشراف، ان يغمسوا ايديهم بالرماد والملح جريا على العادات السابقة، وبدلا عن ذلك غمسوا ايديهم بالطيب الثمين. فعاب عليهم خصومهم ذلك الترف وسخروا منهم واتهموهم بالتخنث وتقليد النساء فی افعالها، ولكی يظهر اعداؤهم المزيد من الرجولة قرروا غمس ايديهم بالدم لا العطر ومن ثم لعقه. واخذ العدا يتصاعد حتى اوشكت الحرب ان تقع بين الطرفين، لولا ما بذل من وساطات انتهت الى التصالح، على ان تكون مسؤولية (الرفادة والسقاية) لابناء عبد مناف بدل ابناء عبد الدار، بينما اقر هؤلاء على مناصبهم فی (الحجابة وعقداللوا) والاشراف على (دار الندوة)، وعلى حد قول البلاذری فی (انساب الاشراف) فان ابناء عبد مناف تحملوا العبء الاكبر: «واحتملت بنو عبد مناف اعظم الامور مؤنة». فلا تتم الضيافة ولا السقاية الا ببذل الاموال الطائلة، ولا ينهض بهذه المهمة سوى الاشخاص المتمولين، فی وقت عهد بسدانة الكعبة وادارة (دار الندوة) وهما امران ليس فيهما كلفة زائدة، بل فيهما موارد مالية الى الجماعة الفقيرة. ورغم ان السقاية والرفادة من الامور التی تستنزف مالا ضخما، الا انها كانت كما يبدو تدر على اصحابها موارد جيدة، علما ان قريش جميعها كانت تساهم فی هذه الضيافة، ويقوم كل واحد منهم باستضافة ما يسعه من الزوار والحجاج الفقرا، وتقديم الطعام اليهم دون ثمن، ولكن يبدو ان ما يصرف على الرفادة والسقاية يؤمن اما من الضرائب التی يدفعها القرشيون سنويا، او من الاموال التی يقدمها الزوار الاثرياء كثمن لما ياكلونه من طعام. ومن الادلة على

مساهمة قريش بصورة عامة فی استضافة الزوار ما رواه ابن سعد فی الطبقات، قال: «كان اذا حضرالحج، قام ای هاشم فی قريش فقال: يـا معشر قريش، انكـم جيران اللّه واهـل بيته، وان يـاتكم فی هـذا المـوسم زوار اللّه يعظمـون حرمـة بيته فهم ضـيوفه، واحـق الضـيف بالكرامـة ضـيفه، وقـد خصـكم اللّه بـذلک وكرمكم به، وحفـظ منكم افضـل ماحفظ، جار من جاره، فاكرموا ضـيفه زوره، فهم ياتون شعثاغبرا من كل بلـد علی ضوامر كانهن القـداح، قد ازحفوا وتفلواوقملوا وارملوا، فاقروهم واسـقوهم، فكانت قريش ترافد علی ذلک حتی انه كان اهل البيت ليرسلون بالشـیء اليسير علی قدرهم، وكان هاشم بن عبد مناف بن قصی يخرج فی كل عام مالا كثيرا، وكان قوم من قريش اهـل يسر يترافـدون، وكان كل انسان يرسل بمئـة مثقال هرقليـة (من ذهب او فضـة)، وكان هاشم يامر بحياض من ادم فتجعـل فی موضع زمزم ثم يستقی فيهـا المـاء من الابار التی بمكـة فيشـربه الحاج، وكان يطعم اول ما يطعم قبل الترويـة من كان بيوم بمكة ومنی وجمع عرفة، وكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسـمن والسويق والتمر، ويجعل لهم الماء فيسـقون بمنی، والماء يومئذ قليل فی حياض الادم الی ان يصـدروا من منی، فتنقطع الضـيافة ويتفرق الناس اليبلادهم» [۳۳] .ولنر الان كيف انتقلت مسؤولية الرفادة الی هاشم. هـذا ما يجيب عنه البلاذری فی روايته، حيث يقول: اقترع بنوعبد مناف علی الرفادة والسـقاية، فصارتا لهاشم بن عبد مناف، ثم صارتا بعـده للمطلب بن عبـد مناف بوصـية، ثم لعبـد المطلب، ثم للزبير بن عبـد المطلب، ثم لابی طالب (والـد اميرالمؤمنين)، ولم يكن له مـال فاسـتدان من اخيه العباس بن عبـدالمطلب عشـرة آلاف درهم فانفقها، فلما كان العام المقبل ساله ان يسـلفه خمسـة عشـر «الف درهم، ويقـال اربعـة عشـر الف درهم، فقـال له: انـک لم تقضـی مـا لی عليک، وانا اعطيک ماسالت، علی انک ان لم تعـد الی جميع مـالی فی قابـل فامرالرفـادة والسـقاية الی دونـک، فاجـابه الی ذلـک، فلما كان الموسم الثالث ازداد ابو طالب عجزا وضـعفا ولم يتمكـن مـن النفقـة، واعـدم حتی اخـذ كـل رجـل مـن بنی هـاشم ولـدا من اولاـده يحمـل عنه مـؤنته، فصـارت الرفـادة والسـقاية الی العبـاس،وابرا ابا طالب مما له عليه [۳۴] .والـذی يفهم من الرواية نفسـها ان كلا المنصبين لم يكونا خاليين من الموارد والعائدات، غير ان ابا طالب عجز عن ادارة الموقف لفقره الشديد، اذ لم تسـنح له الفرصة بجمع ما كان بذمته من الديون، ويبدو ان هذه العائدات هی التی دفعت العباس الی تقديم مبلغ قدره خمسة وعشرون درهما الی ابیطالب ثمنا للمنصبين.

عبد المطلب

اشاره

عبد المطلب الذی ورد ذكره فی حديثنا عن حملة ابرهة علی مكة، كان ابنا لهاشم، اما امه فكانت قد اعجبت هاشما عندما شاهدها فی يثرب فی احد اسفاره التجارية الی الشام، فطلب يدها من ابيها. كانت هذه المراة من بنی النجار من قبيلة الخزرج، وكانت تشترط علی من يتزوجها ان يكون الامر لها، واذا ما ضاق الزوج بـذلک فلها الحق فی الانفصال عنه والخروج من عصـمته متی شاءت، والذی اهلها لمثل هذا الشرط مكانتها الاجتماعية المرموقة، وشرفها الذی استهوی الرجال اليها، هذا وقد اضاف والدها شرطا آخر ان تكون ولادتها فی بيت والـدها لا ـ فی بيت زوجهـا، وبينمـا كان هاشم فی سـفر تجاری الی الشام وافته المنيـة فی غزة، وترک الزوجـة فی يثرب، وقد اولدها ولدا سـماه شيبة الحمد، وسمی بهذا الاسم لانه ولد وفی شعره بياض كالشيب. وبعد ان كبر الوليد ووصل خبره الی مكة، ذهب عمه المطلب الی يثرب وعاد به الی مكـة، وحين رای الناس عودته مع المطلب، ظنوا انه عبـدا له، فاطلقوا عليه لقـد عبد المطلب، فصار اسما له، ولم يفارقه حتی نهاية حياته. وقيل: ان المطلب ادعی فی البداية ان الولد عبد له اشتراه من هناک،فسمی عبدالمطلب [۳۵] .

اعمال عبد المطلب

كانت الرفادة والسـقاية قـد اوكلت الی المطلب بعد وفاة هاشم، ثم وصـلت الی عبد المطلب بوفاة المطلب فی (ردمان) عند ماكان فی

سفر تجارى الى اليمن، ويبدو ان مشاكل السقاية ومصاعب توفير المياه اللازمة للحجيج، دفعت عبد المطلب الى حفر بئر كبيرة سميت فيما بعد ب (بئر زمزم). ولم يكن هذا البئر هو البئر الاول الذى حفر فى مكة، فهناك آبار اخرى تم حفرها فى انحاء مختلفة من مكة قبل هذا التاريخ، بل ان احدى الروايات قد نسبت تاريخ انشاء بئر زمزم الى زمان اسماعيل (ع)، وبهذا تكون زمزم اول بئر تم انشاؤها لسقى الحجاج. الا ان الازرقى يروى ان البئر دفنت فيما بعد بالسيل، ولميبق لها اثر [۳۶] .كانت قبيلة جرهم قد اودعت خزائن الكعبة ونفائسها داخل بئرزمزم قبل ان تخلى مكة، ويبدو انها دفنت البئر كى لا ينتفع الاعدا من مائها، ولا يجدون طريقا للوصول الى الخزائن التى وضعت فيها، على امل ان تعود جرهم لاستخراجها ان عادت مرة اخرى الى مكة. ومهما كانت القصة الحقيقية لتلك البئر، فقد دفعت مشاكل السقاية ومصاعب الحصول على المياه اللازمة للحجاج، وتوفير ما يلزم من المخازن، عبد المطلب الى التفكير الجدى بايجاد بئر قرب الكعبة يوفر حاجة الحجيج من المياه، وبتتبع بعض الاثار والعلامات المتبقية اهتدى الى المكان ذاته الذى شق فيه البئر الاولى، وربما كان بعض الناس يستطيع الاشارة الى منطقة تواجده قبل ان يندرس، وقد جاء فى احدى الروايات ان الاهتدا الى موقع البئر، تم عبر رؤيا رآها عبد المطلب فى المنام، حيث شاهد غرابا ينبش الارض بمنقاره، فامر وهو فى المنام ان يشق البئر حيث نقر الغراب. لم يكن لعبد المطلب من الاولاد فى حينها سوى الحارث، فشرعا معا فى حفر البئر، ومثل هذا العمل لا يجد عادة التاييد المطلوب من الناس فى مراحله الاولى، بسبب عدم اطمئنانهم الى النتائج، ولم تشذ قريش عن هذه القاعدة، واكتفت تقريبا بموقف المتفرج. اما بعد ان عثر ابوطالب على بعض النفائس التى كانت مخباة هناك، فقد تغير ذلك الموقف تماما، وابدت قريش حماسا شديدا للمساهمة فى مشروع الحفر، وبعد ان ادعت شركتها فى تلك النفائس وسعت مطامعها، فطالبت بحصة خاصة لها فى ماء البئر وفى موارده الاخرى، وقد ترك هذا الموقف آثارا عكسية فى نفس عبد المطلب، واثار سخطه وامتعاضه، فقرران يهدى الى الكعبة، بعض تلك النفائس المكونة من مجسمتين، كل واحدة منهما على شكل غزال مزين بالذهب، وعدد من السيوف والدروع واسلحة اخرى، فنصبت احدى المجسمتين مع السيوف على باب الكعبة، بينما وضعت المجسمة الاخرى داخل الكعبة حيث تحفظ الهدايا والنذور، وللمجسمة التى نصبت على باب الكعبة قصة طريفة سناتى على ذكرها لاحقا. تطور الخلاف بين قريش وعبد المطلب حتى ذهبا معا طبقالما ورد فى المصادر التاريخية الى احد الكهنة ليحكم بينهما، وبعد جولة من النزاع انتهت الازمة على ما يبدو لصالح عبدالمطلب، حيث تولى امر البئر (بئر زمزم) تبعا لبقائه فى منصب السقاية.

نذر عبد المطلب

كان عبد المطلب، الذى تحمل مشاق حفر البئر مع ابنه الوحيد الحارث، وواجه قريش وخصوماتها، وحده قد نذر ان رزق عشرة من الذكور، فسيذبح احدهم قربانا للمعبد. اذ يبدو ان التقرب بذبح الابن قربانا للمعبد، من التقاليد التى عرفها العرب منذ القدم، وكانت اقدم اشارة الى هذا التقليد عمل ابراهيم (ع) الذى قدم ابنه اسماعيل (ع) قربانا وتله للذبح لولا ان فداه اللّه تعالى (بذبح عظيم) علامة لتقبله القربان، كان نذر عبد المطلب ان يذبح احد ابنائه جزأ من هذا التقليد القديم. وبعد ان رزق عبد المطلب عشرة ابناء، جاء دور الوفاء بالنذر، وجرت القرعة طبقا للاعراف المتبعة على يد سادن الكعبة، فوقعت على اصغر اولاده سنا عبداللّه والد الرسول (ص)، وهناعادت من جديد ذكرى ذلك التقليد القديم، فاعترضت قريش واشارت عليه ان يجعل القرعة بينه وبين مجموعة من الابل، وكانت نتيجة القرعة التى جرت فى البداية بين عبداللّه وعشرة من الابل على عبداللّه، واعيدت القرعة ثانية بعد ان زيدت الابل الى مئة بعير، فوقعت على الابل، وقام عبد المطلب بذبح مئة بعير فدا لعبداللّه. وجعلت هذه الضحايا المئة فى متناول الجميع بلا استثناء، حتى قيل انها قد اكلت منها الوحوش والطيور دون ان يمنعها احد، وكان صاحب النذر وابنه عبداللّه الوحيدين اللذين امتنعا عن تناول شىء منها، وهذا ايضا من التقاليد المتبعة فى اكل لحوم القرابين.

حلف خزاعة مع عبد المطلب

يعتبر الاطلاع على ما ورد فى المصادر التاريخيـة من تفاصـيل حول الحلف الذى وقعه عبد المطلب مع خزاعة ضـرورى المعرفة تاريخ العرب قبل الاسـلام والتاريخ الاسـلامى كذلك، وتتلخص اهمية ذلك بالنسبة الى التاريخ الجاهلى فى اعطاء صورة واضحة عن كيفية ابرام المعاهـدات وعقد الاتفاقاتبين‌القبائل العربية [۳۷] .واذا ثبتت صـحة تلك التفاصـيل فانها تكشف بجلاء عن المكانةالمرموقة التى كان يتمتع بها عبـد المطلب داخل المجتمع المكى، واوضـح دليل على ذلك عنوان المعاهـدة، حيث جاء بصـيغة: (حلف خزاعـة لعبد المطلب) فكان التحالف بين قبيلـة خزاعـة من جانب، وشـخص عبـد المطلب من جانب آخر، وقـد وقع التحالف اولاده نيابـة عنه، ولم يكن بين قبيلـتين، ولهـذا اعتزعبـد المطلب بهـذه المعاهـدة، واوصـى ابنه الزبير بالاحتفـاظ بهـا من بعـده، ثم سـلمها هـذا الى اخيه ابى طالب،الذى سلمها بدوره الى اخيه العباس [۳۸] .اذن كان الحلف بين شـخص (يمثل قومه وعشيرته)، وبين قبيلة باكملها، فقد جاء فى نص المعاهدة: (رجالات بنى عمر من خزاعة ومن معهم من اسلم ومالك). [۳۹] وقد تكون هذه المعاهدة هى الاولى التى تم تدوينها ومن ثم حفظها فى الكعبة المشرفة، وهذه هى النقطة الثانية التى تؤكد اهمية دراسة هذا التحالف لمعرفة التاريخ الجاهلى. وربما كانت هناك اتفاقيات اخرى تم ابرامها قبل هـذه المعاهدة، ولكن تبقى هذه اقدم معاهدة وصـلتنا اخبارها على اقل تقدير. ومن الامور المهمة ايضـا فى هـذا الاتفـاق، مـا جرى من التاكيـدات لتحكيمه، ومـا صـدر من اعمـال لتاييـده وامضـائه. وتنبع اهميتهـا بالنسبة الى التـاريخ الاسلامى، من كونها المعاهدة التى احترمتها خزاعة فى السنة السادسة للهجرة، اثناء صلح الحديبية، فاختارت الوقوف الى جانب رسول اللّه (ص)، ولتاكيـدها واحترامهـا الغى الرسول (ص) صـلح الحديبيـة عنـدما قتـل بعض المتحالفين مع قريش جماعـة من خزاعـة، وقد انتهى‌الامر الى فتح مكة.

اصناف قريش

كانت هناك جماعتان من قريش وقفت ضـد عبـد المطلب وحلفائه من بنى خزاعـة، وهما بنو امية وبنو نوفل، وكان بنو امية قد ناصـبوا هاشـما وابناءه العـدا فى حياة هاشم نفسه، وليس هناك من سـبب يحملهم على العـدا سوى الحسد والحنق اللذين امتلات بهما صدور بنى اميـة على هاشم لما كان يتمتع به من مكانة شـريفة بين قومه، وقد اضـطر امية الى الجلاء عن الوطن بسـبب هذه الخصومة والعيش فى الشام فترة عشـر سـنوات. واضطر عبد المطلب يوما الى الاستعانة بقوم امه فى يثرب، لاسترجاع الارض التى كان قد غصبها منه عمه نوفـل، واسـتعادها فعلاـ من عمه، وبقيت الضـغائن والخصومات تتوارث بين ابناء بنى اميـة وبنى نوفل ضـد بنى هاشم حتى توصـلا الى اتحاد يجمعهما ضد عبد المطلب الذى اضطر بدوره الى التحالف مع خزاعة.

الاحابيش

يعتقد (لامنس) [۴۰] احد المستشـرقين الاوروبيين انقريش كانت قد فقدت خصائصـها القتالية ايام ظهورالرسول (ص)، واعتمدت فى حربها ضـد المسـلمين على (الاحابيش) ويتكون (الاحابيش) فى راى (لامنس) من‌الحبشـيين والعبيـد السود وبعض قبائل البدو الرحل، الـذين كـانواعلى اسـتعداد للقتـال لقاء اجور معينـة، ويرد المستشـرقون‌الاخرون على هـذه الفكرة، اذ يـذكر المستشـرق (منغرى واف) ملخصـا عن فكرة لامنس فى الملحق (ا) من كتـابه (محمـد (ص) فى مكـة) ثم يرد عليهـا هو الاخر، وبما انه سـيرد ذكر الاحابيش فى تاريـخ حروب الرسول (ص)، وخصوصا فى معركـة احـد، لذا نحاول تسـليط الضوء على هذا، ونحن (المؤلف) نرفض‌وجهة النظر هذه ولا نقبلها عموما. من الامور التى يستدل بها لامنس على تاييـد فكرته، التصـرفات التى صـدرت من قريش بعد هزيمتها فى بدر، فطبقا لسـيرة ابن‌هشـام فـان قريش اخـذت تفكر بالانتقام وتخطط له، وبعـد عودة قافلتها التجاريـة من الشام سالمـة الى مكـة، قررت ان تنفق

ماجنته فى هذه الرحلة على شـرا الاسـلحة وتوفير مسـتلزمات الحرب، ومضت فعلا فى مسعاها لمحاربة الرسول (ص). لقداتفقت قريش (واحابيشـها) مع قبائل من كنانـة وتهامة على محاربة رسول اللّه (ص)، [۴۱] وعند شـروع المعركة (كاناول من لقيهم اى المسلمين ابا عامر من الاحابيش وعبـدان اهل مكـة). [۴۲] وليس هناك ما يؤيـد وجهـة نظر لامنس فى كلتا الفقرتين المـذكورتين، ومن البعيـد ان يكون (بالاحابيش) عبارة عن الحبشـيين والسود، وقد وردت كلمة احابيش فى قصيدة لحسان يخاطب بها قريش، غير انها هى الاخرى لا تساعـد على وجهـة نظر لامنس، يقول حسان:فسـقتم كنانة جهلا من سـفاهتكم الى الرسول فجند اللّه مخزيهافجمعتموها احابيشا بلا حسب ائمة الكفر غرتكم طواغيهـا [۴۳] .اعتبر لامـنس كلمـة «بلاـ حسب»، بمعنى (بلاـ نسب)، ولا يوجـد فى الابيات السابقـة ما يؤيد وجهـة نظر هـذا المستشـرق، حيث يعـود الضـمير (هـا) فى «جمعتموهـا» الى بنى كنانـة، ويكـون المعنى: (انكم جمعتم بنى كنانـة كما جمعتم طوائف اخرى لا اعتبار ولا قيمة لها لمحاربة رسول اللّه (ص». ويذكر لامنس ادلة اخرى كلها من هذا القبيل، اذ ليس هناك ما يساعـد على الاعتقاد ان الاحابيش (الحبشيون) والغلمان السود) كانوا مرتزقة، وقد ذكرت كلمة (احابيش) فى بعض الموارد مثل شـعر حسـان وشـعر كعب بن مالك [۴۴] ولكنهـا كـانت تسـتخدم، ويراد بهـا الجماعـة من النـاس ليس الا، سوا فى الموردين الاولين او فى المورد الذى يقول: ان حليس بن زبان، او بن يزيد، كان (سـيد الاحابيش)، ففى هذا المورد اطلقت كلمة احابيش على جماعة خاصـة من الناس، وقـد اعتمـد لامنس على كلمـة احابيش فى هذه الموارد واسـتنتج ان المرادمنها (الاحباش والغلمان السود). الا انه ينبغى ان يعرف المقصود الحقيقى بكلمـة (احابيش) ومن هم الجماعة الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم. الذى يظهر من الروايات ان الاحابيش كانت تطلق على قبائل بنى‌الحارث بن عبـد مناة (من كنانـة، و (عضل) و (دليش) (من بنى‌الحصون)و (مصـطلق) و (حيا) (من خزاعـة) [۴۵] .وطبقا لروايـة الـدر المنمق [۴۶] التى ينقلهـا عن ابن ابى‌ثابت، فان قريش بعـد ان اخرجت خزاعـة وبنى بكر من مكـة واصبحت بعيـدة عن انصارها من بنى قضاعـة وبنى اسـد، خافت ان يتعرض انصارها الى الغزو من قبل بنى بكر، فعقد عبدمناف تحالفا مع القبائل المذكورة، وتم ابرام هذا الحلف فى منطقة تبعد عشـرة اميال عن مكة تسـمى (حبش) واصبح يعرف المتحالفون ب (الاحابيش). وفى روايـة اخرى: ان بنى بكر ارادوا فى زمن (المطلب) او (عبـد المطلب) بن عبـد مناف ان يطردوا قريش من مكـة، فعقـد (المطلب) حلفا بين قريش و (الاحابيش) (اى القبائل المـذكورة) وبمساعـدة (الاحابيش) تم لقريش النصـر على بنيبكر فى معركـة (ذات نكيف) [۴۷] .وجاء فى الياقوت: ان قائد قريش فى هذه الحرب كان عبدالمطلب، بينما ورد فى (الدر المنمق) ان القائد هو المطلب عم‌عبد المطلب، وفى حرب الفجـار كـان هؤلاءالاحابيش مع قريش [۴۸] .وبهـذا يتضـح ان الاحـابيش قبائـل تحالفت مع قريش ووقفت الى جانبها فى نزاعاتها مع الاطراف الاخرى منذ زمان المطلب «اوعبد المطلب الى فتح مكة. والصـحيح فى فكرة لامنس هو ان قريش انما لجات الى التحالف مع الاحابيش لخوفها من الاعدا وخشيتها من تغلب الخصوم عليها، ولكن هذا لا يعنى ان قريش فقدت قدرتها على القتال، بل قـد يعنى ان قريش كانت بحاجـة لمثل هؤلاء الحلفاء وهى منهمكة فى تجارتها لتسـتطيع بمساعدتهم رد العدوان عنها ودفع الاعدا من التعرض لمصالحهـا، وممـا لاشـك فيه ان حلفـاء قريش كـانوا يتلقون منهـا بعض الاموال، وليس ببعيـد ان تكون ثروة قريش من جملة العوامل التى دفعت الاحابيش للتحالف معها، فالتحالف لا يخلو من مكاسب ماديـة لكلا الطرفين، خصوصا ان الاحابيش لم يكونوا من قبائل كبيرة او معروفـة فى شـبه الجزيرة العربيـة. اما كون الاحابيش جميعا من الحبشـيين او العبيد السود، فهذا مالا يمكن اسـتفادته من نصوص الروايات، وتاييـده. اعتمد لامنس فى رايه على كلمة احابيش، وقد ذكرت وجوه ومعان عديدة لهذه الكلمة دون ان ياتى ذكر لراى لامنس والمعنى الذى فهمه منها، واكثر الوجوه قبولا ما افاده ابن‌الاثير [۴۹] حيث قال: «التحبش والتجمع».

الحياة المعنوية والاجتماعية فى مكة

اشاره

مرت الاشارة فیما سبق، الی انه طبقا لما ورد فی القرآنالکریم فان ابراهیم وابنه اسماعیل کانا قد بنیا الکعبة فی وادغیر ذی زرع، واستقر حولها ابناء ابراهیم بسعیهم وکدحهم ثمهناک انشا ذلک المعبد التوحیدی العظیم. تعتبر مرحلة التوحید وعبادة اللّه الواحد الاحد متاخرة زماناعن مرحلة الشرک وعبادة الارباب المتعددین فی تاریخ الادیان، من وجهة نظر علماء الادیان. واذا نظرنا الی تاریخ التحولات الفکریة فی المجتمع البشری، فاننا نری مرحلة التوحید ارقی مرتبة من مرحلة الشرک وتعدد الالهة، وفی قصة ابراهیم (ع)، التی یذکرها القرآن الکریمویشیر فیها الی التحول الروحی لابراهیم (ع) من عبادة الظواهر الطبیعیة الی عبادة اله العالمین، اشارة رمزیة الی تحول الانسان الفکری من الشرک الی التوحید، وهذا لا یتنافی مع کون الانبیاء موحدین منذ البدایة، فان الشرک مقدم من الناحیة الطبیعیة علی التوحید، واول مهمة للانبیاء والمبعوثین الالهیین، محاربة الجهل الذی هو جزء من الطبیعة البشریة. وان الشیء الفطری المغروس فی النفس الانسانیة والذی بینه اللّه تعالی انما هو الاعتقاد بالخالق والصانع، اما الاعتقاد بالتوحید والایمان به فهذا ما یعلمه الانبیاء. فکلمة (لا اله الا اللّه) اقرار بالتوحید، لا الخالق والصانع. وطبقا لما جاء فی القرآن الکریم فان قوم نوح کانوا یعبدون الاصنام، بینما کان نوح، الذی شرفه اللّه تعالی بالنبوة، یدعوهم الی ترک عبادة الاصنام والارتقاء بتفکیرهم الی مستوی اعلی. تمثل مرحلة الشرک ادنی مراتب التفکیر، ولهذا فهی من الناحیة التاریخیة اقدم من مرحلة التوحید، وفی الوقت الذی جعل ابراهیم (ع) وابنه اسماعیل من الکعبة مقرا للعبادة وبیتا للّه سبحانه، نجد من جاء بعدهم قد ارتد بهم التفکیر کباقی ابناء زمانهم، الی ادنی المستویات، ولم یمض وقت طویل حتی تحولت الکعبة المشرفة الی محل تنصب فیه الاصنام، ویعبد فیه الارباب کباقی المعابد عند العرب. جاء فی الروایات وفی اخبار العرب ایام الجاهلیة: ان الذی اتی بعبادة الاصنام هم خزاعة وبالذات رئیسهم عمر بن لحی، فهو الذی جاء بالاصنام من الشام ووضعها فی الکعبة. وتقول روایات اخری: ان ابناء اسماعیل کانوا یاخذون معهم عند السفر احجارا من الکعبة للذکری والاعتزاز، ینصبونها فی ای مکان یحلون فیه، ثم یبدؤون بالطواف حولها، وبالتدریج غشیتهم الغفلة عن اللّه واخذوا یعبدون هذه الاحجار من دونه. ان تقدم الشرک علی التوحید شیء طبیعی کتقدم الجهل علی العلم والتعقل، [۵۰] ولهذا السبب عادت الکعبة ثانیة لتتحول کباقی المعابد الی بیت للاصنام، لکن ذلک لم یقضعلی الاعتقاد الراسخ فی اعماق النفس الانسانیة بالصانع الذی خلق الکون والحیاة، وظل اهل مکة یعتقدون باللّه الاله الخالق الذی هو اکبر من بقیة الالهة، ففی الوقت الذی یقدمون نذورهم وهدایاهم وقرابینهم الی الالهة الصغار التی یطوفون حولها ویعبدونها دوما، وهم یقولون کما جاء فی القرآن الکریم: (ما نعبدهم الا لیقربونا الی اللّه زلفی) «الزمر: ۳» او یقولون:هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه: (ویعبدون من دون اللّه ما لا یضرهم ولا ینفعهم ویقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه) «یونس: ۱۸». لقد حفظ لنا تاریخ العرب فی الجاهلیة عددا کبیرا من اسماء هذه الاصنام، کما ورد ذکر بعض منها فی القرآن الکریم فی الایات (۱۹،۲۰، ۲۱) من سورة النجم: (افرایتم اللات والعزی، ومناة الثالثة الاخری، الکم الذکر وله الانثی). کان (مناة) علی ساحل البحر بین مکة والمدینة، وکان اهل المدینتین (مکة والمدینة) یقدمون له المزید من القرابین والنذور، ویکنون له قدرا خاصا من التعظیم والتبجیل. ولا یکتمل حج الاوس والخزرج وکلاهما یستوطن یثربالی الکعبة الا بعد ان یزوروا مناة، وبعد زیارة مناة یحلقون رؤوسهملا قبلها. [۵۱] .اما (اللات) فهو احدث من مناة، وکان محله الطائف، ومنها کان سدنته وخدامه. ویبدو ان العزی کان احدث من الاثنین (اللات ومناة) واکبر منهما، بل هو اکبر اصنام قریش قاطبة، وکان الکل یزوره ویقدم له القرابین والنذور، وکانت من بین الاسماء التی تتردد کثیرا فی قریش: (عبد اللات) (عبد مناة) و (زید اللات) (وعبدالعزی) ویحکی ذلک عن عبادتهم لهذه الاسماء. ومن اصنام قریش المهمة (هبل) وقد جعل له مکان داخل الکعبة، وتم صنعه من العقیق علی هیئة انسان، وقد صاغت له قریش یدا من الذهب جعلتها مکان یده الیمنی المقطوعة اصلا، وکان قد وضع امامه سبعة اقداح (اسهم)، یرجع الیهاعادة فی اجرا القرعة للامور المهمة والمعقدة، واذا ما واجه شخص مشکلة ما یعود الی هذه الاسهم، ویختار واحدا منها، ثم یقرا ما کتب علیه من کلمات لتخبره بعاقبة عمله. ان کانت خیرا او شرا. وغالبا ما یرجع الی هذه الاسهم لحسم احدی المشاکل الاجتماعیة المهمة التی کانت تعانی منها قریش بل العرب جمیعا، وهی کیفیة معرفة الاب الاصلی للمولود فی ضوء العلاقات غیر الشرعیة واختلاط الدماء

وتردی اوضاع الزواج والطلاق، وما الی ذلک من مشاکل سناتی علی بحثها لاحقا. کان یتم حسم المشکلة التی تنشا من صعوبة تشخیص الاب الحقیقی للمولود باجرا القرعة علی سهمین من السهام السبعة الموجودة الی جانب هبل، وقد کتب علی احد هذین السهمین کلمة (صریح) بینما کتب علی الاخر کلمة (ملصق)، فاذا اصابت القرعة (الصریح) اصبح المولود ابنا حقیقیا لذلک الاب المشتبه، واذا ما اصابت (الملصق) ارتفعت ابوة هذا الاب.اوقل ارتفعت بنوة هذا المولود المشتبه لهذا الاب. [۵۲] .وعندما غلب المسلمون فی معرکة احد صاح ابو سفیان زعیم المشرکین (اعل هبل). یوضح تاریخ العرب قبل الاسلام ان القبائل العربیة کانت تتخذلها اوثانا خاصة، فلکل قبیلة صنمها الخاص الذی لا تشارکها به‌القبائل الاخری وان کانت تحترمه وتقدسه، فمثلا اتخذت قبیلة هذیل (سواعا) وقبیلة کلب (ودا) او (ودا) وقبیلة مذحج (یغوث) بینما اختصت قبیلتا حمیر وخیوان ب (نسر) و (یعوق) علی التوالی. [۵۳] وقد وردت اسماء هذه الاوثان فی سورة نوح، ویفهم من السورة المبارکة ان قوم نوح کانوا هم ایضا یعبدون هذه الاوثان. بالاضافة الی هذه الاصنام التی کانت تعبد علی امتداد شبه الجزیرة العربیة والتی کانت لها اسماؤها الخاصة، کان هناک ثمة اشیاء اخری عبدها الناس من دون اللّه، واطلق علیها اسم (الانصاب) او (النصب) التی وردت فی القرآن الکریم فی سورة المائدة الایة (۳)، التی استعرضت الحرام من اللحوم فقالت: (وما ذبح علی النصب) وذکرت (الانصاب) فی‌الایة (۹۰) من السورة الشریفة نفسها کواحدة من المحرمات التی تعرضت لها السورة. والانصاب او النصب عبارة عن احجار کانت توضع امام الاصنام لتذبح علیها القرابین المقدمة لتلک الاصنام، وکان ینبغی ان تلطخ بالدم حتی تخضب تماما وتصطبغ جمیع اجزائها به. والغبغب او العبعب هو اسم للمکان الذی تذبح فیه القرابین. وقال بعضهم: انه الحفرة التی ینحدر الیها الدم، من فوق الانصاب، او الاخدود الذی تکدس به النذور والقرابین المقدمة للصنم. والقربان اسم مشتق من (القرب) وهو الحیوان الذی یذبح فی مراسم خاصة من اجل التقرب به الی الرب. وتسمی الحیوانات التی کانت تقدم کقرابین فی شهر رجب ب (العتیرة)، وتقدم القرابین عادة للوفاء بالنذر او الوفاء بالعهداو لاتمام مراسم الحج والزیارة. وتحترم الاصنام ما دامت لا تتعارض مع مصالح الزوار والعباد، وفی هذا المجال قصة طریفة اوردها ابن الکلبی فی (الاصنام) وجاء فیها انه حینما اراد الشاعر المعروف امرؤ القیس الهجوم علی بنی اسد انتقاما لدم ابیه، ذهب الی صنم من الاصنام یدعی (ذو الخلصة) یطلب استشارته بالامر وبعد ان اجری القرعة فی السهام الموضوعة امام الصنم، وقعت القرعة علی «الناهی» اعادها ثلاث مرات فلم تصب غیر (الناهی) و (الناهی) کنایة عن النهی عن ذلک العمل، فغضب امرؤ القیس، وحمل‌علی الاسهم فکسرها وضرب بها وجه الصنم، ثم شتمه وقال له: لو کان المقتول اباک لما نهیتنی عن هذاالعمل [۵۴] .کانت الشمس والقمر کذلک من ارباب العرب، ولهذا سمی بعضهم بعبد شمس، وقد نهی القرآن الکریم عن ذلک فی الایة (۳۷) من سورة فصلت: (ومن آیاته اللیل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر). وجاء فی الایتین (۵و۶) من سورة الرحمن (الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر یسجدان) وقال فی سورة الانعام الایة ۹۶: (فالق الاصباح وجعل اللیل سکنا والشمس والقمر حسبانا). تشیر سورة الرحمن ایضا الی ان قسما من العرب کانوا یعبدون بعض النجوم والاشجار، وقد ورد فی قصة العزی ان امراة شریرة کانت تختفی ورا اشجار ثلاث، کان خالد بن الولید قد قطعها بامر من الرسول (ص)، فوجد تحتها امراة سودا شعثاء الشعر. وتظهر هذه القصة صحة الاخبار التی تتحدث عن عبادة الاشجار عند العرب، وقد شجب القرآن جمیع الارباب المتخذة من دون اللّه، ونهی عن عبادتها، وقال فی الکتاب الکریم: ان الشجر والنجم انما هی مخلوقات للّه عز وجل تاتمر بامره. ویری المؤلف ان تاویل بعض المفسرین الذی ورد فی الایة الکریمة بانه نوع من العشب غیر صحیح، حیث یذهب اکثر المفسرین الی ان المراد بالنجم، الذی اقسم به الباری فی سورة النجم بقوله: (والنجم اذا هوی) «النجم: ۱»، هو الثریا، واقسم بنجم آخر فی سورة الطارق: (والسماء والطارق، وما ادراک ما الطارق، النجم الثاقب) «الطارق:۱-۳». ویبدو ان اللیل والنهار هما ایضا من الاشیاء التی عبدها العرب، وکانوا لها یعکفون، او انها کانت علی الاقل تنال منهم احتراما وتقدیسا، هذا ما یمکن استخلاصه من بعض الایات فی سورتی الانعام وفصلت، فقد ورد فی مقام الرفض والنهی عن ذلک ان اقسم اللّه تعالی بهما باعتبارهما آیتین من آیات اللّه فی هذا الکون، ففی سورة الشمس اقسم اللّه تعالی بالشمس والقمر

بقوله: (والشمس وضحاها، والقمر اذا تليها، والنهار اذا جليها) «الشمس: ۱–۳». وفى سورة الليل: (والليل اذا يغشى، والنهار اذا تجلى) «الليل: ۱–۲». وفى سورة المدثر: (كلا والقمر، والليل اذ ادبر، والصبح اذا اسفر) «المدثر: ۳۲–۳۴». توضح هذه الاقسام الالهية، بالشمس والقمر والليل والنهار والصبح، المكانة غير الاعتيادية والاحترام والتقديس التى كانت تحظى بها هذه الظواهر الطبيعية عند العرب، ففى الوقت الذى يلفت به البارى جل شانه من خلال القسم الانظار الى هذه الظواهر باعتبارها ظواهر طبيعية، يشير الى انها معلولة له ومؤتمرة بامره، حيث قال فى سورة التكوير: (اذا الشمس كورت، واذا النجوم انكدرت) «التكوير: ۱–۲»، وفى موضع آخر يستعرض التحولات والتغيرات التى تحدث فى الطبيعة من قبيل (ادبر)، (اسفر)، (جليها)، (يغشيها)، ليؤكد على انها امور زائلة لا تستقر على حال، وقد يوحى ايضا القسم بالسماء والارض كما فى: (والسماء وما بنيها، والارض وما طحيها) «الشمس: ۵–۶». قال بعضهم: ان الشمس كانت عبارة عن وثن من اوثان العرب. [۵۵] وورد فى كتاب (المحبر) اسم الشمس اثناء استعراضه لتلبية الاصنام، غير ان الظاهر ان المقصود بالشمس التى استعرض تلبيتها المخبر هى نفس الشمس السماوية، وكانت تلبية الذين يعبدون الشمس طبقا لما قاله المخبر (ص۳۱۲) كما ياتى: لبيك اللهم لبيك لبيك ما نهارنا بجره ادلاجه وحره وقره لا نتقى شيئا ولا نفره حجا لرب مستقيم بره. وارى (المؤلف) عدم صحة بعض الكلمات الواردة فى‌المحبر، وقد بادرت (المؤلف) الى اصلاحها، فنجره بدل بجره، ونضره بدل نفره. جاء فى قصة (المنافرة بين عبد المطلب وثقيف) التى وردت‌فى (المنمق) ان الكاهن او القاضى الذى حكم بينهم كان قد اقسم ب (الضياء والظلم)، وقد ورد قسم مشابه فى سورة التكوير: (والليل اذا عسعس، والصبح اذا تنفس) «التكوير:۱۷–۱۸» واقسم فى سورة الواقعة بمواقع النجوم واعتبره امرا عظيما: (فلا اقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون‌عظيم) «الواقعة: ۷۵–۷۶».

الحج و العمرة

تبلغ مكة فى موسم الحج والعمرة اوج حركتها وحيويتها المعنوية، ولقد اجرى الاسلام تغييرات مهمة فى مناسك الحج الجاهلى وآدابه، وجعله واجبا عينيا على كل مسلم مرة واحدة فى حياته ان استطاع اليه سبيلا، والذى ابطله الاسلام من مناسك الحج الجاهلى تلك الامور المتصلة بالاصنام اوالتى لا تليق بالاداب العامة، وحافظ على تلك المراسم التى تؤكد التوحيد والاخلاص للعبادة للّه وحده وتبنى السلام وتشيع الامن العام وترسخ الوحدة بين المسلمين، كما شدد على اقامة المناسك التى من شانها ان تزيل الامتيازات الطبقية او الاقتصادية او العنصرية وتقوى رابطة الاخوة بين المسلمين جميعا، بما فيهم الفقرا والاغنياء، الضعفاء والاقوياء دون فرق بين احد منهم. لما حج النبى (ص) خطب الناس بعرفة وقال (ص): ان اهل الشرك والاوثان كانوا يدفعون من عرفة اذا صارت الشمس‌على رؤوس الجبال كانها عمائم الرجال فى وجوههم، ويدفعون من مزدلفة اذا طلعت الشمس على رؤوس الجبال فانها عمائم الرجال فى وجوههم، وانا لا ندفع من عرفة حتى تغرب الشمس وغسل فطر الصائم، وندفع من مزدلفة غدا ان شاء اللّه قبل طلوع الشمس هدينا مخالف لهدى اهلالشرك والاوثان. [۵۶] .كانت قريش ترى لنفسها امتيازات واحكام خاصة فى الحج، بعبارة اخرى كان لها حجمها الخاص، فهى لا تخرج عن اطار حدود الحرم ولا ترى الوقوف بعرفات جزأ من الحج، بل تراه واجبا على اهل الحل، فقط، وهم اولئك الذين ياتون من خارج حدود الحرم، بينما كان يجب على باقى الناس ان يخلعوا ما عليهم من ملابس ولا يدخلوا فى مناسك الحج الا بعد ان يرتدوا ملابس يشترونها او يستعيرونها من قريش، فى وقت كان القرشيون يؤدون مناسكهم بلباسهم العادى دون تغيير او تبديل. وفى حال عجزهم عن الحصول على ملابس قرشية شرا او اعارة كان عليهم ان يطوفوا عراة كما ولدتهم امهاتهم. وقد شجب البارى جل شانه هذه الفاحشة ونهى عنها فى محكم كتابه الكريم: (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا واللّه امرنا بها قل ان اللّه لا يامر بالفحشاء اتقولون على اللّهما لا تعلمون) «الاعراف: ۲۸». ينقسم العرب فى ادائهم لمراسم الحج الى مجموعتين: مجموعة (الحمس) ومجموعة (الحلة) او اهل الحل، ولكل من المجموعتين اعمالها الخاصة فى الحج، وقد اضاف البعض مجموعة ثالثة سماها (الطلس) وهم الذين يحجون بمناسك بعضها من الحمس وبعضها الاخر من اهل الحل. والحمس‌هم اهل قريش

وقبائل خزاعة والقبائل التى لها صلة ونسب بقريش. وقد استغلت قريش موقعها فى سدانة الكعبة المشرفة، فاتخذت لنفسها امتيازات خاصة، كالتى اشرنا اليها من عدم الوقوف بعرفات والطواف بنفس ملابسهم دون حاجة الى تبديلها كما هو الحال مع اهل الحل، غير انهم الزموا انفسهم التزامات اخرى وشددوا عليها، فاذا نسكوا لم يدخروا لبنا، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه، ولم يجزوا شعرا ولا ـظفرا، ولم يـدهنوا، ولم يمسوا النساء ولا ـ الطيب، ولم يـاكلو الحمـا، ولم يلبسوا فى حجهم وبرا ولا ـ صوفا ولا شعرا، يلبسون الجديـد، ويطوفون بالبيت فى نعالهم لا يطاون ارض المسجد تعظيما له،ولا يدخلون البيوت من ابوابها [۵۷] .كان اكثر العرب يكفون عن الحرب والنزاع فى الاشهر الحرم: ذى القعدة وذى الحجة ومحرم. وقد اتبع هذا التقليد اصلا كما يبدو لوقوع الحج فى هذه الاشهر الثلاثـة، ولبلوغ التجارة ذروتها فى هـذا الموسم من السـنة، ومن الواضـح ان مناسك الحـج تبـدا فى ذى الحجـة، غير ان حركة السوق تكون مع توافـد الزوار وتقـادم الحجيـج فى ذى القعـدة، ولا تنتهى الا بعـد رحيلهم الى اوطانهم. وقـد يمتـد ذلك الى المحرم، ولكى تؤمن الطرق وتمنع الغارات ويشعر الناس بالاطمئنان، فتزدهر التجارة، وينشط السوق، فلا بد من فرض مثل هذا الموسم السلمى. والذى يشعر فيه الزوار بالامان، ويجد فيه التجار المناخ المناسب لنمواسواقهم وتوسع حركتهم التجارية. اما العمرة فموعدها شهر رجب، الذى الحق هو الا ـخر بالاشـهر الحرم، مع ان هنـاك من بين القبائـل العربيـة من لا ـ يؤمن بهـذا الموسم ولا ـ يقيم له وزنـا، كقبيلتى (طىء) و (خثعم) اللتين لا ـ تقيمـان حرمـة للحـج او الكعبـة. كـان النـاس يبـداون تجمعهم فى سوق عكـاظ منـذ الايام الاولى لشـهر ذى القعـدة، ويقيمون هناك عشـرين يوما يقضونها بالبيع والشـرا وتبادل البضائع فى حركـة دائبة حتى يغادروا السوق الى مكان آخر يدعى (مجنة) يمكثون فيه عشـرة ايام، وكان يموج بالحركـة، وتزدهر فيه التجارة، وبعـد انقضاء ذى القعـدة ودخول ذى الحجـة يغادر الناس (مجنـة) ويتجهون الى مكان آخريعرف ب (ذى المجاز) ينشـغلون فيه بالتجارة ايضا حتى ياتى اليوم الثامن او ما يسمونه بيوم التروية، وهو آخر ايـام التجـارة، وفيه يبـدا الاسـتعداد لمغـادرة (ذى المجـاز) الى عرفـة، واول شـىء يقومـون به هو تخزين الميـاه اللازمـة لحملهـا معهم الىعرفات حيث لا ماء هناك، ومن هنا سـمى هذا اليوم بيوم التروية (اى يوم الارتوا من الماء). ومن ثم يشـرع بمناسك الحج ومراسم العبـادة، حيث تلبى كـل قبيلـة تلبيتهـا الخاصـة بهـا، وتردد شـعار الولا ـء لالهتهـا. كانت قريش وباقى العرب تحرم دخول اسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز قبل عقد الاحرام وارتدا الملابس الخاصة به، وبدخول الانسان حالة الاحرام يصبـح فى حالة روحانية خاصة تصده عن ارتكاب التجاوزات والاعتدا على الاخرين، ويستبطن هذا الامر نقطتين مهمتين: الاولى: اعتياد العرب على الاعتدا والغصب والغزو، الامر الـذى تحول الى عادة وسنة من سـننهم، لا يمتنعون عنها الا حينما يبـدا الموسم التجارى السـنوى، وتنشط الاسواق العامة بحركة البيع والشـرا والكسب. الثانيـة: رغم تحول هـذه الحالة اى حالة الاعتدا والغزو الى صـفة عامة لجميع العرب تقريبا، الا انه كان يرفضـها الوجـدان العام ولا يقرها الضـمير الباطنى، لهـذا كانوا ومنـذ القـدم يمتنعون‌عن هـذه الاعمال ويابون ارتكابها عند دخولهم فى حالات دينيـة وروحيـة معينـة. يبـدو ان الـدخول فى حالـة القداسـة الدينيـة (الاحرام) والتجارة كانا توامين، فمن ناحية يطمئن الوجدان الدينى وتكون الاحساسات والمشاعر الروحيـة والمعنوية فى حالة من السـكينة والاسـتقرار، ومن ناحية ثانية تجد التجارة مناخا جيدا من الامن والامان يساعـد على نموها ويوفر للقوافل التجارية طرقا آمنة وسوقا مزدهرة. وبناء على هذا فان هذه الاشـهرالثلاثة المتتالية التى تسـمى الاشـهر الحرم، تمثل قمة الحيوية الروحية وذروة النشاط الاقتصادى والاجتماعى وتكثر فيها الافراح والاحتفالات. لقد اقر الاسـلام هذه الاشـهر الحرم، ووجد فيها فرصة جيدة لتاكيد اهتمامه بالامن وحرصه على رفاه الناس واستقرارهم، ثم‌عمل على تهذيب مناسك الحج ممـا علق بهـا من مظـاهر الشـرك وشوائب الجاهليـة، وفى الوقت نفسه اقر مـا فيه من طقوس تعود بالنفع المادى والمعنوى على الناس، واضاف اليه مناسك ترقى به من الجانب الروحى وتضفى عليه مسحة عبادية وروحية خاصة. فمن التقاليد التى نهى عنها الاسلام مسالة (الصـرورة) وتطلق‌على الحجـة الاولى للشـخص ويقال لصاحب هـذه الحجـة (الصـرور). اذ يبدو ان العرب قد اعتادوا فى الجاهلية على ترك المجرم‌حتى لو ارتكب ذنبـا عظيما كالقتل، وعـدم التعرض له فى الحرم المكى فيما لو ادعى انه صـرور ولـم يسـبق له ان حـج او تعرف‌على ما يجب اجتنابه فى موسم الحج. لقد نهى الرسول (ص) عن ذلك، وقال: «لا صرورة فى الاسلام»، ودعا الى معاقبةالمذنبين

والاقتصاص منهم وعدم السماح لهم بارتكاب ما من شانه انتهاك حرمة الحرم المكى.وقال البعض: ان الصرورة تعنى الرهبانية واعتزال‌النساء. [۵۸] .

سوق عكاظ

يقع سوق عكاظ مسير ثلاثة ايام بلياليها عن مكة، ويفتح هذا السوق ابوابه فى شهر ذى القعدة من كل عام وقيل فى شوال غير ان الرواية الاولى اقرب الى الصحة لما قيل من انه يفتح فى الاشهر الحرم. ويعتبر سوق عكاظ من اهم الاسواق السنوية فى شبه الجزيرة العربية على الاطلاق، فلو فتح فى غير هذه الاشهر لتعرض الى الغزو والنهب والسلب. قال ياقوت فى ذيل ترجمته لعكاظ: «قال الاصمعى: عكاظ نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثيرا، وبه كانت ايام الفجار، وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون اليها». وهذا دليل على ان الحج والتجارة كانا يقترنان عند عرب الجاهلية، ففى ظل الحج وحرمته الدينية يتمتع الاقتصاد بالامن والازدهار، وفى ظل الاقتصاد يتوجه الناس الى المعابد واماكن الزيارة، وفضلا عن كون عكاظ اجتماعا دينيا واقتصاديا، فهو منتدى لاشاعة الثقافة والادب والمسائل السياسية، فالقبائل تتحدث عن مناقبها ومفاخرها، والشعرا ينشدون اشعارهم، وتعقد هناك معاهدات الصلح والسلام. «كانوا ينزلون دومة الجندل اول يوم من ربيع الاول، فيقيمون اسواقها بالبيع والشرا والاخذ والعطاء، وكان يعشوهم فيها اكيدر وهو ملكها وربما غلب على السوق كلب، فيعشوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر، ثم ينتقلون الى سوق هجر من البحرين فى شهر ربيع الاخر فتكون اسواقهم بها، وكان يعشوهم فى هذا السوق المنذر بن ساوى احد بنى عبداللّه بن دارم وهو ملك البحرين ثم يرتحلون نحو عمان من البحرين ايضا فتقوم سوقهم بها، ثم يرتحلون فينزلون ارم وقرى الشحر من اليمن فتقوم اسواقهم بها اياما، ثم‌يرتحلون فينزلون عدن من اليمن ايضا فيشترون منه اللطائم وانواع الطيب، ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء، فتقوم اسواقهم بها، ويجلبون منها الخرز والادم والبرود وكانت تجلب اليها من معافر، ثم يرتحلون الى عكاظ فى الاشهر الحرم، فتقوم اسواقهم ويتناشدون الاشعار ويتحاجون، ومن له اسير سعى فى فدائه، ومن له حكومة ارتفع الى من له الحكومة، وكان الذى يقوم بامر الحكومة فيها من بنى تميم، وكان آخر من قام بها منهم الاقرع بن حابس التميمى، ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج، ثم يرجعون الى اوطانهم وقد حصلواعلى الغنيمة، وآبوا بالسلامة». [۵۹] .وكان ملك الحيرة يبعث الى هناك قوافل تجارية، تحمل معها اكثر ما تحمل الطيب وخاصة المسك، ويبدو ان المسك ياتى من طريق التبت او افغانستان او من بلاد ما ورا النهر، وينتقل من فارس الى الحيرة وشبه الجزيرة العربية، ومن هناك يشترى الادم والحرير والوكاء [۶۰] والحذا والبرود من العصب والوشىء والمسير [۶۱] والعدنى [۶۲] .وذكرالحرير من جملة هذه البضائع المشتراة، يبدو انه اشتباه، لان الحرير كان يصدر من فارس والصين الى الروم والمغرب. وكانت احدى هذه القوافل قد تسببت فى حرب طاحنة هى حرب الفجار. لم يكن عكاظ مجرد سوق لتبادل البضائع، وانما كان ايضا ناديا ثقافيا وادبيا عاما، يلقى فيه الشعرا آخر قصائدهم، ويتصيد فيه الشبان عشيقاتهم الجميلات من فتيات القبائل العربية المختلفة، وقد ادت احدى حالات العشق هذه الى نشوب احدى حروب الفجار، وكان من بين القبائل العربية من لا تقيم اية حرمة لهذه الاسواق ولا ترعى فيها الا ولا ذمة، فيسبب ودخولها حالة من الهلع وفقدان الامن والاستقرار، وقد اطلق على هؤلاء اسم «المحلون»، بينما كانت هناك طائفة من العرب وظيفتها حماية المظلوم وردع الظالم والحيلولة دون اراقة الدماء، ودعى هؤلاء ب (الذادة المحرمون).

ايام الحج

يبدو من كلام القلقشندى فى صبح الاعشى ان الاسفار التجارية للعرب كانت تقترن دائما بموسم الحج والزيارة، وتبدا هذه الاسفار من الشام فى شهر ربيع الاول، وتنتهى الرحلتان معا (رحلة الحج، ورحلة التجارة) فى شهر ذى‌الحجة فى الحجاز. ونظرا لارتباط التجارة

بالحج وحصولهما معا فى موسم واحد، فلا بد ان يكون محل هذا الموسم محلا ثابتا من السنة، ومع الالتفات الى ان البضائع يجب ان تعرض فى الاسواق فى فصل معين من السنة، فلا بد ان نقول ان الاسفار التجارية حول شبه الجزيرة العربية تبدا فى فصل معين من السنة الشمسية، وتنتهى فى فصل معين ايضا من هذه السنة، ويمكننا القول بالالتفات الى كلمة ربيع الاول ان هذا السفر يبدا فى الربيع وينتهى فى آخر الخريف. وبناء على ذلك فان ايام الحج واقامة هذه الاسواق الشهيرة كانت فى اواخر الخريف واوائل الشتاء، وهذا شيء طبيعى بالنسبة الى المناخ فى شبه الجزيرة العربية، ففصل الخريف هو الفصل الذى تنضج وتجنى فيه اهم الثمار وهى التمور، وبما ان القبائل العربية تجتمع فى موسم الحج والتجارة فى سوق عكاظ، فينبغى ان يكون تجمعها هذا فى وقت مناسب من حيث المناخ لاقامة هذه المراسم العبادية والقيام بالنشاط التجارى المطلوب واقامة حفلات الفرح والابتهاج. ولم تحظ مسالة المناخ وارتفاع درجات الحرارة بالاهمية ذاتها بالنسبة الى قوافل التجارية القادمة من بلاد الشام وسواحل الخليج الفارسى والبحر العربى، باتجاه اليمن، ومن هناك الى الحجاز لانها اعتادت السفر والفته، ولان اقصى ما يمكن ان تصله درجة الحرارة فى صنعاء (۲۸ل) فوق الصفر صيفا، كما ان شهرى حزيران وتموز هما اشد الشهورحرارة هناك [۶۳] .اما الشهور العربية فهى شهور قمرية، والسنة عبارة عن (۱۲) شهرا قمريا، وتقل عن السنة الشمسة بعشرة ايام واحدى وعشرين ساعة واثنتى عشرة دقيقة. وبهذا يصبح الفرق بين التاريخ القمرى والتاريخ الشمسى شهرا واحدا تقريبا فى كل ثلاث سنوات. وبعبارة اخرى تعادل كل ثلاث سنوات شمسية ثلاث سنوات قمرية وشهرا واحدا. وبناء على ما ينقله ابو ريحان البيرونى، [۶۴] فان السنة المعتبرة لدى الاقوام السامية (العبرانيين والصائبة والحرانيين) هى السنة الشمسية، اما الاشهر فهى بحساب السنة القمرية، لانهم كانوا يحسبون الايام والاحتفالات والاعياد وفقا للسنة القمرية، ولكنها تنطبق مع فصول السنة الشمسية، وذلك لانهم كانوا يكبسون سبعة اشهر قمرية فى كل (۱۹) سنة قمرية، لكى تنطبق ايام الاعياد والمناسبات الدينية الموزعة وفقا لاشهر القمرية على فصول السنة الشمسية. وكان العرب يكبسون الاشهر بما يقرب من هذا، وقد اخذوا هذا الحساب عن اليهود، وجروا عليه لما يقرب من (۲۰۰) سنة قبل الاسلام، وكانوا يكبسون (۹) اشهر فى كل (۲۴) سنة بدلا من (۷) اشهر فى كل (۱۹) سنة، وبذلك تنطبق عندهم السنون القمرية مع فصول السنة الشمسية دون تقديم او تاخير، وكان عمل النسيئ او الكبيسة يؤديه افراد متمرسون من قبيلة كنانةيعرفون ب (القلمس) [۶۵] .وفى موضع آخر من الاثار الباقية، [۶۶] يقول: كان العربفى الجاهلية، يعملون بالاشهر القمرية كما هى عليه بعد الاسلام، الا انهم كانوا يكبسونها، فكان حجهم يدور علىالفصول الاربعة، بسبب الكسر المتبقى من جرا الفرق بين السنة القمرية والسنة الشمسية (وهو (۱۰) ايام و (۲۰) ساعة). ومن ثم ارادوا ان يكون الحج موافقا لموسم المحصولات الزراعية والمنتجات الحيوانية كالجلود وغيرها، فجعلوا موسم الحج ثابتا على مدار السنين وذلك لانهم كانوا ينسئون الشهر، حيث يضيفون كسور السنة القمرية الى نفس السنة القمرية بعد مضى شهر واحد من السنة الشمسية، وكان المتولى لهذا العمل هو احد افراد قبيلة كنانة من (القلامس)، حيث يخطب فى موسم الحج معلنا اضافة هذا الشهر الى السنة، ويسمى الشهر الذى يليه بالاسم نفسه، فاذا اضيف شهر الى السنة القمرية فى اول السنة فيسمى الشهر المضاف محرما، والشهر الذى بعده، والذى هو صفر بالحقيقة، يسمى ايضا محرما. وقد توافق العرب فى الجاهلية على هذا العمل، وكانوا يسمونه النسيء، اى التاخير او الاضافة، فالنسيء الاول كان فى المحرم، ففى سنة النسيء الاولى ذات ال (۱۳) شهرا يكون محرمان متتابعان، فيصير صفر محرما وربيع الاول صفرا وهكذا يستمر النسيء حتى يقع المحرم فى ايامه الحقيقية، ومن ثميبداون بالنسيء، ويستمد دوران الشهر القمرى على فصول السنة الشمسية الاربعة حتى يقع فى ايامه الحقيقية (۳۲) سنة. وايام هجرة الرسول (ص) كان النسيء قد وصل الى شعبان، اى ان شعبان الواقعى جعلوه محرما اى اول اشهر السنة، وجعلوا رمضان الواقعى صفرا، فلبث رسول اللّه (ص) عشر سنين، حتى حلت حجة الوداع، فوافقت فى ذى الحجة، ولذلك قال (ص): «الا وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق اللّه السماوات والارض، السنة اثنا عشر شهرا، منها اربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان»، اراد (ص) ان يقول ان الاشهر الحرم رجعت الى مواضعها وعاد الحج الى ذى الحجة وبطل النسيء. هذا ما ذكره ابو ريحان البيرونى، وهو الاقرب الى الصحة، بل هو الاصح فى راينا والاكثر واقعية

من جميع الارا التى ذكرها المحدثون والمفسرون واللغويون والرواة فى معنى (النسىء)، فقد اوضح ابو ريحان ان كل اربع وعشرين سنة كانت هناك سنة كبيسة من تسعة اشهر، وكان شهر شعبان من السنة الاولى للهجرة هو شهر محرم واقعا، وكان شهر رمضان من تلك السنة هو الشهر التاسع (اى الاخير) من السنة الكبيسة التى انتهت بها دورة الاربعة والعشرين عاما، وكان يجب ان تمر ثمانية اعوام اخرى تقريبا حتى يعود محرم الى موقعه الاصلى من السنة. ولهذا اعلن الرسول (ص) فى السنة العاشرة للهجرة بعد اتمامه لحجة الوداع ان الاشهر القمرية عادت الى مواقعها الاصلية ولا حاجة للنسىء مستقبلا. وقد ورد فى القرآن الكريم ما يؤيد الراى الذى ذهب اليه البيرونى، قال تعالى: (ان عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهرا فى كتاب اللّه يوم خلق السموات والارض..) «التوبة: ۳۶». وجاء هذا التاكيد على ان عدة الشهور (اى شهور السنة) عنداللّه اثنا عشر شهرا، لينفى ما جرت عليه العادة من جعل السنة الكبيسة ثلاثة عشر شهرا. لقد اكد البارى جل شانه على ان السنة تتكون من اثنى عشر شهرا لا اكثر ولا اقل، ونفى ان تكون السنة ثلاثة عشر شهرا، والنسىء او الكبيسة، طبقا لقول البيرونى، هو اضافة شهر واحد على الاثنى عشر شهرا، اما الاشهر الحرم فهى اربعة فقط، ليتم نفى الشهر الخامس من الاشهر الحرم الذى سيتحقق فيما لو اقرت السنة الكبيسة فيتكرر محرم فيها مرتين. وجاءت الاية التالية لتقول: (انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرماللّه) «التوبة: ۳۷». وتوضح الاية ان النسىء هو زيادة شهر واحد على اشهر السنة الاثنى عشر، جاء (فى لسان العرب ذيل كلمة النساء): (النسىء: شهر كانت العرب تؤخره فى الجاهلية). اى كما نصت عليه الاية الشريفة (زيادة فى الكفر) فقد جرى العرب ايام الجاهلية على هذه السنة (يضل به الذين كفروا) فبزيادتهم هذا الشهر يزدادون ضلالا، اذ يحلون احد الاشهر الحرم عاما ويحرمونه عاما فى اشارة الى السنة الكبيسة (ليواطئوا عدة ما حرم اللّه) ليجعلوا الاشهر الحرم متوافقة مع مصالحهم واهوائهم من خلال النسىء، وبعبارة اخرى ان من شان ذلك النظام (النسىء) ان يغير مواقع الشهور فى السنة، فيصبح شهر ذى الحجة مثلا حراما مرة وحلالا اخرى، وهو الشهر المقدس وشهر الحج والعبادة، لينسجم مع مصالحهم التجارية من خلال انطباقه على فصول السنة الشمسية، لهذا اكتسب امر الغاء النسىء اهمية قصوى من الناحية الدينية والاجتماعية، فببركته لم يعد الحج مقترنا بالتجارة، وخلص مماعلق به من شؤون الدنيا ومشاغل الحياة المادية، ولم تعد ايامه تحدد فى موعد ثابت، وهو الموسم الذى تزدهر فيه التجارة وتعرض فيه المحاصيل الزراعية والصناعية ويكثر فيه البيع والشرا، وعلى الحجاج من الان فصاعدا ان يقصدوا مكة ويشدوا الرحال اليها من اجل الحج وتادية مناسكه واقامة هذه الشعيرة الالهية ليس الا، وبناء على هذا تم اقفال سوق عكاظ الى الابد، واكتسب امر الغاء النسىء اهميته الاجتماعية من خلال اخراج العرب من حالة البداوة والترحال الى حالة الاستقرار والتحضر، اذ لم تعد التجارة شانا موسميا يمارسه اهل البادية فى موسم معين من السنة ويتركونه ما بقى منها، لقدا صبح على القبائل المتنقلة ان تمارس التجارة على مدار السنة وفى جميع الفصول. وكان ذلك من الانجازات المهمة التى حققها الاسلام فى حياة العرب وفتح لهم آفاق التمدن، وعلمهم نظم الحياة وكيفية ادارة شؤون المدن الكبرى فى آسيا وافريقيا.

اديان اخرى فى مكة

ليس لدينا معلومات عن وجود قبائل فى مكة كانت قد اعتنقت اليهودية، فى الوقت الذى كانت توجد مثل هذه القبائل بكثرة فى يثرب واليمن واطرافهما، كما كان هناك من القبائل العربية من دانت بالديانة اليهودية، وسياتى الحديث فى محله عن خصومات هذه القبائل وصراعها مع الرسول (ص)، وكان فى مكة بعض المسيحيين الذين لجاوا اليها من بلاد الروم والحبشة وبلدان اخرى. قال اليعقوبى: «تنصر من احياء العرب قوم من قريش من بنى اسد بن عبد العزى، منهم: عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى، وورقه بن نوفلبن اسد» [۶۷] .وتذكر بعض المصادر التاريخية ان هناك قوما من قريش كانواقد تزندقوا فقالوا بالثنوية. ويقصد بالزنادقة قديما (المانويين)، ثم تحولت الكلمة الى مصطلح يطلق على كل من خالف الدين الاسلامى. جاء فى المحبر ذكر بعض الاسماء (من قريش) التى اشتهر اصحابها فى عدائهم لرسول اللّه (ص) وعبر عنهم ب (زنادقة قريش)، من بين هؤلاء ابو سفيان بن حرب. [۶۸] غير ان ذلك

یتنافی مع الشعار الذی رفعه ابو سفیان یوم احد حیث صاح باعلی صوته: «اعل هبل» الا اذا قلنا ان ابا سفیان اطلق ذلک الشعار باعتباره ممثلا لقوم کانوا یعبدون الاصنام وهم قریش ولا یعبر بذلک عن معتقداته المانویة. ومن الزنادقة او المانویین الذین وردت اسماؤهم فی المحبر: العاص بن وائل السهمی، والد عمر بن العاص، والولید بن المغیرة المخزومی، والد خالد بن الولید. وجاء فی المحبر ان المانویة دیانة اقتبسها اهل قریش من نصاری الحیرة. علی ان المانویة غیر النصرانیة، وهی دیانة مستقلة تماما عن النصرانیة، وقد تکون اوجه التشابه بین الدیانتین فی قضایا الزهد والعبادة، هی التی سببت هذا الخلطبین الاثنتین، خصوصا ان بعض الفرق فی العراق کانت قد اخذت عقائدها من المانویة والمسیحیة، الامر الذی اوقع بعض المؤرخین فی مثل هذا الالتباس، وقد استوطن الحیرة قوم کان فیهم المسیحیون وعبدة الاصنام المشرکون وربما المانویون ایضا. یقول ابن قتیبة: «وکانت الزندقة فی قریشاخذوها من الحیرة». [۶۹] .ویضیف ابن قتیبة فی الصفحة نفسها: ان جماعة من تمیم کانت تدین بالدیانة الزرداشتیة، وقد عقد صاحب المنمق فصلا خاصا لمن کانت امهاتهم من الیهود من ابناءقریش. [۷۰] .وبمطالعة هذا الفصل الذی افرده المؤلف لهذا الغرض، یتضحعدد القرشیین الذین تزوجوا یهودیات من یهود یثرب وخیبروغیرهم. لکن یبدو ان احدا من هؤلاء الابناء لم یتابع امه فی دینها، بل بقوا علی دیانة آبائهم.

مراسم الزواج

کانت العلاقة بین الزوج والزوجة، طبقا لما جاء فی المحبر، [۷۱] علی اربعة انواع: ۱- امراة تخطب فتزوج. ۲- امراة یکون لها خلیل یختلف الیها، فان ولدت منه قالت: «هو لفلان»، فیتزوجها بعد ذلک. ۳- امراة ذات رایة یختلف الیها، فان جاء اثنان فوافیاها فی طهر واحد، الزمت الولد واحدا منهما، وهذه تدعی المقسمة. ۴- رجل یقع علی امة قوم، فتحمل منه ویکون لها ولد، فان رغب فی ابتیاع ذلک الولد فله ان یدعیه، ویکون له فی هذه الحالة حق شرا الامة واتخاذها زوجة له. وکانوا یخطبون المراة الی ابیها او اخیها او عمها او بعض بنی عمها، وکان یخطب الکفء الی الکفء، فان کان احدهما اشف من الاخر فی الحسب ارغب له المهر، وان کان هجینا خطب الی هجین فزوجه هجینة مثله، فیقول الخاطب اذا اتاهم: «انعموا صباحا». ثم یقول: «نحن اکفاؤکم ونظراؤکم، فان زوجتمونا فقد اصبنا رغبة واصبتموها، وکنا لصهرکم حامدین، وان رددتمونا لعلة نعرفها، رجعنا عاذرین». وان کان قریب القرابة منه او من قومه قال ابوها او اخوها اذا حملت الیه: «ایسرت واذکرت ولاـ آنثت! جعل اللّه منک عددا وعزاوجلدا، احسنی خلقک، واکرمی زوجک، ولیکن طیبک الماء»، واذا زوجت فی غربة قال لها: «لا ایسرت ولا اذکرت، فانک تدنین البعدا، وتلدین الاعدا، احسنی خلقک، وتحببی الی احمائک، فان لهمعلیک عینا ناظرة واذنا سامعة، ولیکن طیبک الماء». [۷۲] .ومن هنا تتبین الاهمیة القصوی التی کان یولیها العرب لشرف الشخص وحسبه ونسبه خصوصا عند تزویجه، والاهم من ذلک ما اشرنا الیه سابقا الانتماء القبلی ومنزلة القبیلة التی هی اهم وحدة اجتماعیة فی المجتمع العربی الجاهلی آنذاک. وغالبا ما کان یعرف الاشخاص بقبائلهم کما یعرف الافراد حالیا باوطانهم وجنسیاتهم. ویظهر من خلال هذا الاستعراض ماکانت علیه المراة من مکانة اجتماعیة متردیة لا ترقی الی مستوی الرجل بایة حال من الاحوال، لذا کان هم الاباء والاقرباء جمیعا ان تلد بناتهم ذکورا لا اناثا، فبهؤلاء الذکور تنال القبیلة عزها وترفها، وبهم فقط یفتخر الاباء لا بالبنات مهما کثرن، علما ان التفاخر بالابناء والاباء کان من التقالید المعروفة التی درج علیها العرب فی الجاهلیة حتی صارت تقلیدا من تقالیدهم الدینیة. لقد جاء فی القرآن الکریم ان العرب کانوا یذکرون مفاخر آبائهم، ویعودون الی التفاخر بها بمجرد اتمامهم لمناسک الحج، وکان یدعوهم لان یذکروا اللّه کذکرهم آباءهم او اشد ذکرا، (فاذا قضیتم مناسککم فاذکرواالّله کذکرکم آباءکم او اشد ذکرا...) «البقرة: ۲۰۰». لقد جرت العرب علی عدم توریث النساء شیئا مما ترک الاباء والابناء، وکان ذلک من بین المظاهر الکثیرة التی تدل علی احتقار المراة وهبوط درجتها فی السلم الاجتماعی الجاهلی، فالذکور وحدهم الذین یرثون لانهم وحدهم القادرون علی رکوب الخیل ومهاجمة الاعدا وجلب السلب والنهب، وهم الذین یردون کید الاعدا عن القبیلة ویشیدون امجادها ومکارمها ومفاخرها، هؤلاء هم وحدهم الذین یرثون آباءهم، اما الصغار، حتی من الذکور، فلا نصیب لهم من الارث قط.

جاء فى بعض المصادر التاريخية ان اول شخص خرج على هذا التقليد الجاهلى فورث ابنته حصة من ماله تساوى نصف ماورثه لابنه هو (ذو المجاسر اليشكرى). هذا وقد جعل الاسلام للبنات والامهات نصيبا من الارث. وفى الوقت الذى كرم فيه الاسلام المراة شجب الاعراف الجاهلية القاضية باحتقارها وحرمانها موقعها وحقوقها فى الحياة: (واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه فى التراب الا ساء ما يحكمون) «النحل: ۵۸–۵۹». فى الاية الشريفة اشارة الى عادة (واد البنات) التى اشتهرت لدى العرب قبل الاسلام، فكان يلجا بعض الاباء الى دفن اولادهم وخاصة البنات وهم احياء، وتشير الاية الشريفة هنا الى الاسباب الاجتماعية لذلك، والتى تتلخص بالخوف من العار الذى يلحق بالاب ومن ثم بالقبيلة اذا ما وقعت البنت بالاسر واخذتها القبائل الغازية معها، كما يوجد هناك سبب آخر كان هو الاخر يدفع الاباء الى دفن اولادهم، حتى الذكور منهم، وقتلهم والتخلص منهم وهو الخوف من الفقر والجوع. لقد شجب القرآن الكريم عملهم القبيح هذا، رفض اسبابه قائلا: (ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم) «الانعام: ۱۵۱». ويقول فى آية اخرى: (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطا كبيرا) «الاسرا: ۳۱»، ويشير فى سورة التكوير الى دفن البنات احياء، ويهدد مرتكبى هذا العمل بقوله عز وجل: (واذا الموؤدة سئلت، باى ذنب قتلت) «التكوير: ۸–۹». واشتهر الطلاق عند العرب، وكان من يطلق زوجته ثلاث مرات،لا يستطيع العودة اليها بعد. [۷۳] .وكان باستطاعة النساء ان يتزوجن بعد الطلاق مباشرة، وليس هناك من عدة يلتزم بها، ولهذا كانت تحدث بعض المشاكل نتيجة الاشتباه فى آباء الاولاد الذين يولدون فى بيت الزوج الثانى، ولا يعلم بالدقة من هو الاب الحقيقى لهم، هل هو الزوج الاول ام الزوج الثانى؟. [۷۴] وقد استطاع الاسلام بتشريعه لعدة النساء حل هذه المشكلة الاجتماعية جذريا. اما المراة التى يتوفى عنها زوجها، فكان عليها ان تعتدسنة كاملة، ولا يسمح لها بالزواج قبل مرور سنة. [۷۵] .وكانت العرب لا تنكح البنات ولا الامهات ولا الاخوات ولا الخالات ولا العمات. وكانت تزوج نساء آبائها، وهو اشنع ما كانوا يفعلون، فيقال للذى يخلف على امراة ابيه (الضيزن). وكان الرجل اذا مات قام اكبر ولده، فالقى ثوبه على امراة ابيه، فورث نكاحها، فان لم يكن له حاجة فيها، تزوجها بعض اخوته بمهر جديد، وقد فرق الاسلام بين رجال ونساء آبائهموهم كثير. [۷۶] .وكانوا يجمعون بين الاختين، فلما جاء الاسلام نهى عن ذلك وحرمه. وكانوا لا يعطون البنات والنساء ولا حتى الصبيان شيئا من الميراث، ولا يورثون الا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل. ثم ذهب عرب الجاهلية الى ابعد من ذلك حيث جعلوا للورثة الحق فى تزويج المراة او عدم تزويجها، بل كان الورثة يرثون نكاح النساء كما يرثون المال، الى ان انزل اللّه تعالى فى ذلك قرآنا: (ىآ ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن...) «النساء: ۱۹».

المساعاة

وهى احد الاعراف المشهورة فى الجاهلية حيث لم يكن العرب يجدون مانعا من ان يضع احدهم ما عنده من الاماء تحت طلب الرجال مقابل اجر معين ياخذه لنفسه، ولا تكون المساعاة الا فى الاماء لانهن كن يسعين على مواليهن فيستطعن ان يجمعن ما يدفعن به الضرائب التى كانت عليهن، وفى حديث عمر انه اتى بنساء او اماء ساعين فى الجاهلية، فامر باولادهن ان يقوموا على آبائهم ولا يسترقوا. ومعنى التقويم ان تكون قيمتهم على الزناة. فيكونوا احرارا، وتلحق انسابهم بآبائهم الزناة. وكان عمر يلحق اولاد الجاهلية بمن ادعاهم فى الاسلام على شرط التقويم، واذا كان الوطء والدعوى جميعا فى الاسلام فدعواه باطلة والولد مملوك. قال ابن الاثير: واهل العلم من الائمة على خلاف ذلك، ولهذا انكروا باجمعهم على معاوية فى استلحاقه زياد ابن ابيه. فقد كان ابو سفيان قد وطىء امه فى الجاهلية، وتمت الدعوى(اى دعوى البنوة لابى سفيان) فى الاسلام. [۷۷] .وقد جاء فى المحبر: ومن سنتهم انهم كانوا يكسبون بفروج امائهم، وكان لبعضهن راية منصوبة فى اسواق العرب، فياتيها الناس فيفجرون بها، فاذهب الاسلام ذلك واسقطهفيما اسقط، ولهن اولاد، ونسل كثير معروف. [۷۸] .وقال ابن قتيبة فى المعارف: ان عبداللّه بن جدعان من بنى تيم من قبيلة قريش كانت له اماء يشتغلن

فى (المساعاة) وكان يبيع اولادهن.

الشغار

وهو احد انواع النكاح التى كانت شائعة عند العرب قبل الاسلام، وصورته ان يقوم ولى المراة او ابوها بتزويج ابنته اومن تقع من النساء تحت ولايته لرجل يقوم هو الاخر بتزويجه ابنته او غيرها ممن تقع تحت ولايته بدون مهر لكلتا الزوجتين، فى عملية اشبه ما تكون بعملية التبادل المعروفة فى البضائع، وقد نهى الاسلام عن نكاح الشغار، غير ان بعض الفقهاء لم يفهم من هذا النهى تحريم لهذا النوع من الزواج، وانما قال بجوازه، اما المهر فباطل، وبطلان المهر لا يوجب فساد النكاح. هذا وقد اورد البخارى حديثا فى صحيحه، يتضمن نهياصريحاعن نكاح الشغار. [۷۹] .

البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحامى

ومما اعتادت عليه العرب فى الجاهلية ودرجت عليه ثم جاءالاسلام فنهى عنه: البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى، والسبب الذى دعا الاسلام الى شجبها والنهى عنها هو ارتباطها بالشرك وعبادة الاوثان، فقيل: «ان اهل الوبر كانوا يقطعون لالهتهم من اموالهم من اللحم، واهل المدر يقطعون لها من الحرث، فكان مما يجعل اصحاب الوبر ان الناقة اذا نتجت خمسة ابطن، عمدوا الى الخامس ما لم يكن ذكرا، فشقوا اذنها، فتلك البحيرة. ولا يجز لها وبر، ولا يذكر عليها ان ركبت اسم اللّه، ولا ان حمل عليها شىء، وكانت البانها للرجالدون النساء». [۸۰] .واما اهل المدر والحرث، فكانوا اذا حرثوا حرثا او غرسواغرسا، خطوا فى وسطه خطا فقسموه اثنين، فقالوا «ما دون هذا الخط لالهتهم، وما ذراه للّه» فان سقط فيما جعلوا لالهتهم شىء مما جعلوه للّه عز وجل اقروه وتركوه، وان سقط مما جعلوه لالهتهمشىء فيما جعلوه للّه تبارك اسمه ردوه». [۸۱] .والبحيرة ماخوذة من كلمة بحر: (وهى الناقة اذا شقت اذنها)، وجاء فى لسان العرب انها الناقة او الشاة التى انجبت عشرة بطون. ومثل هذه الناقة تكون موضع احترام العرب، فلا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها، ولا يشرب لبنها الا المنيف، ولا يمنعها احد من الدخول فى اى مرتع شاءت، كما حرموا على النساء اكل لحمها، وجعلوا لها علامة تميزها عن غيرها بان شقوا اذنها. وقال بعضهم: انها الناقة التى انجبت خمسة بطون آخرها انثى، هذا وقد وردت تعريفات اخرى للبحيرة فى كتب اللغة والتفاسير والاخبار، تتفق جميعها على ان البحيرة لا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها، ولا ياكل من لحمها الا بعد ان تكون حان اجلها، وقال بعضهم بتحريم لحمها ولبنها على النساء. اما السائبة من الابل فهى التى تطلق عادة بعد نيل الشفاء اولتفريج هم كبير او للنجاة من المصيبة الكبرى والفتنة الشديدة، حيث تسيب ولا يركب ظهرها بعد هذا ابدا، وهناك تعاريف اخرى ذكرت فى هذا المجال. اما الوصيلة فما ورد من اقوال فى باب البحيرة، ورد مثله تقريبا فى تعريف الوصيلة، ومن هذه الاقوال ما جاء فى (لسان العرب مادة وصل): ان الوصيلة: هى الشاة التى ولدت سبعة ابطنعناقين عناقين، فان ولدت فى السابع عناقا قيل: وصلت اخاها فلا يشرب لبن الام الا الرجال دون النساء، وان كانت انثى تركت فى الغنم، وان كانت انثى وذكرا قالوا: وصلت اخاها فلم يذبح، وكان لحمها وقيل لبنها حراما على النساء. وقيل: هى الشاة التى تلد سبعة ابطن، عناقين عناقين، فان ولدت فى الثامنة جديا وعناقا قالوا: «وصلت اخاها»، فلايذبحون اخاها من اجلها، ولا يشرب لبنها النساء، وتجرى مجرى السائبة. اما الحامى فهو الفحل من الابل يضرب الضراب المعدودة قيل: عشرة ابطن، فاذا بلغ ذلك قالوا: «هذا حام»، اى حمى ظهره، فيترك فلا ينتفع منه بشىء، ولا يمنع من ماء ولا مرعى.وقيل: الحامى من الابل، الذى طال مكثه عندهم. [۸۲] .وقد نهت الاية (۱۰۳) من سورة المائدة عن هذه المسميات والمراسم التى وضعت لها لما تضمنته من معانى الشرك والارتباط بعبادة الاصنام، قال تعالى: (ما جعل اللّه من بحيرة ولا سآئبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على اللّه الكذب واكثرهم لا يعقلون). وقال تعالى: (وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء...) «الانعام: ۱۳۹». وقد ادانت الاية (۱۳۶) من سورة الانعام صورة اخرى من صور شركة الاوثان للّه فى

المحاصـيل الزراعية (وجعلوا للّه مما ذرا من الحرث والانعام نصـيبا فقالوا هذا للّه بزعمهم وهذا لشـركائنا فما كان لشـركائهم فلا يصل الى اللّه وما كان للّه فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون).

الازلام

فى نهى اللّه تعالى فى الايـة الثالثة من سورة المائدة عن اتخاذ الازلام كوسـيلة يلجا اليها لايقاع القسـمة واجرا القرعة وما الى ذلك من امور اعتاد عليها العرب قبل الاسـلام حيث قال تعالى: (... وان تستقسـموا بالازلام..) «المائـدة: ۳» والازلام عبارة عن اسـهم من الخشب ذات رؤوس مدبب وسـطوحها ملساء، تكتب عليها كلمات بعضـها يدعو الى العمل وبعضـها الاخر يحذر منه وينهى عنه. قال الازهرى: «الازلام كانت لقريش فى الجاهليـة، مكتوب عليها امر ونهى، وافعل ولا تفعل، قـد زلمت وسويت ووضـعت فى الكعبـة يقوم بها سدنة البيت، فـاذا اراد رجـل سـفرا او نكاحـا، اتى السادن فقال: اخرج لى زلما، فيخرجه وينظر اليه، فاذا خرج قـدح الامر مضـى على ما عزم عليه، وان خرج قـدح النهى قعـد عمـا اراده، وربمـا كـان مع الرجـل زلمـان وضـعهما فى قرابـة، فـاذا اراد الاسـتقسام اخرج احـدهما». ويعتقدون انهم يتوصلون ببركة الزلم والسادن الى راى الاله. ولقد نهى عنها القرآن الكريم باعتبارها مظهرا من مظاهر الشرك.

الميسر

ورد النهى عن الميسر فى الاية (۹۰) من سورة المائدة التى شملت عن الخمر والانصاب والازلام، وقد اعتبرت هذه المنهيات رجسا من عمل الشـيطان ما وحملت الاية ۹۱ من السورة الشـريفة نفسـها على الميسـر مرة اخرى لانه يورث العـداوة والبغضاء بين الناس بواسـطة الشـيطان: (انما يريد الشـيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسـر..). والميسر نوع من القمار، يقول اليعقوبى: ان العرب كانت اذا كان الشـتاء ونالها القحط وقلت البان الابل، اسـتعملوا الميسـر، وهى الازلام، وتقامروا عليها، وضـربوا بالقـداح، وكانت قداح الميسـر عشـرة، سـبعة منها لها نصب، وثلاثـة لا انصب لها، فالسـبعة التى لها انصب هى: الفذ وله جزء، والتوام وله جزآن، والرقيب وله ثلاثة اجزا، والحلس وله اربعة اجزا، والنافس وله خمسة اجزا، والمسـيل وله سـتة اجزا، والمعلى وله سـبعة اجزا، والثلاثة التى لا انصـب لهـا اغفـال ليس عليهـا اسم يقـال لهـا: المنيـح، والسـفيح، والوغـد. وكانت الجزور تشترى بما بلغت ولا ينقـد الثمن، ثم يـدعى الجزار فيقسـمها عشـرة اجزا، فاذا قسمت اجزاؤها على السوا، اخذ الجزار اجزاه وهى الراس والارجل، واحضرت القداح العشرة، واجتمع فتيان الحى، فاخـذت كل فرقـة على قـدر حالها ويسارها وقدر احتمالها، فياخذ الاول الفذ وهو الذى فيه نصـيب واحد من العشـرة اجزا، فاذا خرج له جزء واحـد اخـذ منالجزور جزءا، وان لم يكن يخرج له غرم ثمن جزء منالجزور، وياخـذ الثـانى التوام، وله نصـيبان من اجزا الجزور، وهكـذا سائر الاقداح [۸۳] وكانت هـذه اللعبـة معقـدة للغاية، لذا كان يتم التقامر بها تحت اشـراف شـخص متخصـص يدعى (الحرضة) و (الرقيب). وقد وردت اوصاف مختلفة لهذه اللعبة، وسردتهاالمصادر التاريخية بصور مختلفة [۸۴] .

الكهانة

الكهنة: جماعة من العرب كانوا يدعون الاطلاع على المغيبات، ويزعمون معرفة الاسـرار وقضايا المسـتقبل. وقد بنوا دعوتهم هذه على ادعاء آخر مفاده انهم يحصـلون على تلك المعلومات بواسـطة تسـخيرهم لكائنات غيبيـة كالجن او الشـيطان، وتدعى احيانا (التابع) او (الرئى). وهنـاك جماعة اخرى يعرفون بالعرافين، ويدعى هؤلاء معرفة الاسـرار وما سـتؤول اليه الامور من خلال اطلاعهم على اسـبابها ومقـدماتها. وكان الشـياطين يزودون الكهنـة بالمعلومات التى يسـمعونها من افواه الملائكة عند صـعودهم الى السـماء، وقد منع هؤلاء الشـياطين من استراق السـمع بعـد البعثـة. ولهذا انتهى امر الكهنة بين العرب. وكان بعض النـاس يقومون بامتحان الكاهن واختبار صدق نبوآته من خلال اخفاء شىء ما وسؤاله عنه، فان اخبرهم بنوع ذلك الشىء ومحله، عرضوا عليه قضيتهم الاصلية. وكانت هند بنت عتبة

من بين الكهنة الذين اشتهروا عند العرب، وهى زوجة ابى سفيان وام معاوية، وكانت قد تزوجت من فاكه بن المغيرة الذى اتهمها بالخيانة والزنا عندما وجدرجلا غريبا فى بيته. فاخذ عتبة وابنته هند وجماعة من بنى عبد مناف وذهب بهم الى اليمن ليعرض الامر على احد الكهنة، وكان فاكه قد خرج هو ايضا مع جماعة من قومه (بنى مخزوم) وجلسوا معا عند الكاهن، وقبل ان يعرضوا عليه الامر اختبروه بالسؤال عن شىء كانوا قد اخفوه عنه، فلما اخبرهم عن مكان ذلك الشىء شرحوا له قضيتهم، فبرا هندا من الزنا، وبشرها بان سيكون لها ولد ويصبح سلطانا، وقد سر فاكه لذلك، فاخذيد هند واصطحبها معه، لكنها امتنعت عن مرافقته، وطلبت الانفصال عنه. وبعد ذلك تزوجت هندا من ابى سفيان بن حرب. كان الكهنة يتقاضون شيئا من المال لقاء ما يخبرون به من مغيبات، ويسمى المال الذى يتقاضونه عن ذلك (الحلوان). وقد شبهه الرسول (ص) بالمال الذى تتقاضاه المراة الزانية ثمنا للفاحشة، وجعلهما على حد واحد، فقد ورد فى الحديث: «نهى رسول اللّه (ص) عن ثمن الكلب، ومهر البغى، وحلو ان الكاهن»، [۸۵] كما وادان الكهانة بشدة ونهى عنها. كان الكهنة يهمسون ببعض العبارات ليوحوا للاخرين بانهم يستقون علمهم من الغيب، وكانت عباراتهم تلك عبارة عن كلام يشبه الشعر، ويسمى السجع، وقد نهى الرسول (ص)عن السجع فى الكلام بل حتى فى الدعاء. [۸۶] .لقد حيرت الايات القرآنية الاولى التى نزلت على الرسول (ص) مستمعيها، اذ لم يعرفوا اى نوع من البيان هذا، فلا هو سجع كسجع الكهنة، ولا هو شعر كشعر الشعرا، ولانهم لم يجدوا مثله من قبل جعلوه بين الشعر والسجع، وهذا ما تشير اليه الايات الشريفة (۳۸- ۴۲) من سورة الحاقة وتنكره بشدة: (فلاـ اقسم بما تبصرون وما لاـ تبصرون، انه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون). وكان ينظر الى العلوم الطبية وقضايا الفلك والتنجيم وحتى معرفة الاحكام، على انها نوع من الكهانة. [۸۷] وكان اشهر كهنة العرب شق وسطيح، وقد نفت الاية (۲۹) من سورة الطور تهمة الكهانة عن النبى بشدة حيث قالت: (فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون). فثمة فرق بين الايات الربانية النازلة على الرسول (ص) وبين نبؤات الكهنة واخبارهم عن المستقبل وخفايا الامور، فبينما تركز الاولى على هداية الناس ووعظهم ونصيحتهم وارشادهم لما فيه خير الدنيا والاخرة، وتحذرهم من مغبة المعصية والركون الى الظلم والتعدى والجهل، لا نجد الثانية سوى الاخبار عن امور مستقبلية واخرى مخفية قد تخطىء وقد تصيب. وتشير الاية بكلمة مجنون الى اولئك الذين اعتادوا خداع الناس بزعمهم انهم يسخرون الجن لخدمتهم وياخذون معارفهم مما تمليه عليهم هذه المخلوقات من كشف الاسرار والاخبار بالمغيبات. وتدحض الاية الشريفة اتهامات العرب للرسول (ص) بانه (شاعر) بعد ان بهرتهم الايات القرآنية التى كان يتلوها عليهم رسول اللّه (ص)، فلئن العرب كانوا يظنون ان تابعا من الجن اوالشيطان هو الذى يلهم، وان كل شاعر شيطان، فقد ظنوا ان الرسول (ص) شاعر يتلقى الهامه ايضا من الجن او التابع. تقول الايتان (۳۰ و۳۳) من السورة نفسها: (ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون). يبدو ان الناس كانوا يخافون قتل الكهنة والاعتدا على حياتهم، ولا يساورهم الخوف نفسه حين تكون المسالة مرتبطة بشاعر يريدون تصفية حياته وقتله، وهذا ما تشير اليه الاية من طرف خفى، هذا اذا كان المقصود بريب المنون القتل، اما اذا قصد به الموت الطبيعى فلا فرق حينئذ بين الشاعر والكاهن، بل هماعلى حد سوا.

الحنفاء و الحنيفية

يؤكد كتاب السيرة ان هناك جماعة من قريش كانت قد تركت عبادة الاصنام قبل ان يبعث الرسول (ص) ويباشر دعوة الناس الى الاسلام. وهؤلاء هم ورقة بن نوفل، وعبيداللّه بن جحش، وعثمان بن حويرث وزيد بن عمرو بن نفيل، كان هؤلاء يبحثون عن الدين الحنيف، وهم فى صدد العودة الى دين ابراهيم (ع)، وسمى هؤلاء ب (الحنفاء)، فما هو دين ابراهيم او الحنيفية؟ وما الذى جعل هؤلاء يبحثون عنها، ويحاولون العودة اليها؟ مرت الاشارة سابقا الى ان ابراهيم كان قد بنى الكعبة مع ابنه اسماعيل فى واد غير ذى زرع لتكون معبدا يعبد فيه اللّه وحده، هذا ما سجله القرآن الكريم الذى اوضح ايضا ان دين ابراهيم (ع) كان دينا توحيديا ضد الشرك، وقد اطلق القرآن الكريم على المتدينين بهذا الدين (الحنفاء) او (المسلمين)، قال تعالى: (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان

حنيفا مسلما وما كان من المشركين) «آل عمران: ۶۷»، وقال تعالى: (ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه للّه وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا) «النساء: ۱۲۵». اطلقت هذه الاية على دين ابراهيم (الدين الحنيف) وسمت اتباعه المسلمين. وفى الاية (۱۳۵) من سورة البقرة وردت تبرئة ابراهيم (ع) من الشرك وتسمية دينه بالدين الحنيف، ونفت ان يكون يهوديا او نصرانيا: (وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين). لم تنف الاية الشريفة الهداية عن اليهود او النصارى غير انها فضلت ورجحت دين ابراهيم الحنيف عليهما معا فى اشارة الى انه خالص من كل معانى الشرك التى ربما علق بعضها بهاتين الديانتين، بسبب اعتقاد اليهود ان عزيرا ابن اللّه او بسبب اعتقاد النصارى ان عيسى ابن اللّه. ثم جاءت الاية (۳۰) من سورة الروم لتامر الناس باتباع سنة ابراهيم (ع): (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة اللّه التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللّه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون). وجاءت هذه الاية فى سياق عدة آيات تحدثت عن الشرك وعبادة الاصنام وحملت عليهما بشدة، فقررت الاية الشريفة ان التوحيد مغروس فى اعماق الفطرة الانسانية، وان من شان الانسان ان يتجه الى التوحيد بدافع من فطرته الا اذا انحرفت هذه الفطرة عن جادة الصواب وبدلت خلق اللّه تعالى وفطرته التى فطر الناس عليها. واخيرا تؤكد الاية على محور مهم هو ان الانسان اذا ترك وفطرته وخلى بينه وبينها فسينتهى الى التوحيد ولا يمكن ان يلجا الى الشرك، وهذا لا يتنافى مع النتائج التى توصل اليها الباحثون والدارسون فى تاريخ المجتمعات البدائية من انها كانت مجتمعات مشركة نظرا لجهل هذه الشعوب بالطبيعة ومظاهرها المختلفة، والذىنتج عنه انحراف الفطرة البشرية وتشوهها. ان الانسان مخلوق عاقل مفكر بالفطرة وفى اصل الخلقة، ولهذا اطلق عليه فى المنطق بانه (حيوان ناطق)، فان النطق والتحدث دليل العقل والتفكير، ولو اعتمد الانسان منذ اللحظات الاولى على قدرته العقلية وطاقاته الفكرية ورفض التقليد ومتابعة الاخرين دون تفكير، لاستطاع الوصول الى الحقيقة واستهجن عبادة الاصنام وترفع عن مظاهر الشرك، ولكن الجهل امر عدمى متقدم على العلم الذى هو امر وجودى. فكان الانسان البدائى يفضل الجهل على العلم لما فى العلم من مشاق ومصاعب لا يتطلبها الجهل لانه امر عدمى، ولهذا فضل الانسان الجهل مع الراحة على العلم مع المشقة وبذل الجهد، ولهذا كان الانسان البدائى مشركا، رغم ان فطرته السليمة تقوده الى التوحيد ونفى الشرك، لكنها تعطلت فماتت منابع النور فيها نتيجة الجهل الذى هو اسبق من العلم واسهل منه. وهذا هو سر تقدم الشرك زمانيا على التوحيد بين الاقوام البدائية. وهكذا يتضح ان القرآن الكريم يستعمل كلمة (حنيف) ويريدبها المسلم والموحد فى مقابل الشرك، ويريد بدين ابراهيم الحنيف الدين التوحيدى المرادف للاسلام، ولا ينبغى ان نفهم من هذا الترادف بين الاسلام ودين ابراهيم (ع) ان كل ماجاء به نبى الاسلام من احكام كان قد جاء به دين ابراهيم الحنيف، بل يتفق الدينان على محور واحد وقاعدة مشتركة هى فكرة التوحيد وعبادة اللّه وحده ونفى كل ما سواه من معانى الشرك وما يتبعها وما يلازمها من اعراض ومتعلقات، ويتاكد ذلك من خلال التامل العميق فى معانى الاية الكريمة: (ان ابراهيم كان امة قانتا للّه حنيفا ولم يك من المشركين) «النحل: ۱۲۰». ولا مبرر لحصول اى نوع من الابهام او اللبس فى اذهان المخاطبين من قبل الرسول (ص) من استعمال كلمة (حنيف) بعد ان كان القرآن الكريم قد نزل بالعربية لهداية قومعرب، وقد اتضح من خلال استعراض الموارد القرآنية التى استعمل فيها هذه الكلمة ان المقصود بها فى جميع هذه الاستعمالات معنى واحدا هو التوحيد وعبادة اللّه وحده ورفض الشرك. ولهذا لا نجد حاجة لمتابعة اشتقاقات هذه الكلمة واستعمالاتها فى باقى اللغات ذات العلاقة باللغة العربية كالسريانية والحبشية، علما ان مثل هذا التتبع قد يكون شيئا مهما ولازمالمن اراد الاحاطة بعلم اللغات، ولا نجد ضرورة لهذا الجهد فيما اذا كان هدفنا معرفة معانى هذه الكلمة فى عصر الرسول (ص) فحسب، اذ يكفينا تتبع معانيها واستعمالاتها الواردة فى القرآن الكريم. والمراد بالحنيف هو الذى رفض عبادة الاصنام وكل ما يتصل بها من معانى الشرك، وكانت قريش واهل مكة جميعا ما زالوا يتذكرون ان جدهم ابراهيم (ع) هو صاحب الدين الحنيف الذى حارب الاصنام ورفض عبادتها، ولهذا اعتزل اولئك الاربعة قومهم، ووقفوا جانبا ينظرون الى قريش وهى تطوف حول تلك الاحجار وتقدم لها الاضاحى والقرابين فى يوم من ايام اعيادها، فاخذوا يحدثون انفسهم قائلين: «لقد ضيع هؤلاء الناس دين ابيهم ابراهيم (ع)، فما هذه الصخرة التى يطوفون حولها؟ انها لا تسمع ولا ترى ولا تنفع ولا تضر، فليبحثوا عن دين لهم،

فهذه لاـ تملك من امرها شيئا». عندها بداوا البحث عن (الحنيفية) اى دين ابراهيم (ع) فاعتنق كل من ورقة بن نوفل وعبيداللّه بن جحش وعثمان بن حويرث الدين المسيحى، واعتزلهم زيد بن عمرو، غير انه لم يعتنق دينا جديدا، كما انه ظل ممتنعا عن عبادة الاصنام وعن اكل لحم الميتة ولحم القرابين، ومن هنا قال عنه الرسول (ص): «انه يبعث امة وحده». لقد نسخت رسالة ابراهيم (ع) (جدالعرب وبانى الكعبة) بصورة تدريجية فى مكة، واندرست معالمها، ولم يبق فى ذاكرة الناس سوى شىء واحد، كانوا يتذكرونه جيدا، ذلك ان ابراهيم (ع) كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين. ولم تخل مكة من بعض العقلاء واهل المنطق الذين كانوا يتاملون عادات قومهم وعبادتهم المنحرفة، فيستيقظ وجدانهم ويتذكرون ابراهيم (ع) والهه الواحد وحنفيته، فيتركون عبادة الاصنام، وكان يطلق على هؤلاء (الحنفاء) وقد عاصر بعضهم الرسول (ص).

قضاة العرب

كان يقال للقاضى فى الجاهلية (حاكم)، يقول اليعقوبى: «كان للعرب حكام ترجع اليها فى امورها وتتحاكم فى منافراتها ومواريثها ومياهها ودمائها». [۸۸] كانت اكثر المشاجرات فى‌الجاهلية تدور حول الحسب والنسب او الشرف والامجاد التى تصنعها الاسر او آباء الطرفين المتنازعين، وكما اشرنا فيما سبق فان قوام القبيلة الحسب او مجموع ما حققه الاباء من مكرمات ومفاخر، وما قام به افراد هذه القبيلة واجدادها من‌اعمال كبرى، وكانوا يتنازعون حول هذه الامور فى الاماكن العامة والنوادى والاسواق العامة وعلى مراى ومسمع من الناس. وقد يحسم التنافر اخيرا عند الحاكم برجوع المتخاصمين اليه، ويبدو ان اكثر هذه المنازعات كانت تحل عند الكهنة المعروفين الذى كانوا عادة من قبائل واماكن اخرى. وكانوا يختبرون الكاهن كما اشرنا سابقا قبل عرض قضيتهم عليه، فان نجح فى الاختبار واجابهم بصورة صحيحة عن درالخبىء اى الشىء المخبا بادروا الى عرض الموضوع عليه بعد تحديد غرامة معينة يدفعها الطرف المدان فى التحكيم الى الطرف الغالب الذى يسمى عادة (المنفر). وغالبا ما تكون هذه الغرامة عددا من الابل ياخذها الغالب ويذبحها ثم يدعو الى وليمة عليها. ان بعض المنازعات كانت تتفجر لاسباب مالية او لاحقاق بعض الحقوق كمنافرة عبد المطلب وحرب بن امية حول المطالبة بدم احد اليهود. وكان هذا اليهودى من اهل نجران يقال له اذينة فى جوار عبد المطلب بن هشام، وكان يتسوق فى اسواق تهامة بماله، وان حرب بن امية غاظه ذلك، فالب عليه فتيانا من قريش وقال لهم: «هذا العلج الذى يقطع الارض اليكم ويخوض بلادكم بماله من غير جوار ولا امان! واللّه لو قتلتموه ما خفتم احدا يطلب بدمه»، قال: «فشد هاشم بن عبد مناف بن‌عبد الدار بن قصى عليه وصخر بن عامر فقتلاه، وكان معهما ابن مطرود الخزاعى»، قال: «فجعل عبد المطلب لا يعرف له قاتلا حتى كان بعد، فعلم من اين اتى، فاتى حرب بن امية فانبه لصنيعه وطلب بدم جاره، فابى حرب ذلك عليه، وانتهى بهما التماحك واللجاج الى المنافرة، فجعلوا بينهما النجاشى ملك الحبشة فابى ان ينفذ بينهما، فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبداللّه بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب فاتياه». وقد حكم عبد العزى لصالح عبد المطلب، واستدل على حكمه بدليل يمكن ان يكون مؤشرا مهما على طبيعة العرب ايام الجاهلية حيث قال: «يا ابا عمرو، اتنافر رجلا هو اطول منك قامة، واوسم منك وسامة، واعظم منك هامة، واقل منك لامة، واكثر منك ولدا، واجزل منك صفدا، واطول منك مذودا؟! وانى لاقول هذا وان فيك لخصالا انك لبعيد الغضب، رفيع الصيت فى العرب، جلد المريرة، تحبك العشيرة»، واغلظ لنفيل، وقال: من انتكاس الدهر ان جعلناك حكما. وقد قدمت هذه المنافرة الى شخص عادى وليس كاهن. اما المنافرة الاخرى التى وقعت لعبد المطلب مع طائفة ثقيف حول مسالة مالية، فقد تم الرجوع فيها الى كاهن فى الشام يدعى عزى سلمة العذرى، وقد وردت تفاصيل هذه المنافرة فى المنمق ص ۹۴ – ۹۷. وقد قالت ثقيف قبل ان يصدر حكم الكاهن لصالح عبد المطلب على لسان جندب بن الحارث: «اقض لارفعنا مكانا، واعظمنا جفانا، واشدنا طعنا»، بينما قال‌عبد المطلب: «اقض لصاحب الخيرات الكبر، ومن كان ابوسيد مضر، وساقى الحجيج اذا كثر». [۸۹] .وقد اشرنا سابقا الى ان هناك اشخاصا آخرين من كل قبيلة يقومون مقام القضاة او الكهنة عند الضرورة، وقد ذكر اليعقوبى فى تاريخه وصاحب المحبر اسماء

هؤلاء. فمثلا ذكر عبد المطلب وولداه الزبير وابو طالب من جملة الحكام، وكذلك حرب وابنه ابو سفيان. وذكر من بنى تميم شخص باسم ربيعة باعتباره حكما وقاضيا يجلس تحت قبة خشبية وعلى عرش من خشب (اثناء الحكم كما يبدو). ومن الاحكام التى صدرت فى الجاهلية ثم جاء الاسلام وايدها حكم (القسامة) فى مورد الظن بالقتل، حيث يحلف خمسون رجلا من افراد القبيلة المظنون بها، التى يظن ان احد افرادها قد ارتكب القتل ولا دليل عليه، ويقسم هؤلاء الخمسون انهم من هذا الدم برا، وحينها يحكم ببراتهم، وعليهم دفع دية المقتول فلقد اقر الاسلام (القسامة) بعد ان ادخل عليها تعديلات وتغييرات معينة.

الجاهلية

سميت هذه المرحلة، التى وصفناها بشكل مختصر، بعد الاسلام بمرحلة الجاهلية، ويقصد بها كما جاء فى القرآن الكريم الفترة التى سبقت الاسلام، وطبقا لما اوضحه كولدزيهر [۹۰] فان الجاهلية لا ـ تعنى الجهل وعدم المعرفة، وانما تعنى حسب الادلة والشواهد الكثيرة التى ذكرها كولدزيهر (الجاهلية) مقابل (الحلم) وفى القرآن الكريم تعنى مجموعة القيم والاخلاق والثقافة والمقاييس المقابلة للاسلام والتى تقف بوجهه، قال تعالى: (افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من اللّه حكما لقوم يوقنون) «المائدة: ۵۰»، وقال عزوجل: (يظنون باللّه غير الحق ظن الجاهلية) «آل عمران: ۱۵۴»وفى خطاب نساء النبى قال تعالى: (وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى) «الاحزاب: ۳۳». واستظهر بعض المفسرين من تعبير (الجاهلية الاولى) وجود مرحلتين من الجاهلية، الجاهلية الاولى، والجاهلية الثانية او الاخيرة. اما ظاهر الاية فيوحى بان المقصود بهذا التعبير هو الاشارة الى الجاهلية قبل الاسلام. وقد سلط القرآن الكريم مزيدا من الضوء على معنى الجاهلية بقوله: (اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) «الفتح: ۲۶» فقد وصف اللّه تعالى مرحلة الجاهلية بالعصبية والحمية الشخصية، بينما اتصف الرسول والمؤمنون معه بالسكينة والوقار، حيث قال فى‌الاية عينها: (فانزل اللّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين).واشار الى المعنى ذاته تقريبا الدكتور جواد على [۹۱] .حيث ذكر ان كلمة الجهل لا ـ يراد بها المعنى المتداول اليوم، وانما يراد بها المعنى المقابل للسكينة والصبر، وعلى حد قول گولدزيهر المقابل (للحلم) حيث يقول تعالى: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) «الفرقان: ۶۳». ومن البديهى ان المقصود بالجاهليين هنا ليس فاقدى المعرفة او غير المتعلمين، وانما يراد بهم المتكبرين واهل العصبية البغيضة. واخيرا فان المقصود بالجاهلية كما يظهر من استعمالات القرآن الكريم لها هى المرحلة التى سبقت الاسلام بكل مافيها من العصبية والتفاخر والتخاصم وعصيان اللّه تعالى والتعالى على اوامره ونواهيه. وبكلمة اخرى فان الجاهلية تعبيرعن الصفات التى اشتهر بها العرب قبل الاسلام، وكما يقول گولدزيهر: فانهما كالتقابل بين التوحش (البربرية) والتحضر والتعلم.

سيرة الرسول من الولادة حتى البعثة

الطبيعة المجتمع الاجاهلى الذى ولد فيه الرسول

من خلال الاستعراض الاجمالى للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والروحية التى كان عليها مجتمع شبه الجزيرة العربية بصورة عامة والمجتمع المكى بوجه خاص فى القرن السادس الميلادى، اتضح ان ذلك المجتمع كان مهيئا لاستقبال دين الهى جديد، ففى محيط مكة كانت هناك مجموعة من التجار الاغنياء، وجميعهم من اشراف قريش وسادتها، يرزح تحتهم جمع غفير من الفقرا والمحرومين الذين يشكلون الغالبية الساحقة فى المجتمع. وقد نمت تلك الاقلية المتحولة واثرت على الاغلبية الفقيرة التى كان يلجئها الفقر الى طلب المال بالربا حتى لو كانت الارباح اضعافا مضاعفة كما عبر القرآن الكريم. اما العبيد والغلمان فكان اكثرهم من الحبشيين السود الذين يحتلون ادنى المراتب فى النظام الطبقى الجاهلى، فى وقت كانوا يقضون اوقاتهم فى الاعمال الشاقة التى يصعب على غيرهم

تحملها. والى جانب هذا، كان المجتمع يفتقد الى القانون او النظام الذى يحفظ للفقير حقه وياخذ من القوى ما اغتصبه من حقوق الضعفاء. امام هذا الواقع، كان الضعفاء يضطرون الى الاحتماء باحد الاشراف لحفظ مالهم وارواحهم، فيطلبون منه الحماية او الجوار او الامان وما الى ذلك، وكان الاقوياء من جانبهم لايجدون طريقا لتحقيق مآربهم سوى طريق القوة والقهر، واذاما تعادلت الكفة مع خصومهم التجاوا الى الحاكم او الكاهن ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وليس من الضرورى ان ياتى حكم الحاكم طبقا لموازين العدل والانصاف بالشكل الذى جاء بها الاسلام فيما بعد بل غالبا ما يتحرى الكاهن فى حكمه القوى والاكثر بسطة فى المال والجسم والحسب والنسب فيحكم لصالحه، وقد اتضح ذلك من خلال الامثلة التى ذكرت فيما سبق. وفى الوقت الذى كان يحافظ فيه الشرفاء وسادة القوم على الاعراف والعادات التى وجدوا آباءهم عليها، نجد الطبقات الاخرى التى ترزح تحت يد الجور والفقر وتذوق مرارة هذه الاعراف وتكتوى بنارها، لا تتحمس لها ولا تظهر قدرا كافيا من الايمان بها، لهذا ظهرت مجموعة من القوم انفت عبادة الاصنام واتجهت الى دين ابراهيم الحنيف او اعتنقت الدين المسيحى. كان التجار واصحاب القوافل لا يامنون على بضائعهم وارواحهم وهم يسلكون طرقهم التجارية عبر الصحرا، ولهذا كانوا يتوسلون بالقوة او المال لدفع هجمات قطاع الطرق والغزاة عليهم، وقد اشتهر الغزو والاغارة حتى لم يعد شيئا مذموما فى ذلك العصر، بل كان امرا يدعو للفخر والاعتزاز سيما اذا ما اقترن بالجسارة والشجاعة. ومن الطبيعى ان يفرز مثل هذا المحيط جماعة من العقلاء واصحاب الفكر والفطرة السليمة، يكون همهم الاصلاح والهداية، وفى الوقت الذى نجد هؤلاء يعتزلون قومهم وديانتهم، نجدهم من جانب آخر يبحثون عن طريق للخلاص، وعن وسيلة يستطيعون من خلالها انقاذ قومهم وهدايتهم. وكانت مكة مهياة اكثر من غيرها لظهور مثل هؤلاء وذلك لاشتداد الحاجة فيها الى الامن والاستقرار والنظام، فانتجمع الثروة ونمو التجارة كان بامس الحاجة الى الامن والقانون، كما ان انهماك التجار فى تجارتهم كان يعكره قلقهم المتزايد من النهب والسلب والسطو الذى لا ـ سبيل لتجنبه سوى اقرار قانون عام يهابه الجميع وينضوون تحت لوائه. فى مثل هذا المجتمع ولد رسول اللّه (ص)، الذى لم يرق له بما كان يتمتع به من مواهب واستعدادات فطرية وطبيعية وبفضل الهداية الالهية وتوجيهات العقل اوضاع هذا المجتمع الذى عبر عنه بالجاهلية، ووجد ان اصلاح نواقصه جميعا وهداية قومه بل البشرية ككل يكمن فى توحيد اللّه و (اسلامالوجه) اليه، لهذا اعتزل مجتمعه الجاهلى وما يعبدون، والتجاالى غار فى احد الجبال يفكر ويتامل حتى اخذت العناية الالهية بيده وتم اصطفاؤه من بين الناس جميعا ليتحمل مسؤولية اصلاح المجتمع الانسانى واجرا احكام اللّه فيه، وفى يوم وساعة معينين لا نعلمهما بالضبط بعث لانقاذ الناس منالضلال، وقد امر ان يبدا بعشيرته الاقربين الى ان بدا النور الالهى يسطع ويتعالى فعم مكة والمدينة وشبه الجزيرة العربية ومن ثم العالم اجمع، فتنورت جميع الانحاء بالنور الالهى.

مولد الرسول

ولد الرسول فى مكة من اب قرشى هو عبداللّه بن عبدالمطلب، وام قرشية ايضا من بنى زهرة هى آمنة بنت وهب بنعبد مناف، وقد كانت ولادته المباركة يوم الاثنين من شهر ربيعالاول. وقيل: من شهر رمضان، وهو قول ضعيف. وقد وقع اختلاف فى اليوم الذى ولد فيه، فقيل: اليوم الثانى من شهر ربيع الاول، وقيل: فى الثامن منه، وقيل: فى العاشر منه، وقال آخرون: انه فى اليوم الثانى عشر، بينما ذهب اكثرالشيعة الى انه فى السابع عشر من ربيع الاول [۹۲] .وقد وقع الاختلاف نفسه ايضا فى السنة التى ولد فيها (ص) حتى اصبح من غير الممكن تحديد السنة التى ولد فيها على وجه الدقة والجزم. هناك حادثتان تم ضبطهما فى حياة الرسول (ص) وفى التاريخ الاسلامى بصورة دقيقة، لما كان لهما من اهمية خاصة، الحادثة الاولى: هجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة، التى اصبحت فيما بعد بداية التاريخ الاسلامى، وهى فى الاول من المحرم السنة الاولى للهجرة، المطابق ل (۱۶ كانون الثانى عام۶۲۲ م)، ويقال ان هجرة الرسول (ص) كانت يوم الاثنين فى الثامن من ربيع الاول الموافق (۲۰ ايلول عام ۶۲۲ م). والحادثة الثانية: السنة التى توفى فيها الرسول (ص) وهى السنة الحادية عشرة للهجرة الشريفة، فى شهر صفر او ربيع الاول، ويتطابق هذا التاريخ مع العام ۶۳۲ م، وقد جر الاختلاف

فى تاريخ ولادته (ص) الى اختلاف فى عمره الشريف بين۶۵،۶۳، ۶۰ سنة. [۹۳] .واذا كان الراى الاشهر هو ۶۳ عاما، فسيكون عمره وقت الهجرة ۵۲ سنة تقريبا، وكل الاحاديث الاخرى فى حياته (ص) فيما عدا هجرته ووفاته (ص) كالبعثة والمولد تبقى مبنية على افتراضات غير دقيقة. وقد ذهب المشهور الى انه بعث وهو فى الاربعين من عمره، وقيل: ان بعثته كانت فى الثالثة والاربعين من عمره، بناء على رواية عن ابن عباس. ويمكن الافتراض بان بدء دعوته (ص) كان فى حدود الاربعين من عمره الشريف (ليس على وجه الدقة والقطع) فهناك روايات تقول: انه مكث عشر سنوات فى مكة بعد البعثة، واخرى تقول: انه اقام بها ثلاثة عشر عاما، ويبدو ان اكثر الرواة قد ذهبوا الى انه بعث فى الاربعين من عمره، انسجاما مع الاعتقاد الشائع بان سن الاربعين هو سن الكمال. اما من حيث الواقع فان من الناس من يبلغ الكمال العقلى والروحى قبل هذه السن بفترة طويلة، وبالعكس هناك من يتاخر كماله بعد هذه السن او انه لا يبلغ الكمال ابدا، اما العناية الالهية فلا تتاخر لتنتظر بلوغ الاربعين عاما، اذا ما توفرت فى الشخص مقومات البعثة قبل هذا التاريخ. وان هذا النوع من الملاحظات والترتيبات الزائدة انما هى من خيال الانسان ووهمه. وعلى اية حال، فان الاعتقاد الراسخ بان سن الكمال هو سن الاربعين، وبالنتيجة فانه سن البعثة، وبعد المقارنات اللاحقة واضافة سنوات الاقامة الثلاث عشرة التى امضاها الرسول (ص) فى مكة بعد البعثة، ثم السنوات العشر التى امضاها فى المدينة، وبعد البناء على ان عمره (ص) كان ثلاثة وستين عاما، استنتجوا ان عام ولادته كان فى عام (۵۷۰ م) كاقرب الاحتمالات. وبهذا لم يعرف على وجه الدقة لا عام ولادته (ص) ولا عام بعثته، ومن هنا يتضح السبب الذى دفع المسلمين لاختيار عام الهجرة الذى كان مسلما ومعروفا بصورة دقيقة عند الجميع كمبدا للتاريخ حين طرحت مسالة تحديد تاريخ معين للمسلمين، وقدمت حوله الاقتراحات المختلفة فى حينها لهذا التاريخ. ما تجدر الاشارة اليه هو قولهم: ان ولادة الرسول (ص) كانت فى عام الفيل، اذ من الطبيعى ان تتخذ الاحداث المهمة التى تبقى الى امد فى اذهان الناس ومحاوراتهم كمبدا للتاريخ، وعام الفيل، وهو العام الذى حدثت فيه حملة ابرهة، كان حدثا مهما يليق بان يكون مبدا لتاريخ ولادته (ص) غير ان الموجود هو انعام الفيل لا ـ يطابق تماما عام (۵۷۰ م)، ففى هذا العام تقريبا سقطت حكومة (الحبشيين) فى اليمن بايدى الفرس (وهرزديلمى) مع العلم ان الاحباش بقوا يحكمون فى شبه الجزيرة العربية بعد عام الفيل لمدة، فحكم اليمن اثنان من اولاد ابرهة بعد وفاته، ومن هذه الناحية لم تتفق جميع الروايات على ان عام ولادته (ص) كان هو عام الفيل. قال الكلبى مثلا: ان عام الفيل كان قبل ولادة الرسول (ص) ب (۲۳) سنة، ونقل عن مقاتل انه كان قبل ولادة النبيب (۴۰) عاما [۹۴] .وبالنتيجة فان التلفيق بين الروايات واحتساب العام الذى ولدفيه يؤديان الى ان يكون عام (۵۷۰ م) هو عام ولادة الرسول (ص) وقد يكون ذلك هو الواقع فعلا. اما كون الرسول ولد فى عام الفيل، وان عام الفيل هو (۵۷۰ م) فهذا ما لا يمكن الركون اليه، بل قد يكون امرا بعيدا على ضوء الاختلافات التى نقلت فى تاريخ عام الفيل. فقد اعتبر المسعودى عام الفيل موافقا لسنة ۸۸۲ بتاريخ ذى القرنين. [۹۵] وبما انهم قالوا: ان ولادة الرسول كانت فى ربيع الاول وبعد خمسين يوما من واقعة الفيل، وبما ان هذه الواقعة (اى حملة ابرهة) كانت قد حدثت فى يوم الاثنين۱۷محرم عام ۸۸۲ اسكندرى (او ذو القرنين سلوكى). [۹۶] فعلى ضوء هذه الارقام والحسابات، توصلوا الى نتيجة مفادها ان ولادة الرسول (ص) كانت فى العام (۵۷۰م). بينما توصل السهيلى [۹۷] الى ان ولادته المباركة كانت فى ۲۰ نيسان (ابريل) المطابق لشهر ربيع الاول، علما ان هذا التاريخ كان قبل الغاء النسىء، وقد اشرنا سابقا الى ان العرب كانوا يطبقون الاشهر القمرية على السنة الشمسية من اجل تثبيت موسم السوق التجارية، ولهذا اتفق شهر ربيع الاول مع شهر نيسان.

مصادر سيرة الرسول قبل البعثة

لا ـ توجد بين ايدينا معلومات وفيرة عن حياة الرسول (ص) بين ولادته وبعثته التى تمتد الى فترة طويلة تقدر طبقا للمشهور باربعين عاما، وقد سجل لنا اهل السير بعض الحوادث عن ولادته (ص) ورضاعه، وسفره الى الشام مع عمه، ومشاركته فى حرب الفجار وحلف الفضول، وكذلك عن زواجه من خديجة، ومشاركته فى ترميم الكعبة وحله لازمة رفع الحجر الاسود. وقد جرى قسم من هذه

الاحـداث جريا طبيعيا لاينطوى على امور خارقـة للعادة او معاجز، بينما تضـمن القسم الاخر احـداثا فيها كرامات وامور خارقة للقوانين السائدة ومعاجز، ولا نجد نحن المسلمين مانعا من قبول كل هذه المعاجز والخوارق، وليس هناك من مبرر لردها وانكارها بعد ان آمنا ان الرسـول (ص) مبعـوث الهى يحظى برعايـة اللّه القـادرعلى كـل شـيء وعنـايته. امـا اذا لوحظت هـذه الحوادث بالمنظـار التـاريخى المحض وفى ضوء ما جرت عليه السـنن الالهيـة فى ربط الامور باسـبابها الطبيعيـة، فاننا يمكن ان نجد تفسـيرا آخر لهذه الروايات التى تتحـدث عن امور خارقـة للعـادة، ويمكن اعتبارهـا نوعا من التمثيل والرمز، واذا ما حاولنا فى هـذا الكتاب توجيه هـذه الروايات المبنية على المعاجز وجهـة تمثيلية رمزية بما يتسع له المجال فاننا نقوم بذلك من اجل ان لا يفقد هذا المجهود بعده التاريخى العام، ويتحول الى كتـاب دينى محض. فالكتاب الـدينى يكتب عادة لاهل الديانـة خاصـة، اما الكتاب التاريخى الـذى يجب ان يكتب بطريقـة اخرى تحفظ له شـموليته وعموميته، فلا يختص باهل ديانـة معينـة، وبـذلك سوف لا يقف التعصب حائلا دون قراته، لهذا لا ينبغى الربطبين اعتماد المؤلف وتاكيده على توجيهه هذه الحوادث وجهة طبيعية، وبين معتقداته الدينية التى لا تختلف عن معتقدات عامة المسلمين.

وفاة عبداللّه و مرحلة الرضاعة

كان عبـداللّه والد الرسول (ص) قد ذهب فى احدى القوافل التجارية الى الشام، وترك خلفه زوجته آمنة، وهى حامل برسول اللّه، فى مكـة، وفى طريق عودته مرض فبقى عنـد اهل‌ام ابيه عبد المطلب، وظل هناك حتى فارق الحياة. بناء على القول المشـهور فان الرسول (ص) كان ما يزال فى بطن امه عنـد وفاة ابيه عبـداللّه، بينما قال آخرون: انه كان له من العمر (۲۸) شهرا حين وفاة والده، وهناك قول ثالث: بانه كان ابن سبعة اشهر. [۹۸] وكانت العادة قد جرت على ان يقوم اشراف مكة بايداع اطفالهم عند مرضعات فى البادية لينشاوا ويتربوا فى تلك البيئـة النقيـة، والـدليل على ذلك ما جاء فى طبقات ابن سـعد: «انه قـدم مكـة عشـر نسوة من بنى سـعد بن بكر يطلبن الرضاع، فاصبن الرضاع كلهن الا حليمة بنت عبداللّه بن‌الحارث، فعرض عليها رسول اللّه (ص) فجعلت تقول: يتيم ولامال له، وما عس امه ان تفعـل؟ فخرج النسوة وخلفنهـا، فقـالت حليمـة لزوجهـا: ما ترى؟ قـد خرج صواحبى، وليس بمكـة غلام يسترضع الا هـذا الغلام اليتيم، فلو انا اخذناه، فانى اكره ان نرجع الى بلادنا ولم ناخذ شـيئا، فقال لها زوجها: خذيه عسى اللّه ان يجعل لنا فيه خيرا، فجاءت الى امه واخذته منها، ووضـعته فى حجرها، فدر ثدياها وتدفقا لبنا، فشرب رسول اللّه (ص) حتى روى وشرب اخوه، وكان اخوه لا ينام من الغرث، فقـالت امه: يـا ظئر، سـلى عن ابنك، فانه سـيكون له شان، واخبرتها ما رات وما قيل لها فيه حين ولـدته، وقالت: قيل لى ثلاث ليال: استرضـعى ابنك فى بنى سـعد بن بكر، ثم فى آل ابى ذؤيب، قالت حليمـة: فان ابا هـذا الغلام الـذى فى حجرى ابو ذؤيب، وهو زوجى، فطابت نفس حليمة وسرت بكل ما سمعت، ثم خرجت به الى منزلها، فحدجوا اثاثهم، فركبت حليمة وحملت رسول اللّه (ص) بين يـديها، وركب الحـارث شـارفهم، فطلعـا على صواحبهـا بوادى السـرر، وهن مرتعات، وهما يتواهقان، فقلن: يا حليمـة ما صـنعت؟ فقـالت: اخـذت واللّه خير مولود رايته قـط، واعظمهم بركـة. قـالت النسوة: اهو ابن عبـدالمطلب؟ قالت: نعم! قالت: فما رحلنا من منزلنا ذلك حتى رايت الحسد من بعض نسائنا».

غسل القلب و تطهيره

طبقا للروايات الواردة فى سـيرة ابن هشام وطبقات ابن سـعد وتاريخ الطبرى: «انه لما بلغ (ص) اربع سنين كان يغدو مع اخيه واخته فى البهم قريبا من الحى، فاتاه الملكان هناك فشـقا بطنه واسـتخرجا علقة سودا فطرحاها، وغسلا بطنه بماء الثلج بطست من ذهب، ثم وزن بـالف من امته فوزنهم، فقالاحـدهما للاخر: دعه، فلو وزن بامته كلها لوزنهم». [۹۹] .وقد ذكرت هذه الرواية فى تفسير سورة (الشرح) وجاء فى سورة اخرى على لسان موسـى وهو يدعو ربه (رب اشرح لى صدرى) «طه: ۲۵»، وتشير الاية الكريمة من ورا المعنى اللفظى الى معان مجازية عميقة، منها سـعة الصدر، وانشـراح القلب لتحمل الهموم الكبار، وبعد النظر، والاسـتقامة على الطريقة، وتطهير القلب

من هوى النفس ونزغ الشيطان ليصبح مهيا لاستقبال الاوامر والنواهى الالهيـة. اما ما ذكرته تلك الروايات من اخراج القلب وتطهيره، فيبدوانها كانت تشير الى معان رمزية حول طهارة قلب الرسول (ص) وما ينبغى ان يكون عليه النبى (ص) من طهر وسلامة وسعة صدر وخلوص نيـة، ولا ينبغى ان نحمل هـذه الروايات على معانيها اللفظيـة وحسب، والا فان هـذا القلب الـذى فى الصدر لايمثل الا عضـلة لضـخ الـدم لتسـتمر الحياة، اما شؤون النفس وقواها الروحيـة فيبـدو ان مكانها الظاهرى الدماغ، او الاصح والادق ليس لها مكان مادى خاص.

وفاة آمنة و عبد المطلب

كـان الرسول (ص) فى السادسـة من عمره حين فـارقت امه آمنـة الحياة، ويقال: انها كانت قـد تركته (ص) فى يثرب عنـد اهل ام عبد المطلب وقـد توفيت فى طريق عودتهـا الى مكـة فى (الابوا) بين مكـة والمدينـة، وتقول الروايـة: ان مرضـعة الرسول (ام ايمن) كـانت ترافقه، وهى التى عادت به الى مكـة بعدوفاة امه. [۱۰۰] .وتولى عبـد المطلب امر الرسول (ص) بعد وفاة امه، وبقى الرسول فى رعايته الى حين وفاته فى الثمانين من عمره، وقيل: فى المائة والعشرين من عمره، وكان عمر الرسول (ص) حينئذ ثمانية اعوام، ويقال: ان عبد المطلب كان قـد اوصـى اباطالب ان يتولى امر رسول اللّه (ص) من بعـده لكونهما (ابوطالب وعبـداللّه والد الرسول) ابنى عبد المطلب من ام واحدة.

عناية ابى طالب برسول اللّه

لقـد احسن ابو طالب رعايـة ابن اخيه رغم فقره وحاجته، وتنقل الروايات قصـصا غريبـة عن مدى الحاجة والعوز اللذين كان‌عليهما ابو طـالب، بينمـا هنـاك روايـات تصف ابـا طـالب بـانه كان من اهل التجارة والثروة، وكان كثير السـفر الى الشام لاغراض تجاريـة، وفى روايات اخرى انه كان تاجر عطور ويتاجراحيانا بالقمح. [۱۰۱] .وتنقل الروايات ان ابا طالب كان قد اصطحب الرسول (ص) فى احدى اسـفاره التجاريـة الى الشام، وكان عمره آنذاك اثنى‌عشـر عاما، وبهذا فاننا لا نملك الا ان نتامل قليلا فى تلك الروايات التى تتحدث عن فقر ابى طالب وعوزه بعد ان كان من تجار قريش واشرافها.

قصة بحيرا

شاهـد احـد الرهبـان المـدعو (بحيرا) رسول اللّه (ص) فى سـفره الى الشـام مع عمه ابى طـالب فى بصـرى من اعمـال الشام ولمـح فيه علامات النبوة، فاسـر الامر الى عمه ابى طالب وحذره من كيد اليهود وحثه على رعايته وحمايته من شرهم. ولو لمحنا شيئا من المبالغة فى رواية (علامات النبوة) وفى اخبار (بحيرا) عن الغيب، ولكن لا يمكننا انكار حقيقة ان الرسول (ص)، وبغض النظر عن منزلته الالهية العليا، كان ذا شخصـية يمتاز بها عن اقرانه واترابه، وبناء على هذا فلن يكون تشـخيص مثل تلك العلامات الكبرى، التى تنبى بمستقبل لامع، امرا صعبا او استثنائيا من قبل عالم روحانى كبحيرا. وكثيرا ما نصادف فى حياتنا تنبؤات عن بعض الاطفال الاذكياء المميزين، ثم يتبين فيما بعد صدق تلك التنبؤات وعدم ابتعادها عما يتحقق فى الواقع بصورة عامة. فقد تكون الرواية صحيحة من حيث الاصل، وان (بحيرا) تنبا فعلا لهذا الصبى النابغة بمسـتقبل عظيم، فاوصـى عمه بضرورة المحافظة عليه والاهتمام بتربيته وحراسته من كيد الاعداء، اما تفاصيل القصة وجزئياتها فقد تكون من اضافات الرواة.

ايام الفجار و مشاركة الرسول فيها

الفجـار على مرحلتين، عرفتـا ب (الفجـار الاولى) و (الفجارالثانيـة)، وسـميت بالفجار لانها وقعت فى الاشـهر الحرم، فى الموسم الـذى

يفتتح فيه سوق عكاظ، وكان السبب الاصلى لها هو هتك حرمة الاشهر الحرم. والفجار مشتقة من (الفجور)،اذ كثيرا ما تتغلب طبائع العرب فى الغزو والاغارة على الحدود والاعراف التى وضعتها القبائل العربية والتزمت بالحفاظ عليها. ولا يعرف تاريخ هذه الحرب بشكل دقيق ولا يوجد بين ايدينا تفاصيل كاملة عن مجرياتها، اذ لم يدون تاريخها الا بعد فترة طويلة من وقوعها، اى فى القرن الاول والثانى الهجريين، فمن الطبيعى ان يحفل مثل هذا التاريخ بالاختلافات والتناقضات. قال اصحاب السير: ان الرسول (ص) شارك فى هذه الحرب فى مرحلتها الثانية، ويقول الاصفهانى: ان ايام الفجار الثانية كانت عبارة عن يوم نخلة، ويوم الشمطة، ويوم العبلاء، ويوم عكاظ، ويوم الحرة. [۱۰۲] واستمرت لاربع سنوات متواصلة. [۱۰۳] وكانت كل واحدة منها تبدا فى موسم سوق عكاظ، اما طرفا النزاع فهما قريش والمتحالفون معها من جانب، وقبائل هوازن من جانب آخر. ويقول صاحب الاغانى فى الصفحة نفسها: «ان الرسول (ص) شارك فى الحرب فى جميع فصولها الا ـ فى يوم (نخلة)، منالسنة الاولى»، ولكنه نقل عن ابى عبيدة ان رسول اللّه كان قد شارك فى يوم (نخلة) ايضا، وكان عمره اربعة عشر عاما، وكانت مشاركته فى دعمه لاعمامه ومساندته لهم فى الرمى، اى بتزويدهم بالنبل، وينقل عن الرسول (ص) قوله: «كنت انبلاعمامى». وجاء فى تفسير ذلك ان الرسول كان يجمع النبل القادم من العدو ويجعله فى متناول اعمامه. وذكر صاحب الاغانى ان عمر الرسول كان وقتئذ (۲۸) سنة. [۱۰۴] وهذا ما يصعب تصديقه، لان الرجل اذا بلغ كان هذا العمر فستكون مشاركته بالحرب مشاركة مباشرة، ولا يكتفى بجمع النبل واحضاره للمقاتلين! ويقول ابن الاثير: «ان الرسول كان له من العمر عشرون عاما ايام تلك الحرب»، وهذا بدوره لا يمكن تصديقه للسبب عينه. كانت قريش قد هزمت فى يوم (نخلة) ولاذت بالحرم، ولهذا السبب، وبسبب حلول الليل ايضا توقفت الحرب. وينقل ابن الاثير عن الزهرى قوله: ان الرسول لم يشارك فى هذه الحرب، فلو كان حاضرا لما هزمت قريش، غير ان ابن الاثير يرد على هذا التعليل، ويقول: ان اصحاب الرسول (ص) كانوا قد هزموا بعد بعثته كما فى احد مثلا فكيف لا يمكنان يهزموا قبل البعثة. [۱۰۵] .وقال صاحب الاغانى: «ان الرسول اشترك فى يوم (الشمطة») (فى السنة الثانية فى الفجار الثانية) وينقل عن الرسول قوله: «انه ما حمل على ناحية الا وهزم من كان فيها»، ويضيف فى ص ۶۴: ان الرسول شارك فى جميع معارك حرب الفجار الا فى يوم (نخلة) كانت مشاركته بتحضير النبل لاعمامه، وكانعمره عشرين عاما، وكذلك اشترك فى حرب الابوا المعروفة بمعركة (ملاعب الاسنة) وكان قد اصيب فيها». ويحتمل كثيرا ان يكون الرسول (ص) قد اشترك فعلا فى هذه الحروب بناء على صحة القولين المنقولين عنه (ص)، احدهما: «كنت انبل على اعمامى»، والاخر: «ما سرنى انى لم اشهده، انهم تعدوا على قومى، عرضوا عليهم ان يدفعوا اليهمالبراض صاحبهم فابوا». [۱۰۶] .يمكن الجمع بين الروايات، التى تذهب الى انه كان صغيرا لم يشترك فى الحرب بصورة مباشرة، وبين الروايات التى تدعى مباشرته للحرب كاى مقاتل آخر، بالقول ان المجموعة الاولى من الروايات تتعلق ببداية الحرب، والتى كان عمر الرسول (ص) حينها فى حدود الاربعة عشر او الخمسة عشر عاما، حيث اقتصر فى مشاركته على مساعدة اعمامه فى تحضير النبل، اما المجموعة الثانية فتتعلق باواخر الحرب حيث بلغ حينها الثامنة عشر او اكثر، ولم يعد يكتف بتلك المشاركة، بل اصبح يقاتل بصورة مباشرة. اما سبب رضا الرسول عن مشاركته فى الحرب وادانته لخصوم قريش فيها اى (هوازن) رغم ان (البراض) الداخل فى جوار قريش كان فاسقا وخمارا وقاتلا، فربما يعود لاصرار (هوازن) على تسلم البراض بالقهر لتنزل به القصاص وتقتله، ورفضوا كما يفهم من مضمون الروايات، وان لم يظهر ذلك فيها بشكل صريح قبول الدية، وبادروا الى الحرب دون تورع عن سفكالدماء وقتل المزيد من الناس. [۱۰۷] .

حلف الفضول و مشاركة الرسول فيه

تم التوصل الى (حلف الفضول) بعد عودة قريش من حربالفجار، وكان الرسول (ص) حينها قد بلغ العشرين من عمره الشريف، ويبدو ان هذا الحلف الذى ابرم فى شهر ذى القعدة كان افضل واشرف حلف عقده عرب الجاهلية على الاطلاق. وقيل: ان الرسول (ص) كان حاضرا حين ابرام الحلف فى بيت عبداللّه بن جدعان، ونقل عنه (ص) قوله: «ما احب ان لى بحلف حضرته بدار ابن

جدعان حمر النعم وانى اغدر به، هاشم وتيم تحالفوا ان يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة، ولو دعيت به لاجبت، وهو حلف الفضول». [۱۰۸] لقد عقد هذا الحلف لاخذ حق المظلوم من الظالم فى مكة، فكان لا يامن العربى ولا غيره على ماله هناك، وكان من بين من اشتهر من قريش بالاغارة على اموال الناس: العاص بن وائل السهمى (ابو محمد بن العاص) الذى اخذ مالا لشخص من بنى زبيد ولم يدفع ثمنه، فشكا الزبيدى امره الى حلفائه وكان منهم بنوسهم، فلم يكتف هؤلاء الاحلاف وهم (بنو عبد الدار ومخزوم وسهم وعدى وجمح) بعدم نصرته بل اعانوا عليه، فلجا الزبيدى الى جبل قبيس، وكان قد وصل الى هناك قبل طلوع الشمس، وبينما كان القرشيون يطوفون حول الكعبة نادى الزبيدى بظليمته وطلب النصرة من قريش، وكان من بين الذين سمعوا نداه اعضاء حلف المطيبين، اى بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم، فاجتمعوا فى منزل عبداللّه بن جدعان، وكان من اشراف قريش واغنيائها، فتعاهدوا على ان يقفوا الى جانب المظلوم وينازعوا الظالم حتى ياخذوا الحق منه. [۱۰۹] وذكرت هذه الرواية سببا آخر لحلف الفضول وهو التنازع على مناصب بنى عبد الدار.

الزواج من خديجة

كانت خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى قد تزوجت من رجلين قبل زواجها من رسول اللّه (ص)، احدهما (ابو هالة التميمى)، وقد انجبت منه ولدا اسمه هند، دخل الاسلام فيما بعد وكان من البدريين، وقد روى عنه الامام الحسن بن على (ع) حديثا واصفا اياه ب (خالى). وشهد هند مع اميرالمؤمنين معركة الجمل، وقتل فيها، وانجبت خديجة من زوجها الثانى (عتيق بن عابد المخزومى) بنتا اسمتها هند ايضا، (هوند اسم مشترك بين الذكور والاناث). وتشرفت هى الاخرى بالاسلام. كانت خديجة على قدر كبير من الثراء، وكثيرا ما كانت تستاجر العمال وترسلهم فى قوافل تجارية الى الشام وغيرها من الاسواق. وطبقا للرواية التى اوردها ابن سعد فى طبقاته: [۱۱۰] لما بلغ رسول اللّه (ص) خمسا وعشرين سنة قال له ابو طالب: «انا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا، وهذه عير قومك وقد حضر خروجها الى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا ـ من قومك فى عيرها، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لاسرعت اليك»، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، فارسلت اليه فى ذلك وقالت له: «انا اعطيك ضعف مااعطى رجالا من قومك». قال: اخبرنا عبداللّه بن جعفر الرقى، قال ابو طالب: «يابن اخى، قد بلغنى ان خديجة استاجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما اعطته، فهل لك ان تكلمها؟» قال: «ما احببت!» فخرج اليها فقال: «هل لك يا خديجة ان تستاجرى محمدا؟ فقد بلغنا انك استاجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون اربع بكار» قال: «فقالت خديجة: لو سالت ذاك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سالت لحبيب قريب؟». واخيرا ذهب الرسول (ص) الى الشام فى قافلة تجارية لخديجة، ورافقه فى سفره هذا غلام لها يدعى ميسرة، وقد فتح اللّه على يد رسوله، فكانت رحلة تجارية ناجحة وصفقة رابحة، فاعجبت خديجة باخلاق رسول اللّه وامانته خلال السفر، وزادها قناعة غلامها ميسرة الذى نقل لها اعجابه هو الاخر برفيقه وما لاحظه، من امور تستدعى التقدير والثناء، فما كان منها الا ان اعربت عن رغبتها بالزواج منه، ولما بلغ احد الاشخاص الرسول (ص) ذلك استجاب لهذه الرغبة، فقام‌عماه ابوطالب وحمزة بخطبة خديجة من عمها عمرو بن اسدوتم الزواج. وكان الرسول قد بلغ (طبقا للروايات) الخامسة والعشرين من عمره حينها فكان يصغرها بخمسة عشر عاما. وقد تحدثت الاخبار عن معاجز وكرامات حصلت للرسول (ص) فى سفره هذا الى الشام، وعن نبوءات تنبا بها راهب مسيحى يدعى (نسطور) حول نبوته (ص)، نقول بشانهاما سبق منا الاشارة اليه، وهو اننا لا نرى فى تنبؤ الرهبان بمستقبل شاب لفت الانظار بحدة ذكائه وعلو همته وشدة استقامته، امرا خارقا للعادة، بل ذلك امر ميسور لكل انسان يتمتع بقدر بسيط من الذكاء والفراسة. لكن ان يتنبا رجل دين مسيحى بنبوة انسان غريب، قد يكون ذلك امرا مستبعدا. اما اذا كان الغرض من الحاق هذه القصة بالرواية المذكورة هو التدليل على صدق النبوة، او للفخرو الاعتزاز، فان الرسول غنى عن مثل هذه الشهادات، وغير محتاج لتلك المفاخر، وله من افعاله واقواله خير دليل على صدق نبوته، وقبلها جميعا القرآن الكريم. والملفت فى رواية الزواج من خديجة هو رغبة

هذه المراة، التى هى من اشرف واغنى نساء قريش، بالزواج منه (ص)، وهذا دليل على علو منزلته وجلال قدره وطيب سمعته. فمع ماله من شرف الحسب والنسب غير انه كان فقيرا لا يملك من حطام الدنيا شيئا. اما اعمامه فقد بلغ فيهم الفقر فى حينها حداحاروا معه فى اعالته (ص). فلا يمكن لمن هذه حاله ان يستقطب اهتمام الناس ويكسب احترامهم وتقديرهم الا بالخلق الحسن والمعاملة الطيبة والمودة للناس. لقد بلغ رسول اللّه (ص) المنزلة الاجتماعية المرموقة التى جعلت امراة من اشرف واغنى نساء قريش تعرض الزواج عليه (ص). وقد وردت تفاصيل كثيرة فى موضوع هذا الزواج، ومنها ما قيل: «ان خويلد ابا خديجة سقى من الخمر حتى اخذت فيه ثم دعا محمدا (ص) فزوجه». نقول ان الامر الذى دفع خديجة الى طلب الزواج من الرسول (ص) هو مكانته الاجتماعية واشتهاره فى مكة بالصادق الامين، وذلك لم يدع مجالا للتردد امام ابى خديجة ولم يكن بحاجة لان يلجا الى السكر لاصدار الموافقة، كما اننا لم نعثرعلى ما يشبه هذه الحادثة فى قريش، ولو صحت تلك الرواية فسيحكم على هذا الزواج بالفساد والبطلان فى وقته. فالرواية تكذب نفسها بنفسها، ويحتمل ان تكون مما دسه اعداء بنى هاشم، وخصوصا اعداء ابناء فاطمة (ع) والعلويين، فان فاطمة ومن ثم اولاد الرسول (ص) وائمة الشيعة انما كانواحصيلة هذا الزواج.

اولاد الرسول من خديجة

روى ابن سعد [۱۱۱] عن هشام بن محمد الكلبى عن ابن‌عباس، قال: «كان اول من ولد لرسول اللّه (ص) بمكة قبل النبوة القاسم، وبه يكنى، ثم زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم ام كلثوم، ثم ولد له فى ا»سلام عبد اللّه فسمى الطيب والطاهر، وامهم جميعا خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى، وامها فاطمة بنت زائدة بن الاصم، وكان اول من مات من ولده القاسم، ثم مات عبداللّه بمكة، فقال العاص بن وائل السهمى: قد انقطع ولده فهو ابتر، فانزل اللّه تعالى: (ان شانئك هو الابتر) «الكوثر: ۳».

مشاركة الرسول فى ترميم الكعبة

ان الرسول (ص) كان قد ساهم فى شبابه وقبل بعثته فى ترميم بناء الكعبة، وقد وقع اختلاف فى تقدير وتحديد عمر الرسول (ص) حينئذ، حيث قال الازرقى: «ان الرسول (ص) كان غلاما» واضاف الازرقى: «فنقلوا الحجارة ورسول اللّه يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحى، ينقل معهم الحجارة على رقبته، فبينا هو ينقلها اذ انكشفت عزة كانت عليه فنودى يا محمد عورتك، وذلك اول ما نودى واللّه اعلم، فما رؤيت لرسول‌اللّه (ص) عورة بعد ذلك... فشد رسول اللّه (ص)ازاره، وجعل ينقل معهم». [۱۱۲] .وقال ابن اسحاق: «فلما بلغ رسول اللّه (ص) خمساوثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبناء الكعبة». [۱۱۳] .ويعتقد ان رواية ابن اسحاق هى الاصح، فسنرى ان الرسول حين اختير ليحكم فى قضية الحجر الاسود والاختلاف الذى وقع فيمن ينال شرف رفعه، قالوا: «هذا الامين» وذلك لاينسجم مع كونه طفلا او غلاما. وقد وقع اختلاف ايضا فى اسباب ترميم الكعبة، فقال ابن‌سعد: «كانت الجرف مطلة على مكة، وكان السيل يدخل من اعلاهاحتى يدخل البيت فانصدع، فخافوا ان ينهدم». [۱۱۴] .وروى الازرقى فى تاريخ مكة: «ان امراة تجمر الكعبة، فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها، وكانت الكسوة عليها ركاما بعضها فوق بعض، فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانها من كل جانب». وذكر الازرقى فى المصدر نفسه قضية السيل. وكانت جدران الكعبة قصيرة على ما يبدو، كما ان بنيانها كان من الحجر الذى وضع دون ملاط يشده الى البعض، حيث جاء فى سيرة ابن هشام: [۱۱۵] «انها كانت رضما فوق القامة، فارادوا رفعها وتسقيفها ولهذا وقعت تلك السرقة المعروفة للكعبة، حيث جاء فى الصفحة نفسها من سيرة ابن هشام، ان نفرا سرقوا كنزا للكعبة، وقيل ان ابا لهب عم الرسول (ص) وعدوه اللدود كان احد المشاركين فى هذه السرقة. كان باب الكعبة ملاصقا للارض، وبحيث يمكن الدخول الى داخلها، ويبدو ايضا ان الكعبة لم يكن لها سقف، وكان البحر قد رمى بسفينة الى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت، واخذوا خشبها، فاعدوه لتسقيفها، واذنوا لاهلها اى اهل السفينة ان يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاع على ان لايعشروهم، وكانوا يعشرون

من دخلها من تجار الروم، ويقول ابن هشام: «وكان بمكة رجل قبطى نجار فتهيا لهم فيانفسهم بعض ما يصلحها». [۱۱۶] .وفى رواية اخرى للازرقى: انه كان فى السفينة رومى نجاربناء يسمى باقوم كان قد ساعدهم فى بنائها [۱۱۷] .وبعد تهيب وخوف من غضب اللّه، قامت قريش بهدم جدر ان الكعبة، قال الازرقى: «فلما وضعوا ايديهم فى بنائها قالوا: ارفعوا بابها من الارض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقى الابسلم، ولا يدخلها الا من اردتم، ان كرهتم احدا دفعتموه، ففعلوا ذلك وبنوها بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا الى موضع الركن فاختلفوا فى وضعه، وكثر الكلام فيه، وتنافسوا فى ذلك، فقال بنو عبد مناف وبنو زهرة: هو فى الشق الذى وقع لنا، وقالت تيم ومخزوم: هو فى الشق الذى وقع لنا، وقالت سائر القبائل: لم يكن مما استهمناعليه فقال ابو امية المغيرة: يا قوم، انما اردنا البر، ولم نرد الشر، فلا تحاسدوا ولا تنافسوا، فانكم اذا اختلفتم تشتتت اموركم وطمع فيكم غيركم، ولكن حكموا بينكم اول من يطلع عليكم من هذا الضح. قالوا: رضينا وسلمنا فطلع رسول اللّه (ص) فقالوا: هذا الامين قد رضينا به فحكموه. فبسط رداءه، ثم وضع فيه الركن، فدعا من كل ربع رجلا، فاخذوا باطراف الثوب، فكان من بنى عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان فى الربع الثانى ابو زمعة بن الاسود، وكان اسن القوم، وفى الربع الثالث العاص بن وائل، وفى الرابع ابو حذيفة بن المغيرة، فرفع القوم الركن، وقام النبى (ص) على الجدار ثموضعه بيده». [۱۱۸] .وتدل هذه الرواية على رجاحة عقل الرسول، وحسن تدبيره، وحدة ذكائه، وكفاءته، ولا غرو فى ذلك، فمن استطاع ان يغير الوجه الاجتماعى والسياسى لجزء مهم من العالم المتحضر، لا بد ان يكون له مثل هذا العقل وتلك الكفاءة، ولا نجد مبررالرد الرواية وعدم قبولها. وكما اوضحنا فان ارتفاع الكعبة كان بحدود تسعة اذرع ولم يكن لها سقف، وانما تدلى الكسوة على الجدار من الخارج وتربط مناعلى الجدار من بطنها. [۱۱۹] .وقال الوليد بن المغيرة اثناء البناء: «لا تدخلوا فى عمارة بيت ربكم الا من طيب اموالكم، ولا تدخلوا فيه مالا من ربا، ولا مالا من ميسر، ولا مهر بغى، وجنبوه الخبيث من اموالكم، فان اللّه لا يقبل الا طيبا، ففعلوا، ثم وقفوا عند المقام، فقاموا يدعون ربهم ويقولون: «اللهم ان كان لك فى هدمها رضا فاتمه». ولكن ما جمعوه من النفقة لم يكن كافيا البيت كله، لانهم لم ياخذوا من الاموال الحرام خصوصا اموال الربا، والسرقة فتشاوروا فى ذلك، فاجمع رايهم على ان يقصروا عن القواعد، ويحجروا مايقدرون عليه من بناء البيت ويتركوا بقيته فى الحجر، وعليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه، ففعلوا ذلك، وجعلوا فى بطن الكعبة اساسا يبنون عليه من شق الحجر ستة اذرع وشبرا، فبنوا على ذلك، فلما وضعوا ايديهم فى بنائها قالوا: «ارفعوا بابها من الارض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقى الا بسلم، ولا يدخلها الا من اردتم، ان كرهتم احدا دفعتموه»، ففعلوا ذلك وبنوها بسافمن حجارة وساف من خشب بين الحجارة. [۱۲۰] .فبنوا اربعة اذرع وشبرا، ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعا على هذا الذرع، ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجارة، حتى بلغوا السقف، فقال باقوم الرومى: «اتحبون ان تجعلوا سقفها مكبسا او مسطحا؟»، فقالوا: «بل ابن بيت ربنا مسطحا». قال: «فبنوه مسطحا، وجعلوا فيه ست دعائم فى صفين، فى كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامى الذى يلى الحجر الى الشق اليمانى، وجعلوا ارتفاعها ثمانية عشر ذراعا... وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلوا فى دعائمها صورالانبياء وصور الشجر وصور الملائكة، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمن وهو شيخ يستقسم بالازلام، وصورة عيسى ابن مريم وامه»، ويبدو ان هذه الصور من اعمال الروم المسيحيين وخاصة صورة عيسى ومريم عليهما السلام والافان القرشيين مشركون ولا يعتقدون بالمسيحية. وقيل: «لما كان يوم فتح مكة دخل رسول اللّه (ص) فارسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم، ثم امر بثوب وامر بطمس تلك الصور فطمست، قال: ووضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وامه عليهما السلام، وقال: امحوا جميع الصور الا ما تحت يدى فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وامه ونظر الى صورة ابراهيم فقال: قاتلهم اللّه، جعلوهيستقسم بالازلام، ما لابراهيم وللازلام». [۱۲۱] .

سيرة الرسول من البعثة حتى الهجرة

موقف الرسول من عقائد وعادات قومه قبل البعثة

ان مـا وصـل الینـا من حوادث عن حیـاة الرسول (ص) تعتبر قلیلـة جـدا، ولا ـ تمثـل سـجلا وافیـا لاـربعین عامـا او اکثر من حیـاة حافلة بالاحـداث کحیاة الرسول (ص)، ویبدو ان اکثر الذین روواسـیرته ونقلوها الی الناس لم یعاشـروا الرسول (ص) ولم یرافقوه طیلة حیاته فهنـاک فقـط قلـة من اصـحابه (ص) رافقته منـذ البعثـة وحتی الهجرة، غیر ان تقـدم سـنهم لم یمهلهم الی حین بـدا الرواة والمحققون حملتهم لتـدوین تفاصـیل الحیـاة النبویـة بنـاء علی روایـة الصـحابة الاوائـل، وجعلها فی متناول الناس، بل توفوا قبل مرحلـة التـدوین او استشهدوا فی المعارک والغزوات التی وقعت خلال حیاة الرسول (ص). کان احد هؤلاء ابا بکر بن ابی قحافة الذی رافق الرسول (ص) فترة طویلـة جـدا، وکـان قرینه فی السن تقریبـا، غیر انه لم یعش بعـد الرسول (ص) سوی سـنتین، بینما قتل الصـحابی الاخر حمزة، عم الرسول واخوه بالرضاعـة، فی معرکة احد، ودفنت معه احداث وذکریات مهمة، اما الامام علی بن ابی طالب (ع) فلم یکن له من العمر حین البعثة النبویة سوی عشـرة اعوام، فهو لا یسـتطیع اسـتحضار تفاصـیل الاحداث التی عاشـها الرسول (ص) ایام شـبابه بصورة کاملة. ورغم کل هذا فاننا یمکن ان نهتدی بذلک القدر المحدود من الاحداث التی تم تدونیها الی المقام الذی کان علیه الرسول (ص) من حسن الخلق، وحـدة الـذکاء، ورجاحة العقل والتدبیر، وشدة حبه للخیر، ومثال ذلک ما قاله (ص) حول حلف الفضول. ویسـتشف من بعض الروایـات التی نقلت هنـا وهنـاک ان الرسول (ص) کـان دائم التفکیر والتامـل فی واقع قومه قبـل البعثـة، وفی الوقت الـذی کان یرفض فیه کل المظاهر والاخلاق والاعراف الباطلـة، کان یراعی تقالیـدهم الدینیـة بالقـدر الذی لاتترک معه ای اثر فی نفسه، وبعبارة اخری کان یتجنب استفزازهم والظهور بمظهر التحدی لهم دوما، ومن البدیهی ان ذلک لا یعنی قبول عبادة الاصنام واقرارها، او العمل بماجری علیه الناس من اعراف جاهلیـة قبیحة، فهم برغم اعتقادهم بسوء تلک العادات، مثل الزنا والغزو وارتکاب القتل والسـرقة وقطع الطریق وما الی ذلک، غیر انهم کانوا لا یمتنعون عنها، وقـد مرت الاشارة الی هـذا المعنی فی مسالـة تجدید بناء الکعبة حیث قیل انهم کانوا لاینفقون علی هذا البناء من اموال الربا والسرقة او من اموال القمار والزنا، ولهذا کانت الاموال التی تجمع لهذا الغرض قلیلة. کان الرسـول (ص) فی مـوقفه مـن دین قـومه یراعی ظـواهر الاـمور، فنحن نعلم ان الکعبـة کـانت تغص بالاصـنام، وان العرب اعتـادوا علی الطواف حولهـا، یومیـا او کل عـدة ایام، سـبعة اشواط، وکان الرسول قبل البعثـة، وفی کل مرة یعود فیها من التحنث والانقطاع فی غار حراء، یذهب قبل کل شیء الی البیت ویطوف حول الکعبة، ثم ینصرف الی ممارسة شؤون حیاتهالعادیة [۱۲۲] .

التحنث فی غار حراء

مرت الاشارة سابقا الی ان هناک جماعـة من مکـة ابوا متابعة دین آبائهم، واعتزلوا قومهم وما یعبدون، وذهبوا یبحثون عن دین افضل، فاعتنق ثلاثة من هؤلاء الدیانة المسیحیة، وهم: عثمان بن الحویرث، وورقة بن نوفل، وعبیداللّه بن جحش، اما الشخص الرابع، وهو زید بن عمرو بن نفیـل، فقـد ظـل علی حیرته حتی وافـاه الاجـل، وکـان زیـد بن عمرو بن نفیـل قـد واجه اذی من عمه الخطاب ابن نفیل، فاضطر الی الابتعاد والالتجاء الی جبل حراء،الذی یبعد عن مکة مسافة ثلاثة امیال [۱۲۳] .وقد روی ابن اسحاق انه کان یوجد فی جبل حراء غار تـذهب الیهقریش ایام تحنثها [۱۲۴] .والتحنث یعنی (التبرر)، وقیل: هو التعبد واعتزال الاصـنام. وقال ابن سیده: «وهذا عندی علی السـلب، کانه ینفی بذلک الحنث، الذی هو الاثم، عن نفسه، کقوله تعالی: (ومن اللیل فتهجد به نافلة لک) «الاسراء: ۷۹» ای انف الهجود عن عینـک، ونظیره تـاثم وتحوب، ای نفی الاثم والحوب، وللعرب افعال تخالف معانیها الفاظها، یقال: فلان یتحنث من کـذا، ای یتـاثم منه، وقوله: یتحنث من کـذا، ای یفعل فعلا یخرج بهمن الحنث، وهو الاثم والحرج». [۱۲۵] .اما عن کیفیة هذا التحنث الذی کانت تفعله قریش والاسباب التی تدعوها الیه، فهذا ما لا نملک معلومات کافیة عنه، ووردفی روایة لابن اسحاق: «ان رسول اللّه (ص) کان قبل البعثة یتحنث شهرا کاملا فی کل سنة فی غار حراء، وکان یطعم کل فقیر یاتیه». ویضیف ابن اسحاق قائلا: «وکان مما تتحنث به قریش ایـام الجاهلیـة». ولم توضـح العبـارة بالدقـة ما اذا کانت قریش تتحنث شـهرا فی کل سـنة ایضا، وهل تتحنث قریش جمیعها، (وهو احتمال بعیـد) او بعضـها؟. کما ان الروایـة لم تبین جهات اخری لهذا التحنث، فربما کانت هناک اماکن اخری للتحنث غیر جبل

حراء. وجاء فى هذه الرواية، ان الرسول (ص) كان يعود بعد شهر من التحنث الى مكة، وقبل ان يباشر اى عمل يذهب ويطوف حول الكعبة سبعة اشواط وبعدها ينصرف الى بيته. وهكذا كان رسول اللّه (ص) يكرر هذا العمل فى كل عام حتى نزلعليه الوحى، وبعثه اللّه نبيا، وكان ذلك فى شهر رمضان. وهناك رواية اوردها الطبرى عن ابن شهاب الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، وقد نقلتها عن رسول اللّه (ص) بصيغة المتكلم مرة وبصيغة الغائب مرة اخرى، قالت: «كان اول ما ابتدىء به رسول اللّه من الوحى الرؤيا الصادقة، كانت تجىء مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد، ثم يرجع الى اهله فيتزود لمثلها، حتى فجاه الحق، فاتاه جبريل فقال: يا محمد، انت رسول اللّه. فجثوت لركبتى ثم رجعت ترجف بوادرى، فدخلت على خديجة، فقلت: زملونى زملونى، ثم ذهب عنى الروع. ثم اتانى فقال: يا محمد انت رسول اللّه، قال: فلقد هممت ان اطرح نفسى من حالق، فتبدى لى حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، انا جبريل وانت رسول اللّه. قال: اقرا، قلت: وما اقرا؟ فاخذنى فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد، ثم قال: (اقرا باسم ربك الذى خلق) فقرات، فاتيت خديجة، فقلت: لقد اشفقت على نفسى، واخبرتها خبرى، فقالت: ابشر، فواللّه لا يخزيك اللّه ابدا، فواللّه انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الامانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بى الى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرا الكتب وسمع من اهل التوراة والانجيل، فقالت: اسمع من ابن اخيك، فسالنى فاخبرته خبرى، فقال: هذا الناموس الذى انزل على موسى بن عمران، ليتنى كنت حيا حين يخرجك قومك. قلت: امخرجى هم؟، قال: نعم، انه لم يجىء احد مثل ما جئت به الا عودى، ولئن ادركنى يومك لانصرنك نصرا مؤزرا. ثم ان اول ما نزل عليه من القرآن بعد (اقرا)، (ن والقلم ومايسطرون) و (ياايها المدثر) و (الضحى). تشتمل الرواية السابقة على نقاط مهمة ينبغى الاشارة اليها تباعا. اول هذه النقاط الرؤيا الصادقة، او قولها: كان اول ما ابتدى به رسول اللّه من الوحى الرؤيا الصادقة، والرؤيا الصادقة هى الرؤيا التى تتجسد وقائعها وما شاهده النائم فيها على الواقع حقيقة، ولكن لا يمكن ان يصدق مثل هذا المعنى على ما نحن فيه، فان مثل هذه الرؤى تتكرر وتشيع، ثم ما هو وجه الشبه بينها وبين فلق الصبح؟ النقطة الثانية قول الرواية: ان اول ما نزل على رسول اللّه (ص) من القرآن الكريم (اقرا باسم ربك) اذن ما الذى نزل فى تلك الرؤيا الصادقة التى كانها فلق الصبح؟ لا يمكن اعطاء اجابات صحيحة ودقيقة على هذه الاسئلة، اذلم يسبق لاحد الالتفات اليها، او انه قد التفت اليها لكنه تركها دون اجابة، او اننى لم اطلع على الاجابات، واعترف بعدم اطلاعى على معلومات كثيرة قالها او سجلها علماء السيرة. اما ما يمكن ان يقال عن قولها: «اول ما ابتدى به رسولاللّه (ص) من الوحى الرؤيا الصادقة. فان الرواية قد تكون فى صدد بيان مقدمات الوحى لا الايات نفسها التى نزلتعليه (ص)، او تلك المقدمات التى كانت نتيجة تفكيره العميق بالعالم والخالق ومصير الانسان، وباقى المسائل التى كشفت له، ليس عن طريق الوحى و (القول) و (الكلام) و (القرآن)، وانما بالطريقة التى يمكن ان يصل اليها كل المفكرين والمتعمقين بمسائل الكون وقضايا الخلق والانسان، وتنكشف لهم بواسطتها حقائق مهمة وخطيرة. كالتفكر الذى قاده الى الاقتناع ببطلان الدين الذى كان عليه قومه ومعاصروه، وجعله متيقنا بضلالتهم، وقاطعا بعدم جدوى تلك الاصنام وعجزها عن النفع او الضر. لقد ثبت له ان الشمس والقمر والليل والنهار كلها موجودات مسيرة لا تملك الا ان تجرى ضمن نظام شامل وضعته لها قوة هى اعلى واقوى من هذه الموجودات واشرف منها جميعا. لقد اتضح لرسول اللّه (ص) ان تلك الاعمال السيئة والافعال القبيحة كلها، التى كان يقوم بها اهل مكة وباقى العرب من الفسق والفجور والحرب والجدال والغزو واكل المال بالباطل واحتقار النساء ووادِ البنات، نابعة من اخلاق فاسدة صنعها هؤلاء واعتادوا عليها، ولا سبيل لاصلاح اوضاعهم الاجتماعية وتبديل قيمهم الاخلاقية وتزكية نفوسهم وتطهيرها الا بنظام جديد، ودين الهى يندفعون الى تطبيقه، من خلال ايمانهم واعتقادهم الراسخ به. لقد آمن الرسول (ص) ان لا سبيل الى توحيد العرب وانقاذهم من حالة الانحطاط التى كانوا عليها ما دامت القيم القبلية والعصبيات العنصرية تحكمهم وتسيطر عليهم، كما آمن ايضا، قبل بعثته، ان الطريقة الوحيدة التى يمكن من خلالها تغيير اوضاع الناس وانقاذهم من حالة التخبط والضياع، انما تكمن فى رجوعهم الى اللّه تعالى وايمانهم به وحده دون غيره، ليشرع لهم من الدين ما يمكن ان يبدل ضعفهم قوة، وتمزقهم وحدة، وضلالهم هدى ورشادا،

وحينها لن تستطيع قوة اخرى قهرهم واستعبادهم واستضعافهم. لقد كانت هذه الكشوفات والرؤى تمثل مقدمة وتوطئة للوحى، وهى التى عبرت عنها الرواية بالقول: «اول ما ابتدى به من الوحى الرؤيا الصادقة كانت تجىء مثل فلق الصبح»، وجاء فى الرواية: «ثم حبب اليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالى». والتحنث كما قلنا حالة روحانية كان يصل اليها بعض اهل مكة احيانا فيقومون اضافة الى تادية عباداتهم الخاصة، كالطواف حول الكعبة، وتقديم القرابين للاصنام، واداء مراسم الحج، والامتناع قدر الامكان عن اللغو فى القول وارتكاب المعاصى باعتزال الناس والذهاب الى اماكن خاصة يختلون فيها بانفسهم، غير انه لا يعرف الان ما هى العوامل التى كانت توصلهم الى مثل هذه الحالة الروحية وتمنحهم اياها؟جاء فى رواية ابن اسحاق عن عبيد بن عمير: [۱۲۶] .«ان رسول اللّه (ص) كان يذهب فى كل سنة شهرا الى هناك ويتحنث». وجاء فى رواية الطبرى كذلك عن ابن شهاب الزهرى، عن عائشه، والتى نقلنا فقرات منها قبل قليل، ومما جاء فيها: «ثم حبب اليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيه»، وقلنا ان هذا التحنث حدث للرسول (ص) بعد ما شاهده من الرؤيا الصادقة، او مقدمات الوحى، اما بعد نزول الوحى فقد انتابته حالة خاصة من الخوف والخشية، عبرت عنها الرواية بالقول: «فلقد هممت ان اطرح نفسى من حالق»، اى هممت ان ارمى بنفسى من شاهق، لقد كانت نتيجة تلك الحالة ان دفعته الى اعتزال القوم و (التحنث) الذى ادى بدوره، ونتيجة التفكر العميق باوضاع الناس الاجتماعية والدينية، الى اكتشاف ضلال القوم وبطلان عقائدهم. وبعد هذا الانكشاف والوضوح اللذين تما للرسول عن حالة المجتمع اخذ يعتزل الناس اكثر ويشعر بالحاجة الى الاختلاء بنفسه، والاستغراق فى التفكير بمصير الانسانية وما حصل له من حالات خاصة من التجلى، واتخاذ الموقف المناسب من هذه المستجدات، وبينما هو على هذه الحالة من التحنث والتطهر والسمو الروحى، نزل عليه الوحى الحقيقى بصورة جبرئيل بنداء: (اقرا) فلما طرق النداء سمعه ارتجف جسمه كما جاء فى الرواية: «فجثوت على ركبتى ثم رجعت ترجف بوادرى، فدخلت على خديجة، فقلت: زملونى زملونى، ثم ذهب عنى الروع، ثم اتانى فقال: يا محمد، انت رسول اللّه. قال: فقلت: فلقد هممت ان اطرح نفسى من حالق، فتبدى لى حين هممت بذلك فقال: يامحمد، انا جبريل، وانت رسول‌اللّه. قال: اقرا. قلت: وما اقرا؟ قال: فاخذنى فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد، ثم قال: (اقرا باسم ربك الذى خلق» فقرات، فاتيت خديجة، فقلت: لقد اشفقت على نفسى، واخبرتها خبرى، فقالت: ابشر فواللّه لا يخزيك اللّه ابدا، فواللّه انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الامانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت بى الى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرا الكتب وسمع من اهل التوراة والانجيل، فقال: هذا الناموس الذى انزل على موسى بن عمران، ليتنى كنت حيا حين يخرجك قومك». وجاء فى حديث آخر رواه الطبرى [۱۲۷] عن عبداللّه بن‌شداد، قال: «اتى جبريل محمدا (ص) فقال: يا محمد، اقرا. فقال: ما اقرا؟ قال: فضمه، ثم قال: يا محمد، اقرا. فقال: ما اقرا؟، فقال: فضمه، ثم قال: يا محمد، اقرا. قال: وما اقرا؟ قال: (اقرا باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق) «العلق: ۱-۵» حتى بلغ (علم الانسان ما لم يعلم) قال: فجاء الى خديجة، فقال: يا خديجة، ما ارانى الا قد عرض لى. قالت: كلا واللّه ماكان ربك يفعل ذلك بك، ما اتيت فاحشة قط، قال: فاتت خديجة ورقة بن نوفل فاخبرته الخبر، فقال: لئن كنت صادقة، ان زوجك لنبى، وليلقين من امته شدة، ولئن ادركته لاؤمنن به» ويفهم من عبارة: «ما ارانى الا قد عرض لى» ان هناك شعورا بالاضطراب والدهشة كان ينتاب الرسول (ص) فى بداية نزول الوحى. ما عسى يكون هذا الامر المزعج؟ ان الابهام الذى ورد كما قلنا فى رواية الطبرى عن عبد اللّه بن‌شداد بقوله: «قد عرض لى» يمكن ان يرتفع بما ورد فى رواية ابن اسحاق عن عبد الملك بن عبداللّه بن ابى سفيان الثقفى، غير اننا يجب ان نقول اولا: ان هذه الرواية كان قد اوردها ابن‌هشام بصورة ناقصة مبتورة، ولم يذكر فيها المورد الذى نستنداليه. لقد ورد هذا الجزء بصورة كاملة ومفصلة فى جزء من نص سيرة ابن اسحاق التى نشرها محمد حميد اللّه معتمدا على نسخة القرويين. [۱۲۸] ووردت ايضا فى رواية الطبرى عن سلمة بن محمد بن اسحاق، عن وهب بن كيسان، [۱۲۹] ولم ترد هذه النقطة ايضا فى سيرة ابن هشامفى نقله لرواية وهب بن كيسان. [۱۳۰] .ونحن نحتمل ان تكون رواية عبد الملك بن عبداللّه فى‌الطبرى، قد ادمجت مع رواية وهب بن كيسان، فان اغلب عبارات الروايتين متكررة. اما الذى ورد فى كل من سيرة ابن هشام وسيرة ابن اسحاق (نسخة القرويين)

وتاريخ الطبرى فهو القول بـان سورة (اقرا) كـانت اول ما نزل به جبرئيل على النبى (ص) وان النبى كان حين نزول هـذه السورة نائما. ففى رواية ابن هشام: [۱۳۱] «فجاءنى جبريل (ع) وانا نائم، بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرا. قال: قلت: ما اقرا؟، قال: فغتنى به حتى ظننت انه الموت، ثم ارسلنى، فقـال: اقرا. قـال: قلت: مـا اقرا؟. قـال: فغتنى به حتى ظننت انه الموت.... قـال: فقلت: مـاذا اقرا؟، ما اقول ذلك الا افتـداء منه مخافة ان يعيـد ما صـنعه بى؟، فقال: (اقرا باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق، اقرا وربك الاكرم، الذى علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم) «العلق: ۱- ۵» قال: فقراتها، ثم انتهى فانصرف عنى، وهببت من نومى فكانما صور فى قلبى كتابا». ساعود الى قصة النوم هذه، اما ما اريد بيانه هنا فهو الشىء الذى ورد فى الرواية التالية، والذى يمكن ان يكون تفسيرا لقوله: «قد عرض لى»، ذلـك هو قوله (ص) الـذى جاء فى سيرة ابن اسـحاق (نسـخه القرويين ص ۱۲۱): [۱۳۲] «ولم يكن فى خلـق اللّه عز وجـل احد ابغض الى من شاعر او مجنون، كنتلا اطيق ان انظر اليهما فقلت: ان الابعد يعنى نفسه لشاعر او مجنون. ثم قلت: لا تحدث قريش عنى بهـذا ابـدا. لاعمـدن الى حـالق من الجبـل فلاطرحن نفسـى منه فلاقتلنها فلا ستريحن»...الى ان يقول: «وانصـرفت راجعا الى اهلى حتى اتيت خديجـة، فجلست اليها، فقالت: يا ابا القاسم، اين كنت؟ فواللّه لقد بعثت رسـلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا، فقلت لها: ان الاـ بعـد لشـاعر او مجنون. فقـالت: اعيـذك بـاللّه يـا ابا القاسم من ذلك، ماكان اللّه عز وجل ليفعل بك ذلك مع ما اعلم من صـدق حـديثك وعظم امانتـك وحسن خلقـك وصـلة رحمـك». كـان حـديث خديجـة مع النبى (ص) وجوابها على عبارة: «ما ارانى الا قد عرض لى» التى وردت فى روايـة عبـداللّه بن شـداد هو جوابها نفسه على ما ورد فى روايـة وهب بن كيسان اوعبد الملك بن عبداللّه: «الابعـد شـاعر او مجنون». فمن الواضـح ان هـذا الامـر الـذى ازعجه وعرض له انمـا هو ما كان يفكر به الرسول (ص) من (انه شاعر او مجنون) [۱۳۳] وهو الذى جعله يقول: «لاعمدن الى حالق من الجبل فلاطرحن نفسى منه». ان ما ورد فى رواية ابن شهاب الزهرى، عن عروة بن الزبير،عن عائشـة، والتى وردت فى تاريـخ الطبرى، ونقلناها نحن، تؤيـد هـذه النقطة التى اشـرنا اليها، لقد جاء فى ذيل الرواية المـذكورة قوله (ص): «ثم كان اول ما نزل على من القرآن بعد (اقرا)، (ن والقلم وما يسـطرون، ما انت بنعمة ربك بمجنون، وان لك لاـجرا غير ممنون، وانـك لعلى خلق عظيم، فستبصـرو يبصـرون) «القلم: ۱ – ۵». وتتلو هـذه الايـات من السورة نفسـها الايات: (بايكم المفتون، ان ربـك هو اعلم بمن ضـل عن سبيله وهو اعلم بالمهتـدين...) «القلم: ۶ – ۷» التى لم تـذكرها الرواية، واعتقد انها نزلت فى المناسبة نفسـها. امـا مـا تبقى من آيات فى هـذه السورة، فتكشف مضامينها عن انها انزلت فيما بعـد، كما ان سورة (اقرا) او (العلق) لم تنزل كلهـا فى بـدايات الوحى، بل الـذى انزل منها بادىء الامر هو اول السورة الى قوله تعالى: (علم الانسان ما لم يعلم). كما صـرحوا بـذلك. اما كيف تؤيـد بدايـة سورة القلم النقطة المشار اليها؟ ذلك لانها اخرجت الرسول (ص) من حالة الشك والاضـطراب المشار اليهما فى قوله: «انى اخشى ان يكون فى جنن»، حين خاطبته قائلة: (ن والقلم وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون، وان لك لاجرا غير ممنون، وانـك لعلى خلق عظيم، فستبصـرو يبصـرون) وفى ذلـك اشـارة الى المعنى نفسه الـذى تحـدثتعنه خديجـة حيث قالت: «اعيـذك بـاللّه يـا ابـا القاسم من ذلك، ما كان اللّه عز وجل ليفعل بك ذلك مع ما اعلم من صـدق حـديثك وعظم امانتك وحسـن خلقك وصلة رحمك». [۱۳۴] .ثم تاتى بقية الايات تباعا لتسلى الرسول وتطمئنه حيث تقول: (فستبصر ويبصرون، بايكم المفتون، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتـدين). ورغم ان الوحى كان ما يزال فى بـدايته، ولم يصدر بعد الامر بالانذار، لكن الايـات تتجه الى معنى آخر جـاء فى متن الروايـة وهو ان النبى (ص) قال: «ان الا بعـد يعنى نفسه لشاعر اومجنون، ثم قلت: لا تحـدث قريش عنى بهذا ابدا» فياتى القرآن الكريم ليطمئن الرسول (ص) ويسليه ويقول له: (فستبصـرو يبصرون، بايكم المفتون، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتـدين). اما ما جاء فى رواية وهب بن كيسان فى سـيرة ابن هشام والطبرى، ورواية عبد الملك بن عبـد اللّه فى سـيرة ابن اسـحاق، من ان سورة العلق انزلت على الرسول (ص) وهو نائم، فان ذلك له علاقـة بتلك العبارة من الرواية التى قـالت: «جـاءنى جبرئيـل وانـا نـائم بنمـط من ديبـاج فيه كتـاب، فقـال: اقرا» والنبى (ص) لم يكن يكتب، وربمـا كان لا يقرا ايضا. فحينعرض عليه هـذا الكتـاب وهو نـائم وقيـل: «اقرا»، قـال اولاـ «مااقرا؟» بمعنى اننى لا اقرا. قال: «فغتنى به حتى ظننت انه الموت، ثم

ارسلنى فقال: اقرا، قال: فقلت: ماذا اقرا؟ ما اقول ذلك الا افتداء منه ان يعود لى بمثل ما صنع بى»، وهنا قال له: (اقرا باسم ربك الذى خلق...) الى ان يقول: «فانصرف عنى، وهببت من نومى، وكانما صور فى قلبى كتابا». وربما قالوا بعد هذا ان النبى (ص) يقرا ولكنه لا يكتب. لكن لا ـ توجد فى رواية عائشة اشارة الى الكتابة، حيث قال له جبرئيل: «اقرا»، وقال الرسول: «ما اقرا»؟ اى بمعنى ماذا اقرا؟ وليس بمعنى لا ـ اقرا، او لا ـ استطيع القراءة. والقراءة هنا لا ـ تعنى قراءة الشىء المكتوب، بل تعنى قراءة الشىء دون كتابة، كما يقرا الشخص القرآن عن ظهر قلب، اوكما نقرا سورة الحمد فى الصلاة. على اية حال، فان ما جاء فى رواية وهب بن كيسان من ان سورة (اقرا) انزلت على النبى (ص) وهو نائم، يمكن اعتباره نوعا من الرؤيا الصادقة، وليس المراد به المعنى الحرفى للنوم، بل النوم المرتبط بالحقيقة والواقع، فان ما قيل له فى النوم كان واقعا فعلا وحقيقة، وهو آيات انزلت عليه. ولكن عائشة كانت قد روت ان بداية الوحى كانت كالرؤيا الصادقة، ثم حدث التحنث، ثم بعد ذلك انزلت سورة (اقرا)، ولهذا فان معنى الرؤيا الصادقة هو ما سبقت منا الاشارة اليه.

خلق العالم و خلق الانسان

وهنا يطرح السؤال التالى: لماذا كان اول الوحى واول آية (اقراباسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق)؟ هل توجد نكتة معينة فى الموضوع؟ نعتقد انه من المحتمل ان (يكونالسر فى هذا وذاك) ان هاتين المسالتين، اى (خلق العالم وظهور الخلقة بصورة عامة وظهور الانسان فى عالم الطبيعة)، ظاهرتان انشغل بهما تفكير علماء الطبيعة الكبار والفلاسفة الطبيعيين والالهيين، وهما مسالتان بقيتا دون حل الى الان. ماهى بداية العالم؟ وكيف وجد عالم المادة هذا؟ هناك نظريتان معروفتان فى هذا المجال، والنظريتان يقدمان تفسيرا لظهور العالم من المادة الاولى، غير انهما لم يقدما شيئا حول خلق وظهور المادة الاولى نفسها. وعلى كل حال، فان مسالة خلق العالم كانت ولا تزال مثار اللجدل، وهكذا كانت مسالة خلق الانسان. فمن اى شىء وجد الانسان؟ هل انه ناتج عن تطور حيوان آخر، ام انه خلق بهذه الصورة التامة والهيئة الكاملة؟ وهل ان هذا الكلى الطبيعى الذى فى اذهاننا وجد فجاة ودون مقدمات؟. هذه ايضا من المسائل التى دار حولها كلام كثير، وطرحت كاجابة عليها نظريات وتفسيرات عديدة. ولهذا كان اول خطاب سماوى يوحى الى الرسول (ص) يشير الى القوة التى اوجدت هاتين الظاهرتين العجيبتين اللتين عجزت العقول والافكار عن ان تجد تفسيرا لهما. وهذا نفسه دليل على ان الرسول كان على ارتباط وعلاقة (بالمبدا) اى بما وراء الطبيعة، يتوجه اليه على انه خالق وصانع للظواهر الخارقة والامور المعقدة.

كيفية الوحى

كيف كان هذا الوحى؟ ما يظهر من الروايات هو ان الرسول كانت تنتابه حالة خاصة اثناء نزول الوحى اشبه ما تكون بحالة الاغماء والغيبوبة. جاء فى احدى الروايات وفى وصف حالة الرسول (ص) عند نزول الوحى انه: «كرب له وتربدوجهه». [۱۳۵] وورد فى رواية اخرى من المصدر نفسه: «وقذ لذلک ساعة کهیئة السكران». اما اذا نزل عليه الوحى وهو راكب، فتصف الرواية حال الناقة كالتالى: «فترغو وتفتل يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحى» وتضيف: «وانه ليتحدر منه اى العرقمثل الجمان.... [۱۳۶] .وعن عائشة: «ان الرسول قال لما ساله الحارث بن هشام عن كيفية نزول الوحى عليه: احيانا ياتينى فى مثل صلصلة الجرس وهو اشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال، واحيانا يتمثل لى الملك فيكلمنى فاعى ما يقول. وقالت عائشة: «ولقد رايته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وان جبينه ليتفصد عرقا». وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «كان النبى اذا نزلعليه الوحى يعالج من ذلك شدة، قال: كان يتلقاه ويحرك شفتيه كى لا ينساه، فانزل اللّه عليه: (لا تحرك به لسانك لتعجل به) لتعجل باخذه (ان علينا جمعه وقرآنه) «القيامة: ۱۷» انعلينا ان نجمعه فى صدرك، قال: (قرآنه) ان يقراه، قال: (فاتبعقرآنه)، «القيامة: ۱۸» قال: انصت (ان علينا بيانه) «القيامة:

١٩»ان نبينه بلسانک، قال: فانشرح رسول اللّه (ص»). کل هـذه الروايات تجمع على شـىء واحـد، ذلک هو دخول الرسول (ص) فى حالـة من الشـدة الغير العاديـة حين نزول الوحى عليه، ولا يمکن ان يقال عنها بانها مرض جسـدى او نفسـى، اذ لم ير حتى الان مرض جسـمى او نفسـى ياتى على اثره کلام من العلو والبلاغة بحيث يعجز الفصـحاء عن تقليده وتتضاءل قدرة البلغاء عن مجاراته، ويحتوى على معـان من السـمو والرفعـة بحيث مـا زالت تکتب العقول المفکرة فى تفسـيرها مئـات وآلاـف الکتب. وعبثـا يحاول بعض الکتاب الغربيين اکتشاف نوع المرض الـذى يزعمون ان الرسول (ص) کان يشـکو منه، فسـيکلفون انفسـهم مشاق البحث عنه دون جدوى! ان شيئـا کهـذا الـذى يوصف لم يشاهـد فى قائمـة الامـراض والاعراض والعلل، سواء الجسديـة منها او النفسـية. نعم، هناک فى الامراض البدنية والنفسـية حالات تنتاب المريض فياخذ بالهذيان والکلام الغير متزن. ولکن ما نوع هذا المرض الذى کانت نتيجته کتابا سـماويا هو مقتدى البشرية ومهتداها؟.

يا ايها المدثر

تؤکد اشـهر الروايات ان اول آية نزل بها الوحى على الرسول (ص) هى (اقرا) اى الاية الاولى من سورة العلق، وقد صـرحت رواية ابن شهاب الزهرى التى اوردها الطبرى ص١١٥٥ ان اول مـا نزل على الرسول (ص) سورة (اقرا) الى (علم الانسان ما لم يعلم). بينما ذهبت رواية ابى سـلمة التى سـمعها عن جابر بن عبداللّه الانصارى الى ان آيات (يا ايها المدثر) کانت هى الايات الاولى التى نزل بها الامين على رسـول اللّه (ص). غير ان الصـحيح هو ان سورة (اقرا) الى قوله تعـالى: (علم الانسـان مـا لم يعلم) کـانت هى فاتحـة القرآن واول آيـاته، حيث بـدات بالتاکيـد على ان اللّه هو الخالق لهـذا العالم والبارى لهـذا الانسان، وبعـد ان لفتت انتباه الانسان الى ذلک، حولت الانظـار الى مسالـة العلم والتعلم، وجعلت ذلک بمثابـة المائز الاساسـى الـذى امتاز به الانسان على سائر المخلوقات بما فيها الملائکـة، حيث صـرحت الايات (٣١– ٣٣)، من سورة البقرة على ان اللّه علم آدم الاسـماء کلهـا ثم دعـاه الى ان يعلم الملائکـة تلـک الاسـماء. ونعتقـد ان السـبب وراء ورود بعض الروايات، مثل روايـة ابى‌سـلمة، عن ان آيات (يا ايها المدثر) کانت هى الايات الاولى فى النزول، يعود الى ان تلـک الايـات کـانت اول مـا نزل على الرسول (ص) بعـد فترة انقطاع حزن لها الرسول (ص) کثيرا، وکان يجوب الجبال، ويـدعو اللّه سـبحانه وتعالى، حتى انه عاد يوما الى منزله خائفا وجلا بعـد ان شاهـد شـيئا فى السـماء، فـدعا الى ان يدثر، وهنا نزل عليه الوحى بالايات (يا ايها المـدثر، قم فانذر، وربک فکبر، وثيابک فطهر، والرجز فاهجر) «المدثر:١ –٥» فکانت هذه الايات الکريمة اول ما هبط به الوحى على صـدر الرسول بعـد فترة انقطاع اليمـة. وفى الوقت الـذى لفتت فيه سورة (العلق) الانتباه الى خلق العالم والانسان جـاءت الايات الاولى من سورة المـدثر لتامر الرسول (ص) ان ينـذر قومه ويـدعوهم الى الاسـلام، فهى اول آيات التبليغ والاعلان عن الرسالة، ولهذا فالمقصود من انها اول الايات کما جاء فى الرواية اى انها اول آيات الانذار والتبليغ والاعلان عن رسالة الرسول (ص).

المسلمون الاوائل

کـانت خديجـة بنت خويلـد زوجـة الرسول (ص) اول من آمن به وايـده وآزره. امـا فى شان من آمن به اولا من الرجال فقـد اختلفت الروايات فى کونه اما على بن ابى طالب (ع) او زيد بن حارثة او ابو بکر بن ابى قحافة.

على بن ابى طالب

کان على بن ابى طالب (ع) يبلغ من العمر حين نزول الوحى احد عشر عاما، وکان يقيم مع رسول اللّه (ص) فى المنزل نفسه، وجاء فى روايـة لابن اسـحاق ان من نعم اللّه سـبحانه وتعالى على الامام على (ع) ان کانت نشاته وتربيته على يد الرسول (ص) وفى منزل واحد جمعهما معا منـذ الطفولـة. فبعـد ان تعرضت قريش للقحط واصابها الفقر والجوع، ذهب الرسول (ص) الى عمه العباس وکان اکثر بنى

هـاشم ثراء وطلب اليه الـذهاب الى عمه الاـخر ابى طالب وكان اكثر بنى هاشم عيالا واضـعفهم حالا ليطلبا منه التخفيف من عياله، بان يتعهد كل واحد منهما باعالة احد ابنائه الذكور. فوافق العباس ورافق الرسول الى ابى طالب الذى استجاب هو الاخر للاقتراح وخيرهما بين ابنـائه بعـد ان احتفـظ بعقيل لنفسه، فاخـذ العباس جعفرا واختار الرسول (ص) عليا، وهكـذا بقى على (ع) مع رسول اللّه (ص) منذ ذلك الحين وحتى نزول الوحى وبعثـة الرسول (ص) فـآمن به على (ع) وصدقه ونصـره. جاء فى الروايات ان عليا (ع) كان يرافق ابن عمه فى جولاته بين جبال مكة وشـعابها خفية عن ابيه ابى طالب، وكانا يصـليان معا هناك ويعودان عند الغروب. وذكرت الصـلاة هنا فى اشارة الى انها كانت اول ما نزل من الفرائض على رسول اللّه (ص) ولهـذا كانا يصـليانها خارج مكـة وبعيـدا عن اعين القوم الى ان عثرعليهمـا يوما ابو طالب وهما واقفان للصـلاة، فسال ابن اخيه: «اى دين هـذا الـذى انتما عليه؟» فاجابه (ص): «هـذا دين اللّه وملائكته ورسله، هذا دين ابينا ابراهيم (ع)، وانت احرى القوم بالدخول فى هذا الدين وتاييدنا ونصرتنا فى دعوتنا هذه». فاجابه ابوطالب: «يا ابن اخى، انى لاـ اسـتطيع الخروج من دين آبـائى واجـدادى، ولكن اعلم انه سوف لن يسـتطيع احـد ان يلحق بكم مكروهـا ما دمت حيا». وعنـدما نعلم ان عليـا (ع) قـد كبر وتربى فى بيت الرسول (ص) منـذ نعومـة اظفـاره، فلاـ غرابـة حينئـذ من ان يكون اول الناس اسـلاما واقدمهم ايمانا، بل سـيكون ذلك امرا بديهيا، ولو صدر من على (ع) شـىء يسـتشف منه كراهته الدخول فى الاسـلام (معاذ اللّه) لظهر ذلك ووصل الينا، ولا يجد المتتبع صعوبة فى التوصل الى هذه الحقيقة حتى مع قطع النظر عن الروايات والوقائع التى نصت عليها.

زيد بن حارثة المعروف بزيد الحب

كان زيـد بن حارثـة الكلبى ثانى رجل يدخل الاسـلام طبقا لقول ابن اسـحاق اى الرجل الاول بعد على بن ابى طالب (ع)، وكان زيد مولى لرسول اللّه (ص) اعتقه فدعاه ابنا له. نقل قصة اسره وتحريره ابن هشام فى سـيرته، [۱۳۷] وابن سعدفى طبقاته. [۱۳۸] .لقد كان زيد بن حارثة، فضـلا عن سـبقه فى الاسـلام، من اقرب الصـحابة لرسول اللّه (ص)، وزيد من بنى كلب العائدين لقضاعة، وامه سعدى من بنى معن الـذين يرجع اصـلهم الى قبيلـة طىء، وعندما كانت امه فى زيارة لقومها بنى معن مع ولدها زيد تعرضت ديارهم لغزو من قبل بنى القين بن جسـر، الذين اخذوا معهم زيدا وهو فى سن الصـبا اسيرا، ثم باعوه فى سوق الحباشة على رواية ابن هشام، وفى سوق عكاظ وفقا لروايـة ابن سـعد. وكان قد اشتراه حكيم بن حزام الاسدى لعمته خديجة زوجة الرسول (ص) باربعمئة درهم، وكان حكيم بن حزام طبقا لما جاء فى سيرة ابن هشام قـد اشتراه مع مجموعـة من الغلمان وجاء بهم الى مكة فعرضـهم على خديجة لتختار احدهم عبـدا لها، فاختارت زيدا على غيره، ثم وهبته لرسول اللّه (ص) بعد زواجها منه، وكان بنو كلب قد ذهبوا الى حارثة فاخبروه بما جرى، فقرر السـفر الى مكـة مع اخيه شـراحيل ليشترى زيـدا من سوق النحاسـة ويعود به، وهناعرض حارثة على الرسول (ص) مبلغا من المال لقاء تحرير زيد، فلما عرض الرسول (ص) الامر على زيد فضل زيد، الذى بهرته اخلاق الرسول (ص)، البقاء معه (ص) على السـفر مع ابيه وعمه، وكـان الرسول (ص) قـد حرره واعلن فى حجر اسـماعيل ان زيـدا بمثابـة ابن له وسـيرته من بعـده، فعـاد كـل من والـد زيد ووالدته الى ديارهم وهما راضـيان مسروران، فصار يدعى زيد بعدها زيد بن محمد (ص)، فنزلت الايات الكريمة: (وما جعل ادعياءكم ابناءكم..) و (ادعوهم لابائهم) «الاحزاب: ۴، ۵» فعاد زيـد مرة اخرى زيد بن حارثة. وبهذا يتضح ان زيدا كان احد افراد عائلة الرسول (ص) عنـد نزول الوحى، فمن الطبيعى جـدا ان يكون اول من آمن به بعدعلى (ع) وخديجة، ولو ان الرسول (ص) اخبر عليا (ع) بنزول الوحى عليه قبل اخبارها لكان اسبق منها فى الاسـلام. لقـد قام معاوية بعد توليه الخلافة بابلاغ عماله فى جميع الامصار بضـرورة النيل من على بن ابى طالب (ع) وشتمه والانتقاص منه فى السر والعلن وعلى المنابر فى المساجد وفى التجمعات الخاصة والعامة. وظل الامر هكـذا حتى ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز عام (۹۹- ۱۰۱ه) على اقل تقـدير، واذا كان السب قـد انتهى حينها، فان اثره وما تركه فى النفوس لم ينته حتى بعد قرون لاحقة، فلم يال اعداء على (ع) جهدا فى النيل منه والاساءة اليه، غير انهم عجزوا عن ان يمسوا شـيئا من فضائله (ع)، سـيما فضائله المسـلمة كسـبقه الى الاسـلام، حيث لم يسـتطيعوا اخفاءها عن الناس، لذا حاولوا تقديم زيد بن حارثة عليه،

غير انهم فشلوا فى هذا ايضا، وكانت شمس على (ع) اسطع من ان يحجبها هؤلاء رغم كل ما بذلوه من اموال طائلة وجهود كبيرة.

ابوبكر بن ابى قحافة

يعود نسب ابى بكر الى بنى تيم بن مرة من قبيلة قريش، واسمه عبدالله وابوه عثمان، ولقب ابو بكر بالصديق والعتيق، ويوصف بالرقة وحسن المعاشرة، وقيل انه كان محبوبا فى قومه وكانعالما بانساب العرب، يعرف زينهم من شينهم. [۱۳۹] .وكان يعمل بالتجارة، فعند اسلامه كان يملك اربعين الف درهم، سخرها لخدمة الاسلام وتقوية شوكته، حتى انه لم يعد يملك يوم هاجر مع رسول الله (ص) الى المدينةسوى خمسة آلاف درهم. [۱۴۰] .ورد فى روايات كثيرة ان ابا بكر كان اول من اسلم، ولا ـ تعارض بين هذه الروايات والروايات التى تؤكد على انعليا (ع) كان اول من آمن، وذلك لان الطائفة الاولى تتحدثعن اول الناس اسلاما من غير عائلة الرسول (ص)، بينما تختص الطائفة الثانية من الروايات بذكر عائلة الرسول (ص) وافراد اسرته التى كان على (ع) واحدا منها. هذا وقد اورد الطبرى فى تاريخه رواية تقول: ان هناك جماعة سبقت ابا بكر الى الاسلام، غير انها لمتذكر اسماء هؤلاء الجماعة، لذا لايمكن الاعتماد عليها [۱۴۱] .

الدعوة السرية و الدعوة العلنية

طبقا للروايات (ومنها الرواية التى اوردها الطبرى ص ۱۱۷۴) فان دعوة الرسول (ص) الى الدين الجديد، ظلت سرية لثلاث سنوات من تاريخ البعثة، حتى امر باعلانها من خلال الاية الشريفة: (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) «الحجر:۹۴» ثم الاية: (وانذر عشيرتك الاقربين) «الشعراء: ۲۱۴». وخلال هذه الفترة آمنت جماعة، اما بدعوة ابى بكر وتاثيره طبقا لبعض الروايات او بواسطة اشخاص آخرين.

رواية ابن اسحاق

ومن بين الذين آمنوا بتاثير ابى بكر طبقا لرواية ابناسحاق [۱۴۲] عثمان بن عفان (من بنى امية)، والزبير بن العوام (من بنى اسد من قريش)، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن ابى وقاص (وكلاهما من بنى زهرة)، وطلحة بن عبيدالله (من بنى تيم).

اعتراض على رواية ابن اسحاق

ورد على رواية ابن اسحاق هذه اعتراضان: الاول، ما جاء اول الرواية التى اوردها الطبرى (ص ۱۱۶۸) من ان ابابكر كان يدعو من يعاشرهم ويجالسهم ويطمئن اليهم الى الاسلام، وكان عمر ابى بكر حينها نحو (۳۸) سنة، وليس بينه وبين الرسول (ص) سوى عامين فقط، بينما كان عمر كل من طلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص (۱۸، ۱۶، ۱۷) سنة على التوالى، فمن المستبعد ان يكون اصدقاء وجلساء ابىبكر، البالغ من العمر (۳۸ عاما)، شبابا فى عمر المراهقة امثال طلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص، الذين تقول عنهم الرواية انهم كانوا: «ممن يغشاه ويجلس اليه». اذا لو صح اسلام هؤلاء فى هذه السن حقا، فمن المستبعد ان يكون اسلامهم على يدابى بكر. اما الاعتراض الثانى على الرواية، فهو ان الاشخاص المذكورين قد ذاع صيتهم ولقوا شهرة فيما بعد حتى اصبحوا نتيجة اعمالهم من (العشرة المبشرة) واختارهم عمر مع على بن ابى طالب (ع) فى الشورى التى عينها لينتخبوا خليفة من بينهم، لقد حفز انتخاب عمر لهؤلاء فى الشورى السداسية، وانتخابه لهم كمرشحين للخلافة من بعده، رواة الاجيال القادمة لان يعدوا هؤلاء الستة من ضمن الذين اسلموا بتاثير ابى بكر وارشاده، وانهم اقدم اسلاما من غيرهم. ورغم انه لا شك فى ان هؤلاء كانوا من المسلمين الاوائل، وقد اسلموا وهم ما زالوا شبابا، غير ان تقدمهم على الاخرين موضع شك، سيما ان هناك روايات اخرى تحكى عن تقدم اسلام اشخاص غيرهم.

كـان اولاـد واحفاد اصحاب الرسول يعتبرون تقـدم آبائهم واجـدادهم فى الاسـلام، او كونهم من المسـلمين الاوائل من دواعى الفخر العظيم لهم ولعوائلهم، لهذا فهم لا يابون صناعهٔ بعض الروايات والاخبار فى هذا الصعيد. فمثلا ادعى ابناء سعد بن ابى وقاص ان اباهم كان ثالث المسـلمين. ويمكن القول انه لو كان سـبقه الى الاسـلام من الامور المسلمهٔ واليقينيهٔ، لكان قد اختاره عمر كميزان فى تعيين حقوق المسـلمين من بيت المال بدل اختياره الاشتراک فى معرکهٔ بدر، وکما نعلم فان مسالهٔ السبق الى الاسلام کانت قد طرحت حين اراد عمر كتابـهٔ دعوات العطاء للمسـلمين، غير انها لم تقبل لانها كانت من الامور المبهمـهٔ التى لا يمكن تحديـدها بدقهٔ، وربما بسـبب كثرهٔ المدعين لها. ولهذا تم الركون الى اعتبار المشاركهٔ فى معركهٔ بدر كمقياس ومعيار فى تجديد الاعطيات.

تايید للنقد الثانى

وما يؤيد الماخذ الثانى روايهٔ اخرى اوردها ابن سـعد فى طبقاته، وهى ان عبد الرحمن بن عوف لم يدخل الاسلام ضمن مجموعهٔ ابى بكر، بل كان اسـلامه ضـمن مجموعهٔ عثمان بن مظعون. تقول الروايهٔ السابقهٔ المسندهٔ عن يزيد بن رومان ان عثمان بن مظعون وعبيدهٔ بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن‌عوف وابا سلمهٔ بن عبد الاسد وابا عبيدهٔ بن الجراح، کانوا قد ذهبوا الى رسول اللّه (ص) فلما عرض عليهم الرسول الاسـلام وبين لهم تشـريعاته وقوانينه، اسـلم هؤلاء جميعا فى ساعـهٔ واحدهٔ، وكان ذلک قبل ذهاب الرسول (ص) الى دار الارقم بن ابى الارقم، ومباشـرته الدعوهٔ من هناک. وجاء فى روايهٔ اخرى ان الارقم بن ابى الارقم کان سابع المؤمنين بالرسول (ص)، ولا تنسـجم هـذه الروايـهٔ مع روايـهٔ ابن اسـحاق، اذا ما اخـذنا بنظر الاعتبار اسـلام خديجهٔ، وعلى بن ابى طالب (ع) وزيد، وابى بكر. وان هذه الروايهٔ التى تقول ان الارقم بن ابى الارقم كان سابع رجل فى الاسلام يرويها حفيده، لهذا لا يمكننا اعتباره محايدا وغير منحازالى جده. [۱۴۳] .

احداث الرجال و ضعفاء الناس

روى محمـد بـن سـعد عـن الزهرى انـه قـال: «دعـا رسـول‌اللّه (ص) الى الاسـلام سـرا وجهرا، فاستجاب للّه مـن شـاء مـن احـداث الرجالوضعفاء الناس». [۱۴۴] .يؤيـد هـذا المعنى قائمهٔ المؤمنين الاوائل، وکذلک الرواياتالاخرى، فقد جاء فى انساب الاشـراف: «ان قريشا مشت الى ابى طالب مرهٔ بعـد مرهٔ، فكان فى المرهٔ الاخيرهٔ ان اجتمعوا فقالوا: يا ابا طالب، انا قـد جئناک مرهٔ بعـد اخرى نكلمک فى ابن اخيـک ان يكف عنا فلا يـذكر آباءنا وآلهتنا بسوء، ولايسـتغوى اولادنا واحـداثنا وعبيـدنا واماءنا». [۱۴۵] .واورد ابن سـعد فى طبقاته روايـهٔ جاء فيها: «فاقام (ص) بالطائف عشـرهٔ ايام، لا يـدع احـدا من اشـرافهم الا جاءه وكلمه،فلم يجيبوه وخافوا على احداثهم». [۱۴۶] .ونقل البلاذرى فى انساب الاشـراف روايـهٔ عن الواقدى، جاء فيها: «ان رجلا من هذيل يقال له عمرو، قدم بغنم له فباعها، ورآه النبى (ص) فـاخبره بالحق ودعاه اليه، فقال ابوجهل، وكان خفيفا حديـد الوجه والنظر به حول، انظر ما دعاک اليه هـذا الرجل، فاياک ان تركن الى قوله او تسمع منه شيئا، فانه سفه احلامنا، وزعم ان من مات منا كافرا يدخل النار بعد الموت، وما اعجب ما ياتى به! فقال الهـذلى: اما تخرجونه من ارضـكم؟ قال ابو جهل: لئن خرج من بين اظهرنا فسـمع كلامه وحلاوهٔ لسانه قوم احـداث ليتبعنه، ثم لا نامن ان يكر علينا بهم. قال الهذلى: فاين اسرته عنه؟ قال ابو جهل: انماامتنع باسرته». [۱۴۷] .وبنظرهٔ سريعهٔ الى قائمهٔ المسلمين الاوائل يتبين انهم لم يبلغوا حين اسلامهم الثلاثين عاما. لقد اشير الى ان طلحهٔ بن‌عبيداللّه کان عمره حين قتل فى معركهٔ الجمل عام (۳۶ه) قدتجاوز الستين عامـا، وهـذا يعنى ان عمر طلحـهٔ فى السـنهٔ الاولى للهجرهٔ كان اقل من ثلاثين عاما، واقل من عشـرين عاما حين دخل الاسـلام. ومن المسـلمين الاوائل الزبير بن العوام، وهو من قريش،وكان‌عمره حين اسلم ستهٔ عشر عاما. [۱۴۸] .ومنهم عبد الرحمن بن عوف من بنى زهرهٔ، وكان عمره حين اسـلامه ثلاثين سـنهٔ، وطبقا للروايهٔ التى اوردها ابن سـعد فى الطبقات ان ولادته كانت بعد عام الفيل بعشر سنوات، [۱۴۹] اى عام (۵۷۰م) والا فان عام الفيل نفسه ربما كان بعـد هذا العام، كما اشـرنا الى ذلک فى ميلاد الرسول (ص). ومنهم

سعد بن ابی وقاص، وهو من بنی زهرة ایضا، وکانعمرهسبعة عشر عاما حین اسلم. [۱۵۰] .ومنهم مصعب بن عمیر، وهو من بنی عبد الدار، وکان شابا وسیما، ذا لباس فاخر، وکان عمره حین قتل فی معرکة احد نحو اربعین عاما، مما یفید انه حین اسلم فی مکة کان عمره ثلاثین سنة. ومنهم عثمان بن عفان، من بنی امیة، وکان عمره حین قتل (عام۳۶ه) (۸۳) عاما، وفی روایة اخری (۷۵ عاما)، وبناء علی هذا فان عمره حین دخل الاسلام اما (۳۴ سنة) او (۳۷ سنة). ومنهم الارقم بن ابی الارقم، من بنی مخزوم، الذی وضع داره فی خدمة رسول اللّه (ص)، کان یوم وفاته سنة (۵۵ه) بحدود الثمانین من عمره، مما یفید ان عمره کان حین دخل الاسلام بین ال (۲۰ - ۳۰) سنة. ومنهم شماس بن عثمان المخزومی، الذی قتل فی معرکة احد عن عمر یناهز ال (۳۴) عاما، وبهذا یکون عمره یوم تشرف بالاسلام بین (۲۰ - ۳۰) سنة. وعند استعراض قائمة المسلمین الاوائل واعمارهم یتضح ان ابابکر وربما بعده عثمان، کانا اکبر المسلمین سنا، وکان عمرابی بکر حین دخل الاسلام (۳۸عاما)، ومن الطبیعی ان یکون الانسان فی عمر الاربعین فاکثر اشد ارتباطا بسنن الماضین واکثر تحفظا لها، ویصعب علیه العدول عن دین الاباء والاجداد، بخلاف الشباب الذین یتمتعون باذهان وقلوب اکثر استعدادا لاستقبال الافکار والمعتقدات الجدیدة، ویصدق هذا المعنی، بصورة وباخری علی جمیع الثورات والتحولات الفکریة والاجتماعیة والدینیة.

الضعفاء و المستضعفون

یقصد بالضعفاء والمستضعفین فی مکة عادة العبید والمستعبدون، او حتی الاحرار الذین کانت لهم سابقة رقیة فهم من المستضعفین ایضا، لانهم ما زالوا یرتبطون بنوع من العلاقة مع اسیادهم السابقین، وما زالوا یطلق علیهم الموالی. وهناک طائفة اخری من الضعفاء ایضا، وهم اولئک الذین انفصلوا عن قبائلهم لاسباب مختلفة والجاتهم الظروف الی مکة، فهؤلاء کانوا یلجاون الی احدی القبائل الموجودة فی مکة ویضعون انفسهم فی خدمتها مقابل حمایتها لاموالهم وارواحهم من الاعتداء. ورغم تحالف هؤلاء مع اشراف مکة واثریائها الا انهم کانوا لا یعتبرون من المستوی الاجتماعی نفسه، وانما یصنفون ضمن الطبقات الدنیا داخل المجتمع المکی. ومراجعة سریعة لقائمة المسلمین الاوائل تثبت انتماء غالبیتهم الساحقة الی تلک الطبقات المستضعفة، وکانت قریش نفسها قد اطلقت مصطلح المستضعفین علی هذه الجماعة من الناس. وقد نقل ابن سعد فی طبقاته روایة عن یزید بن رومان تقول: «کان عمار بن یاسر من المستضعفین الذین یعذبون بمکة... والمستضعفون قوم لا عشائر لهم بمکة، ولیست لهممنعة ولاقوة». [۱۵۱] .وروی البلاذری، [۱۵۲] عن عمر، قال: «انما ولیت عمار القول اللّه عز وجل: (ونرید ان نمن علی الذین استضعفوا فی الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثین) «القصص: ۵».

اکثر المسلمین الاوائل من الفقراء و المستضعفین

روی الطبری عن ابی العالیة، فی تفسیر الایة (۵۲) من سورة الحج ان قریش کانت تعترض علی رسول اللّه بقولها:«انما جلساؤک عبد بنی فلان ومولی بنی فلان..» [۱۵۳] .وفی روایة اخری عنه ایضا: «ان قریش کانت تقول للرسول (ص)، یامحمد، انما یجالسک الفقراء والمساکینوضعفاء الناس». [۱۵۴] .ونقل البلاذری صاحب انساب الاشراف، عن عروة بن الزبیر، قوله: «کان صهیب من المستضعفین» وروی عن مجاهد قوله: «ان القرشیین تهامسوا مع بعضهم حینما شاهدوا صهیبا یمر مع جماعة من اقرانه قائلین: انظروا الی هؤلاء الاراذل! اهؤلاء الذین من اللّه علیهم من بیننا؟». ونحاول هنا استذکار بعض المستضعفین من المسلمین الاوائل الذین صار لهم شان عظیم فیما بعد، وتجدر الاشارة الی ان اکثر هؤلاء الضعفاء او المستضعفین کانوا من الاقنان او من الاحرار الذین سبق لهم الاسترقاق.

اسماء المستضعفین طبقا لما اورده البلاذری

اشاره

اورد البلاذری فی انساب الاشراف [۱۵۵] قائمة باسماء المستضعفین، وترجم لحیاة کل واحد منهم، ویاتی الحدیث عن جوانب حیاتهم المختلفة ضمن استعراض اصحاب الرسول (ص)، ونحاول هنا الاشارة بصورة اجمالیة، الی حیاتهم لنقف علی اهم الاسباب التی دفعتهم الی اعتناق الاسلام.

عمار بن یاسر

ینتسب عمار بن یاسر الی قبیلة عنس من قبائل العرب الجنوبیة، وقد هاجر ابوه یاسر من الیمن الی مکة واقام هناک، ولانه لم یکن ینتمی الی عشیرة فی مکة اضطر الی عقد تحالف مع ابی حذیفة بن المغیرة المخزومی لحفظ حقوقه وحقن دمه. وکان حذیفة قد زوجه من احدی جواریه المدعوة (سمیة) فانجبت عمارا، فکان یجب علی عمار ضمن القوانین المتبعة فی الجاهلیة ان یکون عبدا لابی حذیفة، لانه ولد من جاریة له، وشاء ابو حذیفة ان یحرر عمارا، فصار مولا من موالی مکة. وکانت سمیة قد تزوجت بعد یاسر الازرق وهو من الغلمان الرومیین، وانجبت منه اولادا کانوا جمیعا من المملوکین. کان عمار قد التقی بصهیب فی دار الارقم بن الارقم، التی جعل منها الرسول (ص) منطلقا لدعوته المبارکة، وفی هذه الدار اعتنق الاثنان الاسلام، ثم دخل الاسلام ایضا کل من ابیه یاسر واخیه عبداللّه وامه سمیة، فغضب بنو مخزوم لذلک، وشق علیهم ان یروا موالیهم وقد فارقوا دین القوم وشقوا عصا الطاعة علیهم، فعمدوا الی تعذیبهم والتنکیل بهم، وکان نصیب عمار من هذا العذاب حصة الاسد فقد کانوا یترکونه علی الصخرة تحت اشعة الشمس الحارقة، [۱۵۶] اما سمیة فقد قتلها ابوجهل المخزومی، فاصبحت اول شهیدة فیالاسلام. [۱۵۷] .وقد بلغت شدة التعذیب حدا لم یطقه عمار، فاضطر الی التفوه بکلمة الکفر تلبیة لرغبة معذبیه، واملا فی الخلاص من التعذیب، واحس عمار بعد ذلک بتانیب الضمیر، فذهب الی الرسول (ص)، وهو منکسر یشعر بالذنب، فلما روی القصة لرسول اللّه (ص) قال: «ماذا کان یجری فی قلبک؟» قال عمار: «کان قلبی مطمئن بالایمان». فقال الرسول (ص): «ان عادوا الی تعذیبک فعد الی ما قلت». [۱۵۸] واصبح عمار فیما بعد من رجال الاسلام المشهورین، واختاره عمر لیکون والیا علی الکوفة اثناء خلافته فترة من الزمن، ودارت علیه الایام فی خلافة عثمان فنال قسطا وافرا من الابعاد والتشرید والتنکیل، الی ان استشهد مع علی بن ابی طالب (ع) فی معرکة صفین.

خباب بن الارت

کان خباب بن الارت قد اعتنق الاسلام قبل ان یتخذ الرسول (ص) من دار الارقم بن الارقم منطلقا لدعوته المبارکة، وقد دخل الاسلام مع عثمان بن مظعون، کما مرت الاشارة الی ذلک. [۱۵۹] وعده عروة بن الزبیر من المستضعفین، وقال: انه کان یتعرض لاذی شدید من قریش فیمحاولة لصده عن الاسلام، واعادته الی سابق عهده، [۱۶۰] .وقیل: انه سادس المسلمین. وخباب من اصل عراقی من منطقة کسکر، [۱۶۱] وهی منطقة زراعیة عامرة تبدا بواسط وتمتدحتی البصرة، ومرکزها فی العهد الساسانی (خسرو شابور) ثمبنی الحجاج فیما بعد مدینة واسط وجعلها عاصمة لتلک المنطقة ومرکزا لها. وکان ابو خباب قد اسر وبیع فی مکة، فدخل فی ملک امراة تدعی ام انمار بنت سباع الخزاعیة، وکانت من احلاف بنی زهرة فی مکة. وکلمة ارت التی یدعی بها ابو خباب جاءت بسبب لکنة خاصة فی لسانه حیث کان لا یحسن النطق بالعربیة. فهو اما ان یکون من آرامیی العراق او من انباطه. ولعله کان من اصل ایرانی سکن منطقة کسکر. وکان ابناؤه یدعون انتساب ابیهم الی قبیلة بنی سعد بن زید مناة بن تمیم لاثبات عروبته الخالصة ودفع الشبهات التی کانت تحوم حول اصلهم، غیر ان ذلک لا ینسجم کما هو واضح مع لکنة ابیهم الغیر عربیة. وقیل: ان الارت تزوج ام سباع، وان خبابا کان اخا سباع من امه وعلی ایة حال فان ام انمار قد اطلقت خبابا، فصار واحدا من الموالی الاحرار، وکان یشعر بالمرارة من وضعه

الاجتماعی المتدنی، ویتوق الی من یرفع عنه الضیم الذی کان یعیشه، فلم یتردد فی اعتناق الدین الجدید الذی وعد بالقضاء علی هذا النظام الطبقی وازالهٔ آثاره المقیتهٔ، لکنه واجه صنوفا من الاذی والتعذیب، قلما واجهها غیره، لافتقاده الی من یحمیه ویلوذ به من سطوهٔ قریش، رغم کل هذا لم یتراجع عنایمانه ولو ظاهریا. [۱۶۲] .اشتغل خباب بالحدادهٔ لتامین معیشته ومتطلبات حیاته، وکان له دین علی العاص بن وائل السهمی (ابی عمرو بن العاص) فاشترط علیه الاخیر العودهٔ عن الاسلام کشرط لتسدید دینه فابی ذلک، وقال: لن اتخلی عن الاسلام حتی یموت العاص فاقاضیه یوم القیامهٔ. فقال العاص: اذن فلینتظر لیقبض دینه فی ذلک الیوم. کان خباب من اصحاب امیر المؤمنین علی بن ابی طالب (ع) وتوفی فی الکوفهٔ عام (۳۷ه) عن عمر یناهز ال (۷۳) عاما.

صهیب بن سنان

کانت حال صهیب تشبه حال الارت والد خباب، فهو من اسری الروم البیزنطیین، وذو لکنهٔ واضحهٔ لا تخفی علی العرب، اذ لم یکن یجید النطق بالعربیهٔ. لکنه جعل لنفسه اوجعل له ابناؤه نسبا عربیا، اذ ادعوا انتسابه الی قبیلهٔ (نمر بن قاسط) وکان ابوه سنان عاملا علی الابلهٔ من قبل الملک الایرانی «خسرو». وکانت دیارهم فی الموصل الی جانب الفرات من ناحیهٔ (الجزیرهٔ) وکان الروم قد وصلوا الی هناک، واخذوا صهیبا اسیرا، وبقی هناک حتی کبر فصار فی عربیته (لکنهٔ) خاصهٔ، وقد اشتراه فیما بعد رجل من بنی کلب وعاد به الی مکهٔ، ثم اشتراه فیها عبداللّه بن جدعان التیمی، وهو من اشهر اثریاء مکهٔ، وکان صهیب لا یزال مع آل جدعان حتی بعث اللّه محمدا (ص) نبیا. لا تخفی آثار الوضع فی هذه القصهٔ، فعبد اللّه بن جدعان کان قد مات قبل البعثهٔ بعشر سنوات، [۱۶۳] بینما توفی صهیب بناء علی ما جاء فی الروایات فی سنهٔ (۳۸) ه عن عمر یناهز السبعین عاما، وبهذا یکون عمره یوم هجرهٔ الرسول (ص) (۳۲) عاما، ویوم بعثته (۱۹) عاما. وبعد ان کان عبداللّه بن جدعان قد مات قبل البعثهٔ بعشر سنین، فاذا ما جعلنا الفترهٔ بین البعثهٔ والهجرهٔ ثلاثهٔ عشر عاما علی اقل تقدیر، فسیکون عمر صهیب حین موت عبداللّه بن جدعان ستهٔ اعوام، ولیس من المعقولان یکون مثل هذا العمر القصیر کافیا لاستیعاب کل تلکالاحداث التی بدات بنشوئه ونموه بین اهله قومه، ثم اسرهمن قبل الروم، ثم بقائه هناک حتی نسیانه العربیهٔ وظهور لکنهٔ فی لسانه، ثم عودته الی مکهٔ وشراء عبداللّه بن جدعان له، واخیرا عتقه وتحریره. فیبدو ان هذه الروایهٔ قد وضعت من قبل ابنائه لایجاد اصل عربی له. وقد وضع ابناؤه حکایهٔ اخری عن اصله، فقالوا: انه لم یشتره احد من الروم، بل فر هو من هناک والتجا الی مکهٔ بعد ان بلغ سن الرشد، وعقد حلفا مع عبداللّه بن جدعان هناک. وتبدو هذه الروایهٔ اکثر بعدا عن الواقع من سابقتها اذ ینبغی ان یکونعمر صهیب یوم لجوئه الی مکهٔ نحو ستهٔ عشر عاما علی اقل تقدیر، فهل انه وقع تحالفا مع ابن جدعان وهو فی هذاالسن؟. وهناک روایهٔ ینقلها الحسن البصری، عن الرسول (ص)، انه قال: «صهیب سابق الروم» ای انه سبق قومه (الروم) الی الاسلام، وتدل هذه الروایهٔ علی ان صهیبا کان یونانیا خالصا، وجاءت لکنته فی العربیهٔ من اصله هذا، ویوصف صهیب بانه کان احمر البشرهٔ، وهذا یؤید کونه غیر عربی الاصل، کما ان تسمیته (صهیبا) جاءت لاحمرار لونه. هذا ویقال ان (عمر) سال صهیبا عن سبب انتسابه الی العرب، فاجابه بانه عربی من قبیلهٔ نمر بن قاسط، لکنه اسر وهو صغیر من قبل الروم، ومن الطبیعی ان یسعی صهیب لالحاق نفسه بالعرب تخلصا من الازدراء الذی قد یلحق به کما اشرناسابقا من قبل العرب لعدم عروبته [۱۶۴] .اعتنق صهیب الاسلام مع عمار بن یاسر، وکان ذلک بعد اختیار الرسول (ص)، لدار الارقم منطلقا لدعوته، ولانه کان مستضعفا، کما یقول عروهٔ بن الزبیر، فقد عانی من قریش الامرین، وترک صهیب خلفه ثروهٔ کبیرهٔ فی مکهٔ، وهاجر مع من هاجر الی المدینهٔ، وکان مما قال له القرشیون حین حاول اخذ امواله معه: لقد جئتنا صعلوکا واثریت فی مدینتنا، والان ترید اخذ ثروتک معک؟! لن نسمح لک بهذا ابدا. فاضطر صهیب الی ترک ثروته مفضلا الهجرهٔ مع رسول اللّه (ص) واصحابه الی المدینهٔ. لقد اوصی عمر قبل وفاته ان یؤم الناس من بعده صهیب، حتییتم انتخاب الخلیفهٔ من بین الستهٔ الذین اختارهم عمر للشوری، ولصهیب منزلهٔ خاصهٔ عند المتصوفهٔ واهل العرفان.

بلال بن رباح

كان بلال قد ولد فى سراة من اب حبشى جىء به اسيرا مع سائر الاسرى الحبشيين، ومن ام هى الاخرى اسيرة تدعى حمامة، اما بلال نفسه فكان غلاما لامية بن خلف الجمحى، وقد سارع الى اعتناق الدين الجديد للتخلص مما كان يعانيه من وضع اجتماعى واقتصادى سىء فى مكة، بمجرد سماعه خبر ظهور هذه الدعوة، وقد اذاقه مالكه امية بن خلف الجمحى مرارة القهر والاستعباد كاسوء ما تكون، فكان يطرحه على رمال مكة البالغة الحرارة ويضع على صدره الصخور العظيمة. يقول عنه عروة بن الزبير، الذى ذكره ضمن المستضعفين: انه تحمل اذى شديدا من سيده امية الذى صب عليه ذلك العذاب على امل ان يرده عن ايمانه، غير انه لم يرتدع ولم يجامل سيده ولو بكلمة يطلقها لسانه. وجاء فى انساب الاشراف: «كان بلال من المستضعفين المؤمنين، وكان يعذب حين اسلم ليرجع عن دينه، فما اعطاهم قط كلمة مما يريدون، وكان الذى يعذبه اميةبن خلف الجمحى». [۱۶۵] .وروى البلاذرى ايضا عن الحسن البصرى، قال: «قال رسول اللّه (ص): بلال سابق الحبشة». [۱۶۶] .وروى ايضا: «ان بلالا من مولدى بنى جمح، فكان امية يخرجه الى رمضاء مكة اذا حميت، فيلقيه على ظهره، ثم يامر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول له: لا تزال واللّه كذلك حتى تفارق دين محمد. فيقول بلال: احد احد. ويضع امية فى عنقه حبلا، ويامر الصبيان ان يجروه. فمر ابوبكر يوما وهو يعذب، فقال له: يا امية، اما تتقى اللّه فى هذا المسكين؟ فقال امية: انت افسدته، فانقذه. وكان بلال تربا لابى بكر، ومن الذين دعاهم ابو بكر الى الاسلام. فقال ابوبكر: عندى غلام اسود اجلد منه واقوى، وهو على دينك فاعطيك اياه ثمنا لبلال، قال: قد قبلت. فاعطاه ذلك الغلام، واخذبلالا فاعتقه». [۱۶۷] .وفى رواية اخرى اوردها البلاذرى فى المصدر نفسه: «ان بلالا لما اسلم اخذه اهله فقمطوه والقوا عليه من البطحاء، وجعلوا يقولون: ربك اللات والعزى، فيقول: احد احد. قال: فاتى عليه ابو بكر فقال: علام تعذبون هذا الانسان؟ فاشتراه بسبع اواق واعتقه» [۱۶۸] اى (۲۸۰ درهما)، وينسب اخو بلال نفسه الى العرب، وكان ذلك من اجل الخروج من الاحتقار والضعة التى كان عليها بين العرب كما اشرنا الى ذلك عن اشخاص آخرين. روى البلاذرى، عن الواقدى قوله: «لما كان يوم بدر راى امية بن خلف عبد الرحمن بن عوف وكانت بينهما صداقة، فقال له: يا ابا عمرو، وكان اسمه فى الجاهلية. فلم يكلمه، فقال له: يا عبدالله. قال عبد الرحمن: فالتفت فاذا انا بامية وابنه على، وبه كان يكنى، وقد اخذ بيد ابنه، وكان معى ادراع قد استلبتها، وكان مشرفا على الاسر، فساله ان يطلب له الامان، وقال: اما لكم حاجة باللبن؟ (يعنى الفداء) نحن خير لكم من ادراعك. فقلت: امضيا، واقبلت اسوقهما، فبصر بلال بامية، فقال: يا معشر الانصار، امية بن خلف راس الكفر، لا نجوت ان نجوت. قالعبد الرحمن: فاقتتلوا كانهم عوذ حنت الى اولادها، فاحاطوا بامية حتى صار مثل المسكة... وضربه بلالضربة صرعته [۱۶۹] .وكان بلال لا يشعر بالضعة لكونه حبشيا، فقد روى البلاذرى: «انه خطب بلال واخوه الى اهل بيت من البر، فقال: انا بلال وهذا اخى، عبدان من الحبشة، كنا ضالين فهدانا اللّه، وكناعبدين فاعتقنا اللّه، ان تنكحونا فالحمد للّه، وان تمنعونافاللّه اكبر». [۱۷۰] .وروى ابن سعد: «انه كان لرسول اللّه (ص) ثلاثة مؤذنين: بلال، وابو محذورة، وعمر بن ام مكتوم، فاذا غاب بلال اذن ابومحذورة، واذا غاب ابو محذورة اذن عمرو بن ام مكتوم. ولما دون عمر بن الخطاب الدواوين بالشام، خرج بلال الى الشام فاقام بها مجاهدا، فقال له عمر: «الى من تجعل ديوانك، يا بلال» قال: «مع ابى رويحة لا افارقه ابدا، للاخوة التى كان رسول اللّه (ص) عقدها بينى وبينه» فضمه اليه، وضم ديوان الحبشة الى خثعم لمكان بلال منهم» [۱۷۱] وتوفى بلال فى دمشق عام (۳۰ه) عن بضع وستين سنة.

عامر بن فهيرة

يعتبر عامر بن فهيرة من المستضعفين ايضا، وكان مملوكا لطفيل بن عبداللّه، وهو اخو عائشة بنت ابى بكر من جهة الام، وقد اسلم بعد دخول الرسول (ص) دار الارقم، وقد لاقى ما لاقاه رفاقه من صنوف الاذى والتعذيب بعد اسلامه، الى ان اشتراه ابو بكر وحرره، فكان من موالى ابى بكر، يرعى له غنمه، وهو الذى كان قد سقى رسول اللّه (ص) وابا بكر لبنا عندما كانا فى الغار، وهما فى طريق الهجرة

الى المدينة، واستشهد فى يوم «بئر معونة» فى صفر من العام الرابع للهجرة، ولم يعثر على جسده.

ابوفكيهة

وكان غلاما لصفوان بن امية الجمحى حين اسلم، فلقى من سيده امية واخيه ابى اضطهادا وتنكيلا الى الحد الذى ظن انه قد فارق الحياة، غير انه ما لبث ان عاد له وعيه فاشتراه ابوبكر.

النساء المستضعفات

لقد واجهت النساء المستضعفات والجوارى ما واجهه الرجال المستضعفون من اضطهاد وقهر وتعذيب، ومن بين النسوة اللاتى اسلمن ودفعن ثمن اسلامهن الما وعذابا: (لبينة) وهى جارية بنى عدى. و (زنيرة) وهى من جوارى بنى عدى ايضا، وقيل: من جوارى بنى مخزوم. وكان عمر ممن اضطهد (لبينة) قبل اسلامه، وحاول ردها عن الاسلام، بينما قام ابو جهل بتعذيب (زنيرة). ومن النساء المستضعفات ايضا جارية كانت لامراة من بنى عبدالدار اشتراها ابو بكر وحررها.

الذين ارتابوا فى دين آبائهم قبل الاسلام

اشاره

من بين المسلمين الاوائل جماعة كانوا قد ارتابوا فى دين آبائهم، وابوا عبادة الاصنام التى كان عليها قومهم قبل الاسلام، وقد سارع هؤلاء الى تلبية الدعوة المحمدية، وبادروا الى دخول الاسلام منذ اللحظات الاولى لظهوره حيث وجدوا فيه تلبية لامالهم وعقائدهم.

عبيداللّه بن جحش

من بين هؤلاء عبيداللّه بن جحش، وهو احد الحنفاء الاربعة، الذين كانوا قد اعتزلوا قريش كما اشرنا الى ذلک فيما سبق ووقفوا جانبا، فى يوم احتفلت به قريش، وكان الناس يقدمون الاضاحى والقرابين لاصنامهم، بينما وقف هؤلاء الاربعة ينتقدون هذه المظاهر وينكرون على قومهم بما كان لديهم من احساسات دينية خضوعهم لهذه المعتقدات الزائفة. كان عبيداللّه بن جحش، الذى يرجع الى بنى غنم بن داود، حلفاء بنى امية، احد هؤلاء الاحناف. واستمر عبيداللّه على تردده وحيرته حتى بعث اللّه الرسول (ص) فآمن به وصدقه فى دعوته، فهاجر مع المسلمين الاوائل الى الحبشة، وكانت زوجته (ام حبيبة) بنت ابى سفيان هى الاخرى قد اعتنقت الاسلام، وفى الحبشة فارق عبيداللّه الاسلام، واختار المسيحية، وهاجم رفاقه المسلمين بقوله لهم: «لقد وصلت الى اليقين الذى ما زلتم تبحثون عنه انتم». وقبل ان يعود وافاه الاجل فى الحبشة، فتزوجت زوجته (ام حبيبة) من رسول اللّه (ص) بعد وفاة زوجها.

عمرو بن عبسة

وهو من قبيلة بنى سليم من قيس بن عيلان، وقد ادعى انه رابع المؤمنين بالاسلام. وقال: انه كان يعتبر قومه فى ضياع وجهل عندما يراهم عاكفين على اصنامهم، ويقول: انه ظل هكذا حتى بعث اللّه نبيه (ص) بالاسلام، فهاجر الى مكة بحثا عنه، والتقى به فى مكة خفية، فدعاه الرسول (ص) الى الاسلام وسال الرسول (ص) قائلا: «هل لک اتباع»؟ فقال له الرسول (ص): «نعم رجلان، احدهما حر هو ابو بكر، والاخر عبد وهو بلال» فمن الرجل.وقال لرسول (ص): «يا رسول اللّه، امكث معک، ام الحق بقومى»؟ قال: «الحق بقومک»، قال: «فيوشک اللّه تعالى ان يفى بمن نزى ويحيى الاسلام»، قال: «ثم اتيته قبل فتح مكة فسلمت عليه»، قال: «وقلت: يا رسول

اللّه، انا عمرو بن عبسة، احب ان اسالك عما تعلم واجهل، وينفعنى ولا يضرك»؟ فساله [۱۷۲] عن حكم اوقات الصلاة وكيفية الوضوء. ما يدعو الى التامل فى هذه الرواية ان ذلك كله كان بادعائه هو، سيما ادعاؤه بانه كان رافضا لدين الجاهلية وكان رابع رجل فى الاسلام اى بعد الرسول وابى بكر وبلال. ومما لا شك فيه ان السبق الى الاسلام كان من المفاخر الكبيرة، وكان من اليسير لعمرو بن عبسة ان يدعى مثل ذلك، لانه لم يكن مقيما فى مكة، وعزا خروجه منها الى نصيحة من الرسول (ص)، وبناء على ذلك فمن الطبيعى جدا ان يثير المقطع الاول من الرواية التى اوردها ابن سعد فى طبقاته الشك فى النفس بخلاف المقطع التالى فيها الذى يستفسر فيه عن اوقات الصلاة والوضوء، فان احتمال الصدق فيه قوى كما تؤيده روايات اخرى.

ابوذر الغفارى

يعتبر ابوذر من الشخصيات الاسلامية اللامعة فى جهادها واخلاقها، وقد امتدح الرسول (ص) صراحته وصدقه، وتواتر عنه (ص) بانه قال فيه: «ما اظلت الخضراء، ولا اقلت الغبراء ذالهجة اصدق من ابى ذر». اسمه جندب بن جنادة، وهو من قبيلة غفار، من قبائل مضر، قال عنه ابن حزم: [۱۷۳] «انه كان خامس رجل فى الاسلام». وقيل انه من الموحدين الذين آمنوا باللّه واعرضوا عن عبادة الاصنام قبل لقائهم برسول اللّه (ص). وقد نقلت عن ابى ذر فى ايام شبابه وفى كيفية دخوله الاسلام قصة مثيرة، تظهر فيها آثار الصدق والصراحة، وهى اهم خصلة عرف بها ابو ذر (رض) واشار اليها الرسول (ص) فى وصفه له. وقد جاءت الرواية باسلوب والفاظ يتجلى فيها قدم الاسلوب واصالته. وقد رواها ابن سعد [۱۷۴] فى الطبقات عن عبداللّه بن الصامت الغفارى، ونقلت ثلاث قصص اخرى فى هذا الباب وفى المصدر نفسه، فيها تفاوت فى بعض الامور مع رواية ابن الصامت، غير اننا نرجح رواية ابن الصامت لقوة الاسلوب ودقة البيان واصالة التركيب اللغوى، وتؤيد الروايتان الاخريتان تلك الرواية فى خطوطها العريضة. قال: «اخبرنا هاشم بن القاسم الكنانى ابوالنضر، قال: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد ابن هلال، عن عبداللّه بن الصامت الغفارى، عن ابى ذر، قال: خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام، فخرجت انا واخى انيس وامنا، فانطلقنا حتى نزلنا على خال لنا، فاكرمنا خالنا واحسن الينا، فحسدنا قومه، فقالوا له: انك اذا خرجت عن اهلك خالف اليهم انيس. فجاء خالنا فثنا علينا ما قيل له، فقلت: اما ما مضى من معروف فقد كدرت، ولا جماع لك فيما بعد. فقربنا صرمتنا، [۱۷۵] فاحتملنا عليها، وتغطى خالنا بثوبه وجعل يبكى. فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فنافر انيس عن صرمتنا وعن مثلها، فاتيا الكاهن فخبر انيسا بما هو عليه، فاتانا بصرمتنا ومثلها معها. وقد صليت بابن اخى قبل ان القى رسول اللّه (ص)، ثلاث سنين، فقال عبداللّه بن الصامت: لمن؟ قال: للّه. فقال عبداللّه بن الصامت: اين تتوجه؟ قال: اتوجه حيث يوجهنى اللّه، اصلى عشاء حتى اذا كان آخر السحر القيت كانى خفاء [۱۷۶] حتى تعلونى الشمس. فقال انيس: ان لى حاجة بمكة، فاكفنى حتى آتيك. فانطلق انيس فراث على يعنى ابطا على ثم جاء، فقلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلا بمكة على دينك، يزعم ان اللّه ارسله. قلت:فما يقول الناس له؟ قال: يقولون شاعر، كاهن ساحر، وكان انيس احد الشعراء، فقال: واللّه لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على اقراء الشعر فلا يلتئم على لسان احد، بعيد انه شعر، واللّه انه لصادق وانهم لكاذبون! فقلت: اكفنى حتى اذهب فانظر. قال: نعم، وكن من اهل مكةعلى حذر فانهم قد شنعوا به وتجهموا له. فانطلقت فقدمت مكة، فاستضعفت رجلا منهم، فقلت: اين هذا الذى تدعون الصابى؟ فاشار الى، فقال: هذا الصابى. فمال على اهل الوادى بكل مدرة وعظم، فخررت مغشيا على، فارتفعت حين ارتفعت كانى نصب احمر، فاتيت زمزم فشربت من مائها وغسلت عنى الدماء فلبثت بها يابن اخى من بين ليلة ويوم، مالى طعام الا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عكنبطنى، وما وجدت على كبدى سخفة جوع. [۱۷۷] .فبينا اهل مكة فى ليلة قمراء اضحيان، اذ ضرب اللّه على اصمختهم، فما يطوف فى البيت احد منهم غير امراتين، فاتيتا على وهما تدعوان اسافا ونائلة، فقلت: انكما احدهما الاخر، فما ثناهما ذاك عن قولهما. قال: فاتيتا على، فقلت: هنا مثل الخشبة غير انى لم اكن، فانطلقتا تولولان وتقولان: لو كان هاهنا احد من انفارنا. فاستقبلهما رسول اللّه (ص)، وابو بكر، وهما هابطان من الجبل، فقال: مالكما؟ قالتا: الصابى بين الكعبة واستارها قال:

فمـا قال لكما؟ قالتا: قال لنا كلمـة تملا الفم. فجاء رسول اللّه (ص)، وصاحبه فاسـتلما الحجر، وطافا بالبيت، ثم صـلى فاتيته حين انتهى من صـلاته، فكنت اول من حياه بتحية الاسلام، فقال: وعليك رحمة اللّه، ممن انت؟ قلت: من‌غفار، فاهوى بيده الى جبهته هكذا، قلت فى نفسـى: كره انى انتميت الى غفار. فذهبت آخذ بيده فقد عنى صاحبه، وكان‌اعلم به منى، فقال: متى كنت هاهنا؟ قلت: كنت هاهنا منـذ ثلاـثين من بين ليلـة ويوم، قـال: فمن كـان يطعمك؟ قلت: ما كان لى طعام الا ماء زمزم فسـمنت حتى تكسـرت عكن بطنى، فما وجـدت على كبـدى سـخفة جوع. فقـال رسول اللّه (ص): انها مباركـة، انها طعام طعم. قال ابو بكر: يا رسول اللّه، ائـذن لى فى طعامه الليلـة، ففعـل، فـانطلق النبى (ص)، وابو بكر وانطلقت معهمـا، ففتـح ابو بكر بابـا، فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف. فـذاك اول طعام اكلته بها، فغبرت ما غبرت، فلقيت رسول‌اللّه (ص)، فقال: انه قد وجهت الى ارض ذات نخل، ولا احسبها الا يثرب، فهل انت مبلغ عنى قومك، عسـى اللّه ان ينفعهم بك، وياجرك فيهم؟. فانطلقت حتى لقيت اخى انيسا، فقال: ما صـنعت؟ قلت: صـنعت، انى قـد اسـلمت وصـدقت. قال انيس: ما بى رغبـة عن دينك، فانى قـد اسـلمت وصـدقت. فاتينا امنا، فقالت: ما بى رغبـة عن دينكما، فانى قد اسـلمت وصـدقت، فاحتملنا، فاتينا قومنا، فاسـلم نصـفهم قبل ان يقـدم رسول اللّه (ص) المدينة، وكان يؤمهم ايماء بن رحصـنة وكان سـيدهم، وقال بقيتهم: اذا قدم رسول اللّه (ص) المدينة اسلمنا. فقدم رسول اللّه (ص) فاسلم بقيتهم، وجاءت أسلم فقالوا: يارسول اللّه نسلم على الذى اسـلم اخوتنا. فاسـلموا، فقالرسول اللّه (ص): غفار غفر اللّه لها، واسـلم سالمها اللّه». [۱۷۸] .كان ابو ذر قنوعا فى حياته ومعيشـته، ينفق كـل ما زاد عنه على الفقراء، وقـد عاش حياة الخشونـة والجشوبـة فى عصـر النبى وابى بكر وعمر، فتصـدى لمظاهر البـذخ الـذى شاهده ايام عثمان فى المدينة، ومعاوية بن ابى سـفيان فى دمشق، واخذ يعترض على ذلك، فقام عثمان باخراجه من المدينة ونفيه الى الربـذة كى يستريـح من اعتراضـاته، وبقى ابوذر هنـاك حتى الوفـاة. وقـد بـالغ بعض المؤرخين فيما بعـد، حتى وصـفوا اباذر بانه كان اشتراكيا يدعو الى توزيع الثروات وغير ذلك مما لا طائل له ولا يتناسب مع ظروف عصره وحياته وثقافته الدينية.

عثمان بن مظعون

ينتسب عثمان بن مظعون الى قبيلة قريش، من بنى جمح، وهو من المسـلمين الاوائل، حيث اسلم قبل ان يتخذ الرسول (ص) دار الارقم بن ابى الاـرقم مقرا لـدعوته، وبنـاء على احـدى الروايـات فـان عثمان بن مظعون كان قـد آمن مع جماعـة هم عبـد الرحمن بن عوف، وعبيـدة بن الحارث، وابوعبيـدة بن الجراح، وابو سـلمة بن عبـد الاسد. وكان عثمان بن مظعون من اولئك الذين اختلجت فى انفسـهم مشاعر دينيـة خاصـة ومالوا نحو الزهـد والرياضات الروحيـة ومجاهدة النفس اكثر من ميلهم الى توحيد اللّه وترك عبادة الاصـنام. لقد حرم ابن مظعون الخمر على نفسه قبل الاسـلام، وكان يقول: «اننى لا اسـتطيع شـرب شـىء يغلب على عقلى، ويضحك الاخرين على، ويجعلنى ازوج ابنتى لمن لا ارتضـى»، وتظهر الفقرة الاخيرة من كلمـة عثمان ان بعض اولياء البنات كانوا يزوجون بناتهم لاشـخاص لا يرتضوهم لو لم يكونوا فى حالة السكر. ونتيجة ميله للرياضات الروحية حاول ان يخصى نفسه ليتخلص من شر الشهوات الغريزية، فنهاه الرسول (ص) عن ذلك، وكان احيانا يعتزل زوجته فلا يقترب منها، فلما شـكت حالها الى النساء، وسمع الرسول (ص) بذلك نهاه عن مثـل ذلـك العمـل، ونبهه الى ان لزوجه عليه حقـا، ولجسـمه عليه حقـا، ولعينه عليه حقا، وكثيرا ما كان يتخـذ لنفسه بيتا خاصا للعبادة، فنهـاه الرسول (ص) مرتين او ثلاـث عن ذلـك، وقـال: «لاـ رهبانيـة فى الاسـلام». وكـان ابن مظعون من البـدريين، وتوفى بعـد سـنتين ونصف من الهجرة.

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

وهو من بنى عـدى، وكان زيد احد الحنفاء الاربعة الذين اعرضوا عن عبادة الاصـنام، وهو من معاصـرى الرسول (ص). وقد قال (ص) فى حقه: انه يبعث يوم القيامـة امـة وحـده، ومعنى هـذا الحديث كما اعتقد ان زيدا كان منفردا فى دينه، وسيحشـر يوم القيامة فى دين

خاص به وحده، حيث ابتعد زيد عن عبادة الاصنام، وامتنع عن تناول لحوم القرابين التى كانت تذبح وتقدم للاوثان، وكان يستهجن وءد البنات ويستنكره، ويقول لمن يريد وءد ابنته: اتركها ودع نفقاتها على، انا ادفعها. وقد اعجب الرسول (ص) بهذه الخصال، ولهذا وصفه بان له دينه الخاص وانه سيحضر يوم القيامة وحده. وكان ابنه سعيد قد دخل الاسلام قبل ان يستقر الرسول (ص) فى دار الارقم بن ابى الارقم. [۱۷۹] .وتوحى احدى الروايات بانه كان متاثرا بوالده، ولهذا سارع الى الايمان بالدعوة الاسلامية بمجرد انتشار خبرها، فهو من الذين كان لهم اهتمامهم الخاص بالدين منذ الجاهلية، وقبل بعثة الرسول (ص).

اشهر اعداء الرسول فى مكة

اشاره

بعد ان انتهينا من الحديث عن المسلمين الاوائل فى مكة، وسنتحدث عما بقى منهم فى الوقت المناسب، نجد من المناسب جدا ان نعطف الكلام نحو اعداء الرسول (ص) واشهر المعاندين له، ونسلط الضوء على طبيعة حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولو بصورة مختصرة، فقد يساعدنا ذلك على اكتشاف الاسباب الكامنة وراء عدائهم ومحاربتهم للاسلام ونبيه (ص).

ابوجهل

وقد اطلق عليه هذا اللقب بسبب عدائه المستمر، والحاحه الشديد بالخصومة لرسول اللّه (ص)، والذى اطلقه عليه هو الرسول (ص) نفسه فى مقابل كنيته الاصلية (ابى الحكم)، وهو من بنى مخزوم، الذين كانت لهم فى قريش سطوة وقوة فى العصر الذى ظهر فيه الرسول (ص). وقد وقعت خصومات عديدة فى الجاهلية بين بنى مخزوم وبطون قريش الاخرى، كان حكم الكهنة فيها لصالح بنى مخزوم دوما، ويمكننا ان نستنتج ان بنى مخزوم كانوا اكثر طوائف قريش ثراء عند ظهور الدعوة الاسلامية او قبلها بقليل، وذلك لان اكثر تلك المنازعات كانت تنشا حول الشرف والمجد والمفاخر العائلية التى كان ميزانها ومقياسها بالدرجة الاولى الثروة وكثرة المال، كانت احدى هذه المنازعات ماحدث بين رجل من بنى مخزوم هو عائذ بن عبداللّه بن عمربن مخزوم والحارث بن اسد بن عبد العزى، حيث روى فى المنمق [۱۸۰] ان عائذ بن عبداللّه بن عمر بن مخزوم تنازع مع الحارث بن اسد فى ايهما اكثر شرفا ومجدا، فجعلا بينهما كاهنا كان يقوم بعسفان، وجعلا للنفر خمسين من الابل، وجعلا الابل على يد المغيرة بن عبداللّه بن مخزوم، ثم شخصوا اليه، فلما كانوا قريبا منه وجد رجل من بنى اسد بيضة نعام، فقال: «ما رايكم ان نخبى له هذه البيضة؟ فان اصابها علمناانه مصيب فيكما». ثم اتوه فقالوا: «اخبرنا فى اى شىء جئنا»، فقال: «حلفت برب السماء ومرسل الغماء فينبعن بالماء! ان جئتمونى الا لطلب السناء»، فقالو: «صدقت..» فانتسبنا له، وقالوا: «احكم بيننا اينا اولى بالمجد والشرف»، قال: «حلفت باظب عفر، بلماعة قفر، يرون بين سلم وسدر، ان سناء المجد ثم الفخر لفى عائذ الى آخر الدهر». وحدثت منافرة اخرى بين بنى مخزوم وبنى امية، حيث جاء فى المنمق: انه قد اجتمع عند الحجر قوم من بنى مخزوم وقوم من بنى امية، فتذاكروا العز والمنعة، فقال رجل من بنى كنانة، كان حليفا لبنى مخزوم: بنو مخزوم اعز وامنع، فجرى بينهما الكلام حتى غضب الوليد بن المغيرة المخزومى واسيد بن ابى العيص وتفاخرا، فجرى بينهما اللجاج، فقال الوليد: انا خير منك اما وابا، واثبت منك فى قريش نسبا. فقال اسيد: انا خير منك منصبا، واثبت منك فى قريش نسبا، وانت رجل من كنانة من بنى اشجع، دخيل فى قريش، نزيع فى بنى مخزوم، وانا غرة بنى عبد مناف، وذؤابة قصى، فتعال افاخرك، فتداعيا الى المنافرة، وكذلك كانت العرب تفعل، وقالا: يحكم بيننا سطيح، فتراضيا به، وجعلا بينهما خمسين من الابل للمنفرعلى صاحبه، قال: فخرجا نحوه، وخرج معهما نفر من قومهما.. الى ان قالوا: احكم بين الوليد بن المغيرة وبين اسيد بن ابى‌العيص، فقال: بالنجود احلف وبالتهائم، ثم ببيت اللّه ذى الدعائم، وكل من حج على شداقم، انى بما جئتم به لعالم، ان ابن مخزوم اخو المكارم، فارجع يا

اسيد بانف راغم، ثم اقبل‌عليهما فقال: اما انت يا وليد، فمثلك مثل جبل مؤزر، فيه الماء والشجر، وفيه للناس معتصر، ومنعة الحى والوزر، للخير سباق وللشر حذر، واما انت يا اسيد فمثلك مثل جبل وعر، فيه للمقتبس جمر، لا ورد ولا صدر، الخير عندك نزر، والشرعندك امر، ففلج الوليد وظفر، وخاباسيد وخسر». [۱۸۱] .اما المنافرة بين بنى قصى وبنى مخزوم، فهى كما رواها صاحب المنمق، [۱۸۲] قال: «جعل نفر من قريش مجلسا، فقال ابوربيعة بن المغيرة وابنه المغيرة وبنو المغيرة: ومنا سويد بن هرمى من بنى عامر بن عبيد بن عمر بن مخزوم، فقال اسيد بن ابى العيص بن امية: اليك، انما بنو قصى اشرف، انما شرف عبداللّه بن عمر لان امه برة بنت قصى، فبها نال ما نال، ثم عدد رجال قصى، ثم قال: فينا السقاية والحجابة والندوة والرفادة واللواء، فتداعوا الى المنافرة، فقال اسيد: ان نفرتك اخرجتك من مالك، وان نفرتنى اخرجتنى من مالى، فتراضيا بكاهن من خزاعة، فقال ابن ابى همهمة، وامه تماضر بنت ابى عمرو بن عبد مناف: مهلا يا ابا ربيعة! فابى، وخرجوا وساقوا ابلا ينحرها المنفر، فوجدوا فى طريقهم حمامة او يمامة، فدفعوها الى اسامة عبد ابى همهمة، فجعلها فى ريش ظليم، فلما اتوا الكاهن قالوا: ما خبانا لك؟ فقال: اما غمامة تتبعها غمامة، فبرقت بارض تهامة، فطفا من وبلها كل طلح وتمامة، لقد خباتم لى فرخ حمامة، او اختها يمامة، فى زف نعامة، مع غلامكم اسامة، قالوا: احكم. فقال: اما ورب الواطدات الشم، والجرول السودبهن الصم، وما جرت جارية فى يم، ان اسيدا لهو الخضم، لاتنكروا الفضل له فى العم. اما ورب السماء والارض والماء، وما لاح لنا من حراء، لقد سبق اسيد ابا ربيعة بغير مراء. قالوا: اقصى افضل ام مخزوم؟ قال: اما ورب العاديات الصبح، ما يعدل الحر بعبد نحنح، بمن احل قومه بالابطح». فنحر اسيد الجزر ورجع، فاخذ مال ابى ربيعة، وكانت اخت اسيد عند ابى جهل، فكلمت اخاها حتى رد على ابى ربيعة ماله. وكان فى بنى مخزوم اولاد المغيرة بن عبداللّه بن عمر بن مخزوم اكثر ابناء القبيلة قوة ومنعة. [۱۸۳] وكان ابو جهل، واسمه هشام بن المغيرة واخوه الحارث بن المغيرة، من اقطاب هذه العائلة. وكانت ام ابى جهل والحارث اسماء بنت مخربة، وقد اسلم الحارث واسماء فيما بعد، وبقيت اسماء على قيد الحياة حتى خلافة عمر بن الخطاب، حيث كانت تبيع الطيب. وكان كل من ابى جهل والحارث من اسخياء العرب، حيث نقل صاحب المحبر [۱۸۴] قصصا عن جودهما، ففى روايته عن ابى ذر رحمه اللّه، قال: «قدمت مكة معتمرا، فقلت: اما من مضيف؟ قالوا: بلى، كثيرا واقربهم منزلا الحارث بن‌هشام. قال: فاتيت بابه، فقلت: اما من قرى؟ [۱۸۵] فقالت‌لى الجارية: بلى، فاخرجت الى زبيبا فى يدها. فقلت: ولم لم تجعليه فى طبق؟ فعلمت انى ضيف. فقالت: ادخل، فدخلت فاذا انا بالحارث على كرسى، وبين يديه جفان فيها خبز ولحم، وانطاع عليها زبيب. فقال: اصب، فاكلت. ثم قال: هذا لك. فاقمت ثلاثا، ثم رجعت الى المدينة، فاخبرت النبى (ص) خبره. فقال: انه لسرى ابن سرى، وددت انه اسلم!». واخبر الكلبى فى اسناده عن رجلين من بنى سليم اخوين، قالا: «دخلنا مكة معتمرين فى سنة، فما وجدنا فيها شراء ولاقرى، فبينا نحن كذلك اذ راينا قوما يمضون، فقلنا: اين يريد هؤلاء القوم؟، فقيل لنا: يريدون الطعام، فمضينا فى حملتهم حتى اتينا دارا، فولجناها، فاذا رجل آدم احول على سرير، وعليه حلة سوداء، واذا جفان مملوءة خبزا ولحما، فقعدنا فاكلنا، فشبعت قبل اخى، فقلت له: كم تاكل، اما شبعت؟ فقال الجالس على السرير: كل، فانما جعل الطعام ليؤكل. فلما فرغناخرجنا من باب آخر للدار غير الذى دخلنا منه، فاذا نحن بابل موقوفة. فقلنا: ما هذه الابل؟ قيل: للطعام الذى رايتم. فسالنا عن الرجل صاحب الطعام، فاذا هو ابو جهل بن هشام». ونظرا للموقع الذى كان يشغله ابو جهل والمنزلة التى كان يحتلها فى قومه، وبسبب المقام الذى كان عليه بنو مخزوم فى مكة، فقد تسنم ابو جهل مقاما هو اعلى مقام فى قريش، فضلا عن انه اكثر ابناء قومه قوة ايام الجاهلية، ولهذا كانت بعثة النبى (ص) ودعوته الناس الى الاسلام، قد ازعجته واثارت غيظه وغضبه خشية على مقامه وقوته، وان يذهب ريح بنى مخزوم وعزهم، وينهار الوضع الاجتماعى والسياسى الذى بنوه، لهذا كله وقف ابو جهل بكل ما اوتى من قوة بوجه النبى (ص) وسعى جهده لمحاربة الرسول (ص) وباقى المسلمين ومواجهتهم، لقد حشد ابو جهل لمعركة بدر كل قواه، رغم نجاة القافلة التجارية، وعدم حماس قريش لمحاربة رسول اللّه (ص)، حتى ذهب ضحية عناده ولجاجته وخصومته للاسلام. وتكشف القصة المروية فى سيرة ابن اسحاق وسيرة ابن‌هشام، [۱۸۶] عن طبيعة معارضة ابى جهل، فقد كانت ذات طابع سياسى غالبا، ففى جوابه للاخنس بن شريف الثقفى، قال: «تنازعنا نحن وبنو عبد

منـاف الشـرف، اطعموا فاطعمنا، وحملوا فحملنا، واعطوا فاعطينا، حتى اذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسـى رهان، قالوا: منا نبى ياتيه الوحى من‌السـماء، فمتى نـدرك مثل هذه، واللّه لا نؤمن به ابدا ولانصدقه». لقد اخذ ابوجهل المسـلمين المستضـعفين، الذين لا ناصـر لهم ولا ملجا، بالشدة والقسوة، فقد قتل سـمية ام عمار بيده، وكان اذا سمع بالرجل قد اسلم وله شرف ومنعه انبه واخزاه، وقال: «تركت دين ابيـك وهو خير منـك، لنسـفهن حلمـك، ولنفيلن رايـك، ولنضـعن شـرفك»، وان كـان تـاجرا قـال: «واللّه لنكسـدن تجارتـك، ولنهلكن مالك». [۱۸۷] .

الوليد بن المغيرة

هو الوليـد بن المغيرة بن عبـداللّه بن عمر المخزومى، من اثريـاء بنى مخزوم الكبـار، وكـان له من الثروة والمقـام ما يعـدل ثروة قريش ومكانتها مجتمعـة، حتى اشـتهر ب (العدل). فكان يتناوب مع قريش على اكساء الكعبة، فمرة تكسوهاهى مجتمعة، واخرى يكسوها هو وحده. [۱۸۸] .وقد اشارت الايات (۱۱– ۱۵) من سورة المـدثر اليه، بقولها: (ذرنى ومن خلقت وحيـدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهـدت له تمهيـدا، ثم يطمع ان ازيد) يقول المفسـرون فى معنى قوله تعالى: (ذرنى ومن خلقت وحيدا) اى دعنى ومن خلقته وحيـدا فى رحم امه، ليس له مـال ولاـ بنـون. لكن [۱۸۹] مثل هـذا التفسـير ليس من خصائص الوليـد بن‌المغيرة، فكل الناس يولـدون كـذلك، لـذا فنحن نعتقـد ان كلمـة (وحيـدا) اشارة الى المعنى الذى ذكر سابقا من انه كان يعدل قريشا باكملها، فهو وحيد متفرد من حيث المال والجاه، يقول جل شانه: (وجعلت له مالا ممـدودا، وبنين شـهودا، ومهـدت له تمهيـدا، ثم يطمع ان ازيـد). وكان الوليد بن المغيرة، هو الذى اتهم الرسول (ص) بالسحر، وهو الذى جمع قريش فى دار الندوة قبيل موسم الحج للتداول فى امر رسول اللّه (ص)، وقال لهم: «يا معشـر قريش، انه قد حضـر هذا الموسم، وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بامر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رايـا واحـدا، ولاتختلفوا فيكـذب بعضـكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا». فقالوا: «فانت يا ابا عبـد شـمس، فقل واقم لنا رايا نقول به». قال: «بل انتم، قولوا اسـمع». قالوا: «نقول كاهن». قال: «لا واللّه ما هوبكاهن، لقد راينا الكهان، فما هو بمزمزة الكاهن، ولاسجعه». قالوا: «فنقول مجنون». قـال: «ما هو بمجنون، لقـد راينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسـته». قالوا: «فنقول شاعر». قال: «ما هو بشـاعر، لقـد عرفنـا الشـعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشـعر». قالوا: «فنقول ساحر». قال: «ما هو بساحر، لقد راينا السـحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم». قالوا: «فما تقول انت يا ابا عبد شمس؟» قال: «واللّه ان لقوله لحلاوة، وان اصله لغدق، وان فرعه لجنا، وما انتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف انه باطل، وان اقرب القول فيه لان تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء واخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته». فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم احـد الا حـذروه اياه، وذكروا له امره، فانزل اللّه تعالى فى الوليـد بن المغيرة: (ذرنى ومن خلقت وحيـدا، وجعلت له مالا ممـدودا، وبنين شـهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع ان ازيد، كلا انه كان لاياتنا عنيدا، سارهقه صـعودا، انه فكروقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قـدر، ثم نظر، ثم عبس وبسـر، ثم ادبر واسـتكبر، فقال ان هـذا الا سـحر يؤثر، ان هذا الا قول البشـر) «المدثر: ۱۱–۲۵». لقد بنى الوليـد بن المغيرة عـداوته لرسول اللّه (ص) على اساس سياسـى، فكان يرفض ان يخضع مع قبيلته لسـلطة رجل من بنى هاشم، وهو قد عـد من الزنادقـة المانويين، ويمكن ان يكون هـذا من العوامل التى دفعته لاتخاذ موقف معاد من رسول اللّه (ص)ورسالته. [۱۹۰] .قال الوليـد لاـبى اميمـة سعيد بن العـاص بن اميـة، وكان نـديمه: «لولا انزل هـذا القرآن الـذى اتى به محمـد على رجل عظيم من مكـة او الطـائف، مثـل: امية بن خلف الجمحى»، فقال له نـديمه وقـد فهم قصـده: «او على رجل مثلك، او على رجل من زعماء ثقيف، امثال: مسعود بن عمرو، وكنانة بن عبد يا ليل، او مسعود بن معتب، وابنه عروة»، فنزلت الايتان (۳۱ و۳۲) من سورة الزخرف: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين‌عظيم، اهم يقسـمون رحمت ربك نحن قسـمنا بينهم معيشـتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضـهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون) ويقصد بالقريتين مكة والطائف، كما ان المقصود بالرجل

العظيم، الـذى من مكـة، الوليـد بن المغيرة، والاخر من زعماء الطائف، وقد اختلف المفسـرون فى تعيين الرجل العظيم الذى من مكة، [۱۹۱] والظاهر ان المراد هو، الوليد بن‌المغيرة، بدليل الايتين (۲۹، ۳۰) من السورة عينها: (بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جآءهم الحق ورسول مبين، ولمـا جـاءهم الحق قالوا هـذا سـحر وانا به كافرون). وقـد اشـرنا سابقا الى ان الوليـد بن المغيرة وبنى مخزوم الاثرياء هم الـذين اشاعوا ان القرآن سـحر ساحر، بعـد جولة من التداول والتفكير فى امر الرسول (ص). ثم ان الوليد بن المغيرة كان احد اشـراف قريش الـذين اجتمعوا ليكلموا الرسول (ص)، ومنهم الاسود بن مطلب الاسـدى، والعاص بن وائل السـهمى، واميـة بن خلف الجمحى، حيث قالوا له (ص): «نحن نعبـد ما تعبـد، وانت تعبـدما نعبد، فان كان الذى تعبد حقا كنا قد انتفعنا، وان كان الذى نعبد حقا كنت قد انتفعت»، فنزلت سورة (قـل يـا ايهـا الكافرون) جوابا على ذلك الاقتراح. كان الوليـد بن المغيرة من الـذين اسـتهزاوا برسول اللّه (ص) والمسلمين، وقد هلك بعد هجرة المسلمين الى المدينة بثلاثة اشهر عن عمر يناهز الخامسة والتسعين.

ابواحيحة سعيد بن العاص بن امية

كـان بنو اميـة من البطون ذات النفوذ والثراء الواسع فى قريش، وقـد انتقلت اليهم رئاسـة بنى قصـى بعـد وفـاة ابى طالب، فوصـلت الى حرب بن اميـة، بعبارة اخرى انتقلت زعامـة بنى‌عبـد مناف الى بنى اميـة، وبعـد هلاك حرب بن اميـة انتخبت كل عائلة من عوائل بنى مناف زعيما لها، الى ان وصـلت زعامـة بنى اميـة الى ابى احيحة سـعيد بن العاص صاحب الثروة العظيمة، وقد نال من احترام اهل مكة وتعظيمهم له ان حرموا على انفسـهم مشابهته فى العمامـة، اذ لا يجرؤ احـدهم على ان يلبس عمامـة تشـبه فى لونها عمامـة ابى احيحة، فسـموه ذاالعمامة، وذاالتاج. [۱۹۲] .لم يظهر سـعيد بن العـاص معارضـة صـريحة للاسـلام فى البدايـة، وكـان يقول: «دعوا محمـدا ولا تعرضوا له، فـان كـان مـا يقول حقـا، كان فينا دون غيرنا من قريش، وان كان كاذبا قامت قريش به دونكم»، فكان النبى (ص) يمر به، فيقول: «انه ليكلم من السـماء». حتى اتـاه النضـر بن الحارث العبـدرى، فقال له: «انه بلغنى انك تحسن القول فى محمـد! وكيف ذلك وهو يسب الالهـة، ويزعم ان آباءنا فى النار، ويتوعـد من لم يتبعه بالعـذاب؟ فاظهر ابو احيحـة عـداوة لرسول اللّه (ص) وذمه وعيب ما جـاء به، وجعـل يقول: «مـا سـمعنا بمثل ما جاء به، لا فى يهوديـة ولانصـرانية». [۱۹۳] .ويتضـح مما سـبق ان سـعيد بن العاص لم يكن مـدفوعا بدوافع سياسـية فى خصومته مع رسول اللّه (ص)، اذ لم يظهر عداوه له (ص) فى بداية الامر، غير انه بدا يتطرف وينحى منحى اشـدفى خصومته مع النبى (ص) حينما علم انه يعيب آلهتهم وينعت آباءهم بالكفر ويقول: انهم فى النار. وقد اشـرت فيما سـبق الى ان التفـاخر بالابـاء والاجـداد كـان سـنة من سـنن العرب، ومرتكزا من المرتكزات الاساسـية التى تقوم عليهـا القبيلـة وتحفـظ لها وجودها وشخصـيتها فى النظـام القبلى العربى، ولعـل قوله تعالى: (فاذكروا اللّه كـذكركم آباءكم) «البقرة: ۲۰۰» يفسـر هذا المفهوم، فلقد كان هناك نوع من العبادة للاباء والاجداد بين العرب، لهذا اسـتفزوا كثيرا حينما عابهم الرسول (ص). وقد اسـلم ابن سـعيد بن العاص وهو خالـد بن سـعيد بن العاص‌على اثر رؤيا رآها فى المنام، وكان اسـلامه فى بدايـة الدعوة الاسـلامية، لهذا عد من اوائل المسـلمين، وقد غضب سـعيد لاسلام ولده كثيرا، فنهاه ثم عنفه وعذبه، وحينما يئس منه طرده وابعده عنه. لم يعد موقف سعيد بن العاص كما كان فى السابق، فقد اتخذ عداؤه للاسـلام طابعا سياسـيا بعد اسـلام ولده، ولم يعد مقتصـراعلى الدوافع الدينية، حتى انه قال حين خرج ابنه الى الحبشـة فى الهجرة الثانية: «لاعتزلن فى مالى، لا اسـمع شـتم آبائى، ولاعيب آلهتى، فهو احب الى من المقام مع هؤلاءالصـباه». فاعتزل فى ماله بالظريبة نحو الطائف. [۱۹۴] .

الحكم بن ابى العاص بن امية وعقبة بن ابى معيط

كان هـذان الرجلان وهما من بنى اميـة، من اشد اعداء الرسول (ص)، وكان الحكم بن ابى العاص ابو مروان، وجد الفرع المروانى من خلفـاء بنى اميـة مؤذيا لرسول اللّه (ص) يشـتمه ويسـمعه، وكان رسول اللّه (ص) يمشـى ذات يوم، وهو خلفه يخلـج بانفه وفمه، وبقى

على ذلك. وقد اظهر الاسلام يوم فتح مكة، وكان مغموصا عليه فى دينه، فاطلع يوما على رسول اللّه (ص) وهو فى بعض حجر نسائه، فخرج اليه بعنزة، وقال: «من عذيرى من هذه الوزغة؟ لو ادركته لفقات عينيه» ولعنه وما ولد، وغربه من المدينة، فلم يزل خارجا منهاالى ان استخلف عثمان بن عفان فرده وولده [۱۹۵] .وكان عقبة بن ابى المعيط بن ابى عمرو بن امية من اشد اعداء الرسول (ص)، وكان يضع العذرة فى زنبيل ثم يرميها على باب الرسول (ص)، وقد اسر يوم بدر، وكان الذى اسره عبداللّه بن سلمة العجلانى، من بلى، وعداده من الانصار، جمح به فرسه فاخذه، فامر رسول اللّه (ص) عاصم بن ثابت بن ابى الاقلح الاوسى من الانصار بضرب عنقه، فجعل عقبة يقول: «يا ويلتى، علام اقتل يا معشر قريش؟ اقتل من بين هؤلاء؟» وكان الاسرى يطلق سراحهم بفدية يدفعونها، فقال رسول اللّه (ص): «نعم، انه وطىء على عنقى وانا ساجد فما رفع حتى ظننت انعينى قد سقطتا، وجاء يوما وانا ساجد بسلى شاة فالقاه على راسى». فقال عقبة: «من للصبية»؟ فقال رسولاللّه (ص): «النار» [۱۹۶] .كان السبب وراء عداء عقبة بن ابى المعيط لرسول اللّه (ص) عاطفيا ناشئا عن الجهل وعدم المعرفة، وربما كانت هناك بعض الاسباب الدينية، لان عقبة بن ابى المعيط كان زنديقا من (المانويين) كما قيل. [۱۹۷] .كان لعقبة علاقة صداقة حميمة مع ابى بن خلف بن وهب الجمحى المعروف بعدائه الشديد للرسول (ص)، وكان ابى بن خلف الجمحى قد هدد عقبة بقطع العلاقة معه اذا ما جالس النبى (ص) بعدما سمع انه كان قد ذهب اليه واستمع الى حديثه، بل كان ابى بن خلف الجمحى يحرض صديقه على ان يتعرض لرسول اللّه (ص) بالاساءة والاهانة، وقد فعلعقبة بن ابى المعيط ذلك حرصا منه على تلك العلاقة. وهكذا كانت خصومة هذا الرجل مع الرسول خصومة عاطفية، ولم يكن عقبة يتمتع بمنزلة مرموقة فى مكة، ومثله الحكم بن ابى العاص، فكانا يفتقدان الى المبررات العقلانية لمعاداة الرسول (ص)، وهى الخوف على الموقع السياسى اوالاجتماعى وخشية ذهاب الشرف والمنزلة الرفيعة بانتشار الاسلام، كما انهما لم يكونا يعانيان من الحسد الذى كان يسوق اشراف مكة الى اتخاذ موقف معاد للنبى (ص) لظهور امره والتفاف المسلمين حوله (ص)، وقد اشار القرآن الكريم الى هذا النوع من العداوة، بل الى عداوة عقبة بن ابى المعيط بالذات طبقا لراى اكثر المفسرين حيث يقول تعالى: (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا) «الفرقان: ۲۷ و ۲۸».ثم يقول تعالى: (لقد اضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) «الفرقان: ۲۹». وفيما اذا صح الراى القائل ان الايات السابقة نازلة بحق عقبة وابى بن خلف، فسيكون ذلك دليلا على صحة ما ورد فى الروايات من ان عقبة كان يسير خلف الرسول (ص) ويستمع الى القرآن الكريم، غير ان ابى كان يقطع عليه طريق الهداية. وقد كشفت معاملة الرسول (ص) للحكم بن ابى العاص، وكذلك معاملته لعقبة بن ابى المعيط عن مدى تالم قلب الرسول (ص) من عداء هؤلاء له وسلوكهم الشاذ معه (ص)،والا لشملهم عفوه ورحمته التى شملت غيرهم من اعدائه، كماعودنادائما. [۱۹۸] .وينتسب كل من عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة الى فرع آخرمن فروع بنى عبد شمس، وكانا من المعاندين لرسولاللّه (ص)، وقد تعاونا مع المعادين له (ص) غير انهم لم يتعرضو الشخصه ولم يلحقوا به اذى بشكل مباشر.

النضر بن الحارث

وهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة العبدرى، من بنىعبد الدار، من قبيلة قريش، وكان من خصوم الرسول (ص) الاشداء، ويمتاز عن غيره ببعض الخصائص، فقد كان زنديقا مانويا، تعلم الزندقة من النصارى فى الحيرة، وكان المانويون قد انتهوا فى المناطق الخاضعة لسلطة الساسانيين بصورة مباشرة، والتى يشرف عليها الدهاقنة الزرادشتيون، ومن بقى منهم بقى متخفيا. ورغم ان الحيرة كانت تابعة من الناحية السياسية للاباطرة الساسانيين وللدولة الفارسية، غير ان ملوك الحيرة او الملوك المناذرة كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذى وفر مناخا مناسبا لنمو المانوية وقيامها بنشاطاتها بصورة علنية ودون قيد اوخوف، وهكذا كان الوضع بالنسبة الى النصرانية واليهودية وباقى الاديان. وقد كان من نتائج تجارة قريش مع العراق احتكاك القرشيين، ومنهم النضر بن الحارث، باهل الحيرة وتردده عليهم بصورة مستمرة، وقد استطاع المانويون بما لديهم من مبلغين ودعاة بارعين ان يستميلوا بعض تجار قريش

لمعتقداتهم المانوية. ومن الجدير بالاشارة ان اكثر المعادين للرسول اللّه (ص) كانوامن ينسبون الى الزندقة. [۱۹۹] رغم انهم يحتجون فی‌عدائهم للرسل بتسفيهه لابائهم واهانته لاصنام قريش. ولم يكن الامر كذلك مع النضر بن الحارث العبدری، فكان‌هذا قد نظر فی كتب الفرس، وخالط النصاری واليهود، وكان له مع رسول اللّه (ص) مناظرات ومجادلات كلامية ودينية حتی قيل: ان قوله تعالی: (ومن الناس من يجادل فی اللّه بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الی عذاب السعير) «الحج: ۳ – ۴» قد نزلت فيه، وقد وردت فی هذه الايات اشارات الی هذا الشخص. احداهما: انه كان مجادلا ومن اهل البحث والجدال فی الدين والمسائل الكلامية والالهيات. والثانية: كونه من اتباع الشياطين فهو (يتبع كل شيطان مريد)، وتؤيد هذه الاشارة ما ذكر من انه كان مانويا ويرتبط فی الوقت ذاته بعلاقات عشرة مع اليهود والنصاری، ثم انه كان له اتباع وموالون (كتب عليه انه من تولاه فانه يضله..) وهذه الاشارة تؤيد الروايات القائلة بانه كان يخطب بعد الرسول (ص)ثم يسال الناس: «اينا احسن حديثا»؟. [۲۰۰] .قال ابن اسحاق: «كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذی رسول اللّه (ص) وينصب له العداوة، وكان قدقدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس واحاديث رستم واسفنديار، فكان اذا جلس رسول اللّه (ص) مجلسا فذكر فيه باللّه، وحذر قومه ما اصاب قبلهم من الامم من نقمة اللّه، خلفه فی مجلسه اذا قام، ثم قال: انا واللّه يا معشر قريش احسن حديثا منه، فهلموا الی فانا احدثكم احسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك الفرس ورستم واسفنديار، ثم يقول: «بماذا محمد احسن حديثا منی». وبهذه المناسبة نزلت الايتان (۵ – ۶) من سورة الفرقان: (وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهی تملی‌عليه بكرة واصيلا، قل انزله الذی يعلم السر فی السموات والارض انه كان غفورا رحيما) وفی هاتين الايتين امور ينبغی التوقف عندها قليلا ـ فی الاولی: ادعاء النضر بن الحارث ان ما يقوله الرسول (ص) حول الاقوام الغابرة انما هو اساطير الاولين تكتب له بكرة واصيلا ای عندما يكون الناس فی بيوتهم لان الرسول (ص) كان اميا، فهو يدعی بانها تقرا عليه فی الاوقات التی لا يراه فيها احد. وتشير الايات السابقة الی ان النضر بن الحارث كان يقص علی الناس اخبار رستم واسفنديار وقصصا اخری، ربما اخذها عن الكتب، ويعتقد انه كان يظن ان الرسول (ص) هو الاخر اخذها من الكتب لذا اتهم الرسول (ص) بذلك، وقد ذكر النضر بن الحارث بعض الاشخاص الذين زعم انهم كانوا يعلمون الرسول (ص) ويقصون عليه تلك الاخبار، ومن هؤلاء جبر (وهو غلام اسود بن المطلب) وقيل: غيره، ويعتقد ان جبرا هذا او غيره، كان غلاما يونانيا له معرفة بالكتب، وقد نزلت الاية (۱۰۳) من سورة النحل لتجيب علی هذا الاتهام: (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذی يلحدون اليه اعجمی وهذا لسان عربی مبين). وفی سيرة ابن هشام انه غلام نصرانی، يقال له جبر عبدلبنی الحضرمی. [۲۰۱] .وفی تفسير الطبری، عن عبداللّه بن مسلم الحضرمی، انه كان لهم عبدان من اهل عير اليمن، وكانا طفلين، وكان يقال لاحدهما يسار، والاخر جبر، فكانا يقرآن التوراة، وكان رسول اللّه (ص) ربما يجلس اليهما، فقال كفار قريش: «انمايجلس اليهما يتعلم منهما». [۲۰۲] .دابت الايات المكية التی نزلت فی اول الدعوة الاسلامية علی تحذير قريش من عذاب جهنم وكانت تتوعدهم باشد العذاب فی يوم الحساب، وكان النضر بن الحارث من اولئك الذين ينكرون هذا اليوم ويتهكمون قائلين: اين اذن هذا العذاب الذی تعدون به؟ ومتی سيحل ذلك اليوم الذی تحذروننا منه؟! وجاءت الاية (۱۸۷) من سورة الاعراف اجابة هؤلاء الغافلين: (يسالونك عن الساعة ايان مرساها) او الاية (سال سائل بعذاب واقع) «المعارج: ۱». وكذلك يقال: ان الايتين (۴۲ و۴۳) من سورة فاطر نزلت حول الموضوع نفسه: (واقسموا باللّه جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدی من احدی الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الانفورا، استكبارا فی الارض...). اذا كان النضر بن الحارث طبقا للاية الشريفة يعد اهل مكة انهم سيصبحون أهدی الامم ان جاءهم نذير، ويبدو ان حديثه هذا كان جزءا من دعوته الی المانوية، فهو يسعی الی تهيئة قومه لاستقبال مبعوث مانوی ياتی من الحيرة. وقد تلا الرسول (ص) الايتين (۹۸ و۹۹) من سورة الانبياء علی النضر بن الحارث واتباعه فی ختام جولة من النقاش والجدال حول الدين جرت بين الرسول والنضر بن الحارث، الذی هزم فيها وخرج خاسرا، وقد جاء فيهما: (انكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم انتم لها واردون، لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون). وينبغی التوقف هنا عند نقاط دقيقة. فما هو نوع النقاش الذی هزم فيه النضر بن الحارث؟ ولماذا لم يات

اصحاب السيرة على ذكره؟ وما هى العلاقة بين هاتين الايتين والحوار الذى دار بين رسول اللّه (ص) والنضر بن الحارث؟ اعتقد ان الحوار بين الرسول (ص) والنضر بن الحارث كان يدور حول العقائد المانوية، فالظلمة والنور كما نعلم هما اصلا الخلقة فى نظر المانوى، ويرى المانوى ان الصراع قائم ابدابين الظلمة والنور فى نظام الخلق، اذ تحيط الظلمة المملوءة بالشياطين والاغوال بالنور الذى يسعى دائما للتخلص منها ومما فيها من شياطين الظلام، فاللّه يقول لهم: (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها)، ثم لو كانت الظلمة هى الخالقة وكان اعوانها اعوان الالهة لما كان (وكل فيها خالدون) «الانبياء: ۹۹». اذن انتم هؤلاء وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم وليس اللّه الذى هو خالق الظلمة والنور. وبهذا البيان الواضح غلب النضر بن الحارث وافحم، ثم قام رسول اللّه (ص) واقبل عبداللّه بن الزبعرى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة وهو من الزنادقة (المانويين) كما قيل لعبد اللّه بن الزبعرى: «واللّه ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد اننا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم». فقال عبداللّه بن الزبعرى: «اما واللّه لو وجدته لخصمته، سلوا محمدا اكل ما يعبد من دون اللّه فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى بن مريم»، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبداللّه بن الزبعرى، وراوا انه قد احتج وخاصم، فذكر لرسول اللّه (ص) ما كان من قول ابن الزبعرى، فقال رسول اللّه: «ان كل من احب ان يعبد من دون اللّه فهو مع من عبده، انهم انما يعبدون الشياطين ومن امرتهم بعبادته»، فانزل اللّه تعالى عليه فى ذلك: (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون، لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت انفسهم خالدون) «الانبياء: ۱۰۱- ۱۰۲» اى عيسى ابن مريم، وعزير، ومن عبدوا من الاحبار والرهبان، الذين مضوا على طاعة اللّه فاتخذهم من يعبدهم من اهلالضلالة اربابا من دون اللّه. [۲۰۳] .كان النضر بن الحارث ياتى من الحيرة التى كان يقيم فيها، كما اشرنا سابقا ببعض الهدايا، واهمها آلة موسيقية كان يعزف عليها الانغام فى مكة، وقد عرف المانويون بتعلقهم الشديد بالموسيقى، فكان النضر بن الحارث يعلم اهل مكة طريقة عزف الانغام التى كان قد تعلمها فى الحيرة. ولم يكن اهل مكة يعرفون قبل ذلك سوى (النصب)، وهو نوع من الاغانييشبه الحداء الذى يغنى للابل اثناء سيرها. [۲۰۴] .وكان للنضر بن الحارث جاريتان مغنيتان نزلت فى شانهما آيتان من سورة لقمان: (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل اللّه بغير علم ويتخذها هزوا اولئك لهم عذاب مهين، واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كان لم يسمعها كان فى اذنيه وقرا فبشره بعذاب اليم) «لقمان: ۶- ۷». وكان من بين مناظرات النضر بن الحارث مجادلته الرسول (ص) فى امر احياء العظام وهى رميم، وقد انزل جواباعلى ذلك الايات (۷۸ – ۸۰) من سورة يس: (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم، الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون). وقيل: ان ابى بن خلف هو الذى جلب البالية الى الرسول (ص)، غير ان طريقة الاستدلال المذكورة فى الاية اكثر انسجاما مع منهج النضر بنالحارث فى الجدال. وبسبب هذه المجادلات والتكذيب الدائم لرسول اللّه (ص) قيل ان النضر بن الحارث كان من اشد خصوم الرسول (ص)، فقد آذى سلوكه هذا الرسول (ص) كثيرا، لهذا امر (ص) بقتله حين اسر فى معركة بدر على يد المقداد. فقال المقداد الذى كان ينتظر شيئا مقابل ذلك: «يا رسول اللّه، انه اسيرى، اى هل من عوض مقابل قتله، فقال الرسول (ص): «اللهم اغن المقداد من فضلك». [۲۰۵] .

العاص بن وائل و منبه بن الحجاج و نبيه بن الحجاج السهمى

ينتمى هؤلاء الثلاثة الى بنى سهم من قبيلة قريش، وكانوا من المستهزئين والمحاربين لرسول اللّه (ص)، وقد وردت اسماؤهم فى قائمة الزنادقة المانويين. [۲۰۶] وكان كل من منبه ونبيه من المستخفين برسول اللّه (ص) والمستصغرين شانه، وكانا يزعمان ان وراء الرسول شخصا آخر يعلمه، ويكررون القول: (معلم مجنون). وكان العاص بن وائل ابوعمرو بن العاص المعروف من المستهزئين بالرسول (ص) ويقول: (انه ابتر)، اى ليس له اولاد ذكور وسينقطع اثره بعدموته، وانزلت سورة الكوثر جوابا على هذا الزعم: (انا اعطيناك الكوثر، فصلى لربك وانحر، ان شانئك هو الابتر). وفسرالكوثر بانه الماء الذى فى الجنة، وقيل: انه نسل فاطمة (ع) وابناؤها

الـذين ملاوا الدنيا، ويمكن ان يصح كلا القولين. غيرانه ما يمكن ان يكون جوابا قاطعا للعاص بن وائل، الذى كان يتباهى بابنائه، انما هو الـدين الاسـلامى والرسالـة التى عبر عنهـا بـالكوثر، اى ان هـذه الرسالـة انما هى اكبر واكثر بركـة من كل ما تتفاخرون به من مقام وثروة واولاد. وسيملا ذكرها اسماع الشرق والغرب فى الوقت الذى لا يذكر فيه اعداء الاسلام الا بالسوء.

امية بن خلف الجمحى

وينتسب امية الى بنى جمح من قبيلة قريش، وكان من اثرياء مكة، ولم يدخر جهدا فى محاربة الرسول (ص) سـرا وعلانية، حتى انزلت هـذه السورة الشـريفة بشانه: (ويل لكل همزة لمزة، الـذى جمع مالا وعدده، يحسب ان ماله اخلده...) «الهمزة: ١- ٣» والتى تؤكد على انه كان كما اشـرنا من اثرياء قريش، وقد ورد اسم اخيه ابى بن خلف فى قائمةاسـماء مانويى قريش. [٢٠٧] .كان ابى صديقا لعقبة بن ابى معيـط، وقـد مرت الاشـارة الى قضـيتهما مع الرسول (ص)، وقال البعض: ان الـذى احتـج علىالنبى بالعظام الباليـة وقال (من يحيى العظام وهى رميم) انما هو ابى. وقد قتل امية فى يوم بدر، بينما قتل ابى فى احد على يد رسولاللّه (ص) [٢٠٨] .

ابوعزة عمرو بن عبداللّه الجمحى

لم يرد اسم ابى عزة مع اسماء الذين آذوا الرسول (ص)، لكنه ورد فى قائمة اسماء مانويى قريش، [٢٠٩] ورغم انه لم يذكر فيمن آذوا الرسول (ص)، الا انه كان من اعـداء الاسـلام، وقد وقع اسـيرا بيد المسـلمين فى معركة بدر، وكان فقيرا ذا فاقة وعيال فمن عليه رسول اللّه (ص) بعـد ان قال: «انى فقير ذو عيال وحاجـة قـد عرفتها، فامنن على صـلى اللّه عليك وسـلم». فمنعليه رسول اللّه (ص»). وحينما تهيـات قريش لحرب رسول اللّه (ص) فى احـد، قـال صـفوان بن اميـة لعمرو بن عبـداللّه: «يـا ابـا عزة، انـك امرؤ شاعر، فاعنا بلسانك فـاخرج معنا». فقال: «ان محمـدا قـد من على، فلا اريـد ان اظاهر عليه»، قال: «بلى، فاعنا بنفسك، فلك اللّه على ان رجعت ان اغنيك، وان اصبـت ان اجعل بناتك مع بناتى يصيبهن ما اصابهن من عسر ويسر». فخرج ابو عزة فى تهامة، وقد حرض الناس وحثهم على قتال المسـلمين، ثم وقع اسيرا مرة اخرى فى احد، وطلب العفو ايضا كما فى المرة السابقة، فقال رسول اللّه (ص): «واللّه لا تمسح عارضيك بمكـة بعـدها وتقول: خـدعت محمـدا مرتين، اضـرب عنقه يـا عـاصم بن ثابت» فضـرب عنقه وقال (ص): «ان المؤمن لا يلـدغ منجحر مرتين». [٢١٠] .

ابوسفيان

وهو صـخر بن حرب بن امية، وكان يعد من المانويين، احد اشـراف قريش وعظمائها، كانت له منزلة رفيعة بسبب انتسابه الاسرى، وقد تحولت له زعامـة قريش وقيادتها بعد مقتل ابىجهل فى معركة بدر، وكان قائدا لقريش فى جميع حروبها مع المسـلمين، وقد تزوجت ابنته ام حبيبـة من رسول اللّه (ص) بعـد وفـاة زوجها عبيـداللّه بن جحش، وكان ابو سـفيان من اعـداء الرسول (ص) حين كان فى مكة وبعـد الهجرة الى المدينة، وكثيرا ما كان يشترك مع الجماعات المعادية للرسول (ص)، بلكان عنصـرا مهما فيها، ويبدو انه كان عدوا عاقلا اذ لم يشترك فى ايـذاء الرسول وتعـذيب المسـلمين. لقد اسـلم ابو سـفيان فى فتح مكة، وقال الرسول (ص): «من دخل بيت ابى سفيان فهو آمن». وقـد اعطى مع ابنائه اسـهما مهمـة من الغنائم التى حصلعليها المسـلمون بعـد فتـح مكـة، ويـدل هذا على ان عداءه لرسول اللّه (ص) لم يكن شديدا بالدرجة التى تثير غضب الرسول كثيرا.

ابولهب

وهو من الـد اعـداء الرسول (ص)، وكانت لابى لهب مكانة خاصة، فهو من بنى هاشم وعم الرسول الاكرم (ص)، ولم يعرف السـر فى

هـذا العـداء المسـتفحل الـذى كان يظهره ابولهب ازاء الرسول (ص) ودعوته المباركهٔ. لقد بلغ عداء ابى لهب واذيته لرسول اللّه (ص) الى الحـد الـذى نزلت معه سورهٔ من القرآن الكريم فى ذمه وتقريعه، وذكر فيهـا اسـمه صـراحهٔ، فى وقت لم يـذكر فيه القرآن الكريم اسـماء الاشخاص الا قليلا. كان ينبغى لابى لهب ان يقف موقف المدافع والمحامى عن رسول اللّه (ص) كباقى اعمامه، طبقا للاعراف العائليهٔ والقبليهٔ، او على اقل تقدير لا يصل به العداء الى تلك الدرجهٔ المناقضهٔ للاعراف العربيهٔ حتى مع عدم قبوله الاسلام. كان منزل الرسول (ص) بين منزل ابى لهب ومنزل عقبـهٔ بن ابى المعيط، العـدو الاخر لرسول اللّه (ص)، وكان الاثنان يرميان الاوساخ والقذارات فى بيت النبى (ص). [۲۱۱] روى البلاذرى روايـهٔ [۲۱۲] يعتقـد انهـا تكشفعن السـبب الحقيقى وراء معارضـهٔ ابى لهب لرسول اللّه (ص) قـال: «كـان ابو لهب احـد الـذين يؤذون رسول اللّه (ص)، ووقع بينه وبين ابى طالب كلام فصرعه ابو لهب، وقعـد على صـدره، وجعل يضـرب وجهه، فلما رآه رسول اللّه (ص) لم يتمالك ان اخـذ بضـبعى ابى لهب، فضـرب به الارض، وقعد ابوطالبعلى صدره، فجعل يضرب وجهه، فقال ابو لهب للنبى (ص): هو عمك وانا عمك، فلم فعلت هذا فى؟ واللّه لا يحبك قلبى ابدا».

كيفية الدعوة

اشاره

ما هى الطريقـهٔ التى كان يتبعها الرسول (ص) فى الـدعوهٔ الىالاسـلام والتبشـير بالدين الجديد؟ تقول الروايات: ان دعوته (ص) كانت سريـهٔ فى بدايـهٔ الاـمر، وخلال تلك الفترهٔ آمن بعض ابناء قومه، وقـد مرت الاشارهٔ الى ذكر عـدد من اسـمائهم، وكان اكثر هؤلاء من شباب قريش او الضعفاء والمستضعفين، او اولئك الذى لا سند لهم فى قريش، وقد امتدت فترهٔ الدعوهٔ السريهٔ طبقا للروايهٔ التى اوردها ابن سعد ثلاث [۲۱۳] سـنوات. وفى روايهٔ اخرى عن سـعيد بنزيد بن نفيل يقول: «اسـتخفينا بالاسلام سنهٔ لا نصلى الا فىبيت مغلق او شعب خال، ينظر بعضـنا لبعض». وليس ثمهٔ تناقض بين الروايتين، اذ يمكن ان يكون سـعيد بن زيد قد آمن قبل سنهٔ من اعلان الدعوهٔ الاسـلاميهٔ، ويبـدو ان الدار المغلقهٔ التى تحدثت عنها روايهٔ سـعيد بن زيد هى دارالارقم بن ابى الارقم التى كانت بمثابهٔ مركز الرسول (ص) الاعلامى فى عرفنا الحالى، فبعـد ان آمن الارقم وكان سابع رجل فى الاسـلام كما ينقل هو وضع داره فى خدمـهٔ الرسول (ص) واصـحابه، وفى تصـرفهم، وفى هذه الدار اسـلم كثير من القوم حتى اصبح يؤرخ لها الدار، فيقال: اسلم فلان فى دار الارقم، بينما اسلم فلان الاخر بعـد خروج الرسول (ص) من هـذه الـدار. وتقع هذه الدار على جبل الصـفا، وقد دعيت دار الاسـلام، وبعد اسـلام عمر بن الخطاب فى هـذه الـدار تجرا المسـلمون فخرجوا منها مكبرين متجهين نحو الكعبهٔ للطواف. وقد اوقف الارقم داره على ولده، فلم تزل هكذا حتى زعم الخليفهٔ العباسى ابوجعفر المنصور انه اشتراها من ورثتها. [۲۱۴] .

فاصدع بما تؤمر

لا يمكن لحالهٔ السـريهٔ والتخفى ان تسـتمر الى الابد، فلقد جاء الاسـلام للناس كافهٔ، فلا بد من اظهاره والجهر بالدعوهٔ اليه ان عاجلا او آجلا، لكن الرسول (ص) كان يتردد فى اعلان الدعوهٔ فى البدايهٔ كما يستشف من الايات القرآنيهٔ، لضيق صدره وعدم ارتياحه لافعال قومه وما قابلوه به من اذيهٔ واسـتهزاء وصدود حتى نزل قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمروا عرض عن المشـركين، انا كفيناك المستهزئين، الذين يجعلون مع اللّه الها آخر فسوف يعلمون) «الحجر: ۹۴– ۹۶».

و انذر عشيرتک الاقربين

قلنا ان اكثر المؤمنين الاوائل كانوا من الشـباب والضـعفاء، وكان الرسول (ص) لم يظهر دعوته بعد لاشراف قريش وللاسر التى تملك

زمام الحل والعقد فی مکهٔ، وکان لا بد لهذا الامر ان یحصل ان عاجلا او آجلا حتی نزلت الایهٔ الشریفهٔ: (وانذرعشیرتک الاقربین) «الشعراء: ۲۱۴» والایات التی تلیها. وکان ذلک طبقا لما جاء فی طبقات ابن سعد تکلیفا باهضا لرسول اللّه (ص). یقول ابن سعد لما انزلت الایهٔ: (وانذر عشیرتک الاقربین) غضبت قریش، واظهروا لرسول اللّه (ص) الحسد والبغی، واشخص به منهم رجال [۲۱۵] فان الرسول (ص) کان علی علم بعصبیهٔ اشراف مکهٔ وشدهٔ تمسکهم بالتقالید والاعراف المبنیهٔ علی الشرک وعبادهٔ الاصنام، اضافهٔ الی ذلک کانت هناک العصبیات الاسریهٔ والقبلیهٔ، وکذلک التفاخر بالجاه والمقام والثروهٔ والقوهٔ التی کانت من المعاییر المهمهٔ فی المجتمع الجاهلی، کل ذلک کان یمنع من ان تسمع الاسر ذات الثروهٔ والقوهٔ والجاه، امثال بنی مخزوم وبنی سهم وبنی امیهٔ، الی رجل من بنی هاشم وتطیعه. اذ یبدو ان بنی هاشم رغم ما کانوا علیه من شرف النسب، کانوا یفتقدون الی الثراء الذی کان لدی بطون قریش الاخری، وکان زعیمهم ابوطالب یعیش وضعا اقتصادیا خانقا، ویتضح هذا المعنی من الایات الشریفهٔ التی انزلت بعد ظهور معارضهٔ قریش واشرافها للدعوهٔ الاسلامیهٔ، وسنشیر الی ذلک فی اثناء البحث. (وما ارسلنا فی قریهٔ من نذیر الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به کافرون، وقالوا نحن اکثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبین) «سبا: ۳۴ – ۳۵». بناء علی ما یظهر من الروایات المختلفهٔ فان الرسول (ص) کان قد دعا اشراف قریش وحدثهم عن رسالته، ویقال انه لم یتعرض (ص) الی رد عنیف، رغم ان احدا منهم لم یقبل دعوته، هذا باستثناء ابی لهب الذی خاطب بنی هاشم قائلا: «یابنی عبد المطلب، هذه واللّه لسوءهٔ، خذوا علی یدیه قبل ان یاخذ علی یده غیرکم، فان اسلمتموه حینئذ ذللتم، وان منعتموه قتلتم». فقال ابو طالب: «واللّه لنمنعنه ما بقینا».

بدایهٔ معارضهٔ قریش

اشاره

یقول ابن اسحاق: لما بادی رسول اللّه (ص) قومه بالاسلام، وصدع به کما امره اللّه، لم یبعد عنه قومه ولم یردوا علیه حتی ذکر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلک اعظموه وناکروه واجمعواعلی خلافه وعداوته الا من عصم اللّه تعالی منهمبالاسلام، وهم قلیل مستخفون. [۲۱۶] .وجاء فی روایهٔ الزهری: دعا رسول اللّه (ص) الی الاسلام سرا وجهرا، فاستجاب له من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس حتی کثر من آمن به، وکفار قریش غیر منکرین لما یقول، فکان اذا مر علیهم فی مجالسهم یشیرون الیه ان غلام بنی عبد المطلب لیکلم من السماء، فکان ذلک حتی عاب اللّه آلهتهم التی یعبدونها دونه، وذکر هلاک آبائهم الذین ماتواعلی الکفر، فشنفوا لرسول اللّه (ص) عند ذلک وعادوه. [۲۱۷] .

السبب الحقیقی لمعارضهٔ قریش

لا سبیل لانکار ما للمعتقدات الدینیهٔ وتقدیس الاباء والمحافظهٔ علی آثارهم من جذور عمیقهٔ فی نفوس البشر، فلیس من السهل محاربتها او القضاء علیها، بل قد یؤدی ذلکعادهٔ الی العداوهٔ والبغضاء والاستفزاز، ولکن استقراء اوضاع المجتمع العربی فی الجاهلیهٔ بصورهٔ عامهٔ، وقریش او مجتمع مکهٔ بصورهٔ خاصهٔ، لا یکشف عن مشاعر دینیهٔ قویهٔ ومتطرفهٔ لدی عرب الجاهلیهٔ، وقد نقلنا مثلا علی ذلک عن (الاصنام للکلبی) حیث کثیرا ما کان یتعرض آلههٔ العرب واصنامهم الی الاهانهٔ والشتم من قبل عابدهم عندما لا یجدون فیهم ما یلبی حاجاتهم ویحقق طموحاتهم، اذ لا یمکن ان یشتد تمسک امهٔ ما بالعامل الدینی فی وقت ینشا فیه ابناؤها علی السطو والاغارهٔ والنهب والسلب، خصوصا ان اکثر العرب کانوا لا یؤمنون بیوم الحساب والبعث، وهناک العدید من الایات الشریفهٔ التی تحدثت عن رفض اهل مکهٔ الایمان بیوم الحساب واستهزائهم بالنشور والبعث بعد الموت، وکانوا یکررون القول المعروف: کیف یحیی العظام وهی رمیم؟!. وبناء علی هذا فان ادعاء قریش بان اسباب محاربتها للرسول (ص) انما تکمن فی سبه لابائهم واجدادهم

وتسفيهه لالهتهم، لا يمكن ان يكون ادعاء صحيحا، بل لا بد من وجود اسباب حقيقية لا علاقة لها بالدين والمعتقدات، كان لها الدور الاكبر فى دفع قريش لذلك الموقف العدائى من الرسول (ص) ورسالته، ويبدو ان الخوف على موقع مكة التجارى من التصدع، والحرص على ما حصلت عليه هذه المدينة من شهرة وحرمة، حيث تم اعلانها مدينة امن وحرما آمنا يمارس فيه تجار قريش واهل الثروة نشاطهم بكل حرية واطمئنان. يبدو ان التخوف من ضياع هذه المكاسب كان اهم سبب دفع اشراف قريش لذلك الموقف العدائى المتصلب من الدعوة الاسلامية، رغم انهم كانوا يتذرعون بحجج اخرى فى مقدمتها الحفاظ على سنة الاباء، والدفاع عن تراثهم وامجادهم، والدليل على ذلك الاية القرآنية الشريفة (۵۷) من سورة القصص: (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا اولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون). اذا كان اهل مكة طبقا للقرآن الكريم يخافون ان دخلوا فى الاسلام ان يخرجوا من ارضهم، وقد فسر المفسرون (نتخطف من ارضنا) ان العرب سيهجمون على مكة ويخرجوا منها اهلها اذا ما اسلموا ودخلوا فى الدين الجديد، ويمكن ان يكون للاية معنى آخر يتلخص فى ان مكة ستفقد مكانتها الخاصة وتزول امتيازاتها فى حالة اسلام قريش واهل الجزيرة العربية، لهذا اجابهم القرآن الكريم بقوله: (اولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء) وان هذا الوضع سيستمر ويدوم. وتاتى الاية التالية من سورة القصص لتوضح اسباب انهيار المدن وتدهورها اذ تقول: (وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين) ثم يردف القرآن الكريم قائلا: (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون) ويضيف: (وما اوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند اللّه خير وابقى افلا تعقلون) «القصص: ۵۸ – ۶۰». لقد صرحت الايات القرآنية الكريمة السابقة بان قريش كانت تخشى على مكانتها من ان تتدهور، وتخاف على مركز مدينتها (مكة) التجارى والدينى ان يتزلزل فيما اذا تابعت الرسول (ص) وآمنت بدعوته.

الانذار

كانت الايات القرآنية المكية، التى تركز غالبا على دعوة قريش للدخول فى الدين الجديد تقرن دعوتها هذه بالانذار والوعيد، وكانت تدعو رسول اللّه (ص) ب (النذير) او ال (منذر) واحيانا (البشير)، وهناك آيات اطلقت عليه التسميتين فى آن واحد، مثال ذلك الاية (۱۸۸) من سورة الاعراف: (ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون)، وفى الاية الثانية من سورة هود: (الا تعبدوا الا اللّه اننى لكن منه نذير وبشير) اما الاية الثانية من سورة يونس فتقول: (اكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس وبشر الذين آمنوا). والان لنعرف ما هو الانذار، وما هو الشىء الذى يحذر القرآن الكريم منه ويتوعد اهل قريش به؟ الذى يبدو من استقراء الايات الشريفة، التى ورد فيها هذا الانذار والوعيد بصوره وكيفياته المتنوعة، ان المقصود هو يوم الحساب واقتراب الساعة وحين يحشر الناس يوم القيامة فيصب اللّه عليهم عذاب الاخرة الذى ما فتى يحذرهم منه، والحقيقة ان افضل شىء يمكنه ردع كفار قريش عن عبادة الاصنام والشرك باللّه والقتل والغزو والفسق انما هو تحذيرهم من العذاب، ومن العواقب الوخيمة التى تنتظرهم عما قريب، وبالعكس تبشير المؤمنين والصالحين بالثواب الجزيل والاجر العظيم بعد الموت. والافما هو السبيل لارشاد هؤلاء الى طريق الخير وردعهم عنسبل الشر؟ [۲۱۸] .لم تعرف مكة، بل والعرب جميعا، فى قيمهم الاخلاقية شيئا (حسن) مطلقا وآخر (قبيح) مطلقا، فلا معنى، والحالة هذه، لان يقال لاهل مكة يجب اجتناب الظلم او الكذب او الغزو او ما شابه ذلك، لانها اعمال قبيحة فى ذاتها. [۲۱۹] علما ان معانى الخير والشر فطرية مغروسة فى ذات الانسان، فالكذب والسرقة وقتل النفس والتعدى على حقوق الاخرين كلها مسائل ترفضها الفطرة السليمة وتدينها، اما لماذا يجب الامتناععن هذه الافعال السيئة مع امتلاك القدرة على فعلها، وعدم الخوف من العقوبة والقصاص؟ الم يكن امتلاك القدرة البدنية والاستطاعة المالية دليلا على الشرف وعلو الدرجة؟ الم تكن مفاخر العرب جميعا قد تحققت فى ظل السيف؟ الم يذهب دم المقتول، الذى ليس له عشيرة تمنعه، هدرا، وهل يلام القاتل او يعاقب فى مثل هذه الحالة؟ بعد ان كان بناء الحياة

الاجتماعية قائما على اسباب القوة الشخصية والقبلية، وفى ظل هذه القوة يمكن القيام باى عمل حتى لو كان من الاعمال التى لا تقبلها الفطرة ولا ـ يقرها الوجدان، اذا ليس هناك من رادع يمكن ان يردع الظالمين من اهل مكة والعرب فى شبه الجزيرة العربية سوى اخبارهم وانذارهم بان هناك قوة عليا فوق قوتهم ستعيد للضعيف والمظلوم حقه. وبناء على هذا فان ابراز القوة العظمى والقدرة الكبرى امام الظالمين والمتجاوزين سيسلبهم الجراة ويردعهم عن التجاوز والتعدى على حقوق الاخرين، وتتجلى تلك القدرة الالهية من خلال تعذيب المعاندين والمسيئين وتكريم الصالحين وتبشيرهم باحسن الثواب وافضل الجزاء يوم القيامة وعند قيام الساعة بعد الموت. ومن هنا فقد بدا الدين الجديد دعوته فى مكة بتهديد الظالمين بعذاب جهنم وتبشير الصالحين المخلصين بالجنة وحسن الثواب، وقد جاءت الايات المكية مشحونة بالوعد والوعيد من جانب وبالبشرى والجنة ونعيمها من جانب آخر، ولهذا كان كفار مكة يسخرون كثيرا من التذكير بالبعث والنشور وما يجد الانسان بعد الموت من الجنة او النار، وكانوا يهزاون بذلك كما تشير آيات مكية عديدة ويكررون القول: كيف يحيى العظام وهى رميم؟! (وقالوا ءاذا كنا عظاما ورفاتا ءانا لمبعوثون خلقا جديدا) «الاسراء: ۴۹». فيجيبهم الوحى القرآنى بقوله: (قل كونوا حجارة او حديدا، او خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم اول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا) «الاسراء: ۵۰- ۵۱». ونظير هذه الاسئلة والاجوبة كثير فى القرآن الكريم، حيث تنبى كثرة التهديد والوعيد بقيام الساعة عن الحاح الكفار فى السؤال عن موعد هذا اليوم ومتى ستحل تلك الساعة التى يحذرون منها. وتجدر الاشارة هنا الى ان اخبار القرآن الكريم عن قربالساعة ودنو الاجل لا يعنى القرب والبعد الزمانى الذى يتبادر للاذهان، فعمر الانسان لا يعنى شيئا بالنسبة الى عظمة الخلق وعمر العالم المادى. واذا ما تحدث القرآن عن قرب الساعة واقتراب اليوم الموعود، فان المراد القرب والبعد المقارنان بالزمان ككل وبعمر العالم اجمع، والساعة هذه، اى الموعد الذى تنتهى عنده الدنيا، قريبة جدا فى نظر الصانع جل شانه، وان كانت تبدو بعيدة جدا، بل غير قابلة للتصور، بالنسبة الى الانسان الترابى الذى يعيش على هذا الكوكب البسيط المحدود. وبناء على هذا فان التهديد بقرب الساعة وانشقاق القمر وانتشارالنجوم واندكاك الارض، لا يقصد بها المعنى النسبى الذى هو قريب جدا اذا ما قيس بعمر العالم، وبعيد جدا بالنسبة الى الاعمار العادية المحدودة.

الاستهزاء

لقد قابلت قريش تهديدات الرسول (ص) وتحذيراته اياها بالاستهزاء والاستخفاف، وهذا ما اشارت اليه بعض الايات القرآنية الكريمة: (واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الاهزوا...) «الانبياء: ۳۶» (واذا راوك ان يتخذونك الا ـ هزوا اهذا الذى بعث اللّه رسولا ـ) «الفرقان: ۴۱» (ذلكم بانكم اتخذتم آيات اللّه هزوا) «الجاثية: ۳۵».

رد فعل قريش

لقد ضاقت قريش ذرعا بالدعوة الاسلامية ولم تستطع احتمالها، لخوفها من زوال مركزها وضياع ما حصلت عليه مدينتها (مكة) من موقع تجارى ودينى خاصين، او لانهاشعرت باستفزاز صارخ لمشاعرها الدينية، او بسبب الحسد والخصومات القبلية والتعصب العشائرى، وقد ازدادوا خوفا واضطرابا عندما لاحظوا تزايد اعداد الضعفاء والمستضعفين الذين اخذوا يعتنقون الدين الجديد. فعكفوا يبحثون عن طريقة للحل، ولم يكن من السهل الحاق الاذى والاضطهاد بشخص ذى عشيرة قوية ضمن النظام القبلى الذى كان سائدا آنذاك، وكان مثل هذا العمل يتطلب مشورة وعونا من اشراف القوم واهل الراى فيهم، والا ـ فسيهب قوم ذلك الرجل لنصرته والاقتصاص من خصمه، وقد يؤدى الامر الى نزاع دموى لايعلم احد مداه. وتبدو المسالة فى مكة اكثر تعقيدا، حيث تتجاور بطون قريشالمختلفة هناك، ويحتك بعضها ببعض يوميا، فلا مجال لهرب شخص او اختفائه اذا ما ارتكب جرما معينا، فالخائف عندما يفر يلجا الى قبيلة نائية تسكن فى الصحراء بعيدا عن موطنه الاصلى، وفى مثل هذه الحالة تطول المدة حتى تتهيا القبيلة التى كان قد

اعتدى عليها وتصل الى ملجئه وملاذه عند القبيلة المجيرة، وهذا ما كانت تفتقد اليه مكة المكتظة ببطون قريش المختلفة والتى تتجاور فى مساكنها. فاى نزاع يمكن ان يؤدى الى اشتعال النار فى المدينة باكملها ويورث خصومة دائمة، ومثل هذا الوضع كانت تعيشه يثرب هى الاخرى، اضافة الى ذلك كانت الاحلاف، كحلف المطلبين وحلف الفضول، تنقل النزاع من دائرة القبيلتين المتنازعتين الى دائرة اوسع، هى دائرة الاحلاف او القبائل العديدة المتحالفة فيما بينها التى تشهر كل منها سيفها للدفاع عن الجماعة المتحالفة معها ضد الجماعة الاخرى داخل الحلف الاخر، وحين اعلن الرسول (ص) دعوته وافصح عن انتقاده وذمه لاشراف قريش واسلافها وما جروا عليه من سنن الضلال والغى، وهاجم (ص) اصنامهم وتقاليدهم الجاهلية، وسفه احلامهم وآلهتهم واعتقاداتهم، وقفت قريش قلقة على مصيرها، تحاول جاهدة دفع الخطر عن نفسها، ولكنها لم تستطع للاسباب السابقة الانفراد برسول اللّه (ص) والحاق الاذى به، فذهبت مضطرة الى بنى هاشم تعرض الامر عليهم وتطالبهم باقناع الرسول (ص) بالكف عن سب آبائهم ومهاجمة عقائدهم والا فسيستعينوا بهم اى ببنى هاشم على ايذائه وطرده او حتى قتله والخلاص منه، وكانت زعامة بنى هاشم منعقدة آنذاك لابى طالب، وقد لمع فى بنى هاشم ثلاث شخصيات مرموقة، وهم فيما عدا الرسول (ص) ابوطالب وابولهب وحمزة، وكان ابو طالب اكثرهم وقارا وهيبة لكبر سنه، غير انه كان فقير الحال فى حين كان ابو لهب على قدر كبير من الثراء، بشهادة القرآن الكريم: (ما اغنى عنه ماله وما كسب) «المسد: ۲»، وكان بعرف المقاييس الجاهلية من اجلة القوم واشرافهم. اما زوجته ام جميل فكانت من عائلة بنى امية ذات القوة والنفوذ، وامتاز حمزة بشجاعة خاصة جعلت الجميع يهابونه ويقدرونه، رغم انه كان بعيدا على ما يبدو عن الشؤون السياسية والاجتماعية لمدينته، حيث كان يقضى اكثر اوقاته بالصيد ولم يعر فى البداية اهتماما خاصا لابن اخيه ورسالته. لقد ناصب ابولهب رسول اللّه (ص) العداء منذ البداية، واعلن حربه على الدعوة الاسلامية منذ اللحظات الاولى، وبناء على هذا كان ابو طالب هو الرجل الوحيد من بنى هاشم الذى كان بامكانه توفير الحماية لرسول اللّه (ص)، او تركه بيد المعارضين والتخلى عنه. لقد اختار ابوطالب الموقف الاول، ووقف بكل شهامة الى جانب ابن اخيه، الامر الذى جعل اشراف قريش يرجعون اليه فى امر محمد (ص) ويجلسون معه للتحدث بهذا الشان، حيث قائلين: «يا ابا طالب، ان ابن اخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه احلامنا، وضلل آباءنا، فاما ان تكفه عنا، واما ان تخلى بيننا وبينه، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه». فقال لهم ابوطالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه، ومضى رسول اللّه (ص) على ما هو عليه يظهر دين اللّه ويدعو اليه. ثم شرى الامر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، واكثرت قريش ذكر رسول اللّه (ص) بينها وتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضا عليه، ثم انهم مشوا الى ابى طالب مرة اخرى، فقالوا: «يا ابا طالب، ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا، وانا واللّه لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، او ننازله واياك فى ذلك حتى يهلك احد الفريقين»، ثم انصرفوا عنه. فعظم على ابى طالب فراق قومه وعداوتهم له، ولم يطب نفسا باسلام رسول اللّه (ص) لهم ولا خذلانه. وقدت [۲۲۰] كرر هذا الجدل وتلك المناظرات مرات‌ومرات، يذكرها الطبرى فى تاريخه فى الموضع السابق، الى‌الحد الذى طلب معه ابوطالب الى ابن اخيه ان يلاحظ حاله وما هو عليه من الحرج، قائلا له: «يا ابن اخى، ان قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا، فابق على وعلى نفسك، ولاتحملنى من الامر ما لا اطيق». فظن رسول اللّه (ص) انه بدالعمه فيه بداء، وانه خاذله ومسلمه، وانه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول اللّه (ص): «يا عماه، واللّه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان اترك هذا الامر حتى يظهره اللّه او اهلك فيه ما تركته». ثم استعبر رسول اللّه (ص) فبكى، ثم قام، فلما ذهب ناداه ابوطالب، فقال: «اقبل يا ابن اخى». فاقبل عليه رسول اللّه (ص) فقال: «اذهب يا ابن اخى فقل ما احببت، فواللّه لا اسلمك لشىء ابدا». ثم ان قريشا لما عرفت ان اباطالب ابى خذلان رسول اللّه (ص) واسلامه، واجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم مشواالیه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا اباطالب، هذا عمارة بن الوليد انهر فتى فى قريش واشعره واجمله، فخذه فلك عقله ونصرته، واتخذه ولدا فهو لك، واسلم لنا ابن اخيك، هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه احلامهم، فنقتله، فانما رجل كرجل». فقال: «واللّه لبئس ما تسوموننى، اتعطونى ابنكم اغذوه

لكم، واعطيكم ابنى تقتلونه؟! هذا واللّه ما لا يكون ابدا». فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف: «واللّه يا اباطالب، لقد انصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما اراك تريد ان تقبل منهم شيئا». فقال ابوطالب للمطعم: «واللّه ما انصفونى، ولكنك قد اجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك». فحقب الامر عند ذلك، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادىء بعضهم بعضا، ثم ان قريشا تذامروا على من فى القبائل من اصحاب رسول اللّه (ص) الذين اسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع اللّه رسوله (ص) منهم بعمه ابى طالب، فقد قام ابو طالب حين راى قريشا تصنع ما تصنع فى بنى هاشم، فدعاهم الى الزود عن رسول اللّه (ص) والقيام دونه، فاجتمعوا اليه وقاموا معه، واجابوه الى ما دعاهم اليه من الدفاع عن رسول اللّه (ص) الا ما كان من ابى لهب، فلما راى ابوطالب من قومه ما سره من وقوفهم معه وحدبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول اللّه (ص) فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رايهم. [۲۲۱] .

رواية عروة بن الزبير

هناك رواية لعروة بن الزبير الذى يعتقد انه اقدم مدون لسيرة الرسول (ص)، ينقلها الطبرى فى تاريخه، [۲۲۲] قال عروة فى رسالة بعثها الى عبد الملك بن مروان حول سيرة الرسول (ص): «اما بعد، فانه (يعنى رسول اللّه (ص) لما دعا قومه، لما بعثه اللّه له من الهدى والنور الذى انزل عليه، لم يبعدوا منه اول ما دعاهم وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم اموال انكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، واغروا به من اطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه الى من حفظه اللّه منهم وهم قليل، فمكث بذلك ما قدر اللّه ان يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بان يفتنوا من تبعه عن دين اللّه من ابنائهم واخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول اللّه (ص) من اهل الاسلام، فافتتن من افتتن، وعصم اللّه منهم من شاء، فلما فعل ذلك بالمسلمين امرهم رسول اللّه (ص) ان يخرجوا الى ارض الحبشة». وسياتى الحديث عن بقية الرواية فى قصة الهجرة الى الحبشة، غير ان الذى نراه مهما هنا هو ذلك المقطع من الرواية الذى يقول: «حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم اموال، انكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، واغروا به من اطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس». تشير هذه الرواية الى ان اثرياء قريش وتجارها الذين لم تذكر الرواية اسماءهم كانوا يوظفون اموالهم ويستثمرونها فى اعمال تجارية فى الطائف، ويعتقد ان هؤلاء التجار كانوا اثرى اهل مكة. والمقطع الاخر من الرواية الذى يؤكد عدم ارتياح هؤلاء لدعوة الرسول (ص)، وخوفهم من تفرق الناس عنهم، وذهاب مكانتهم، وتزلزل موقعهم، بتحول عامة الناس الى الرسول (ص) وانجذابها الى حديثه وحسن خطابه، وفيما لو انتشرت هذه الدعوة واشتد عودها وقويت شوكة الدين الجديد فلن يكون بمقدورهم بعد هذا استغلال المستضعفين. ويؤيد هذا المقطع من رواية عروة الكلام الذى سقناه فى الاستدلال بالايات القرآنية الشريفة وبموجب ذلك قال الكفار (ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا).

قريش تناظر و تطلب الدلائل و المعجزات

تصور الايات (۹۰- ۹۶) من سورة الاسراء قصة حوار قريش وعنادها ومناظراتها مع رسول اللّه (ص): (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتى باللّه والملائكة قبيلا، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا، وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث اللّه بشرا رسولا، قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا، قل كفى باللّه شهيدا بينى وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا). وقد كان جوابا منطقيا... (هل كنت الا بشرا رسولا..) ولو (كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) اى ينبغى ان يكون الرسل من جنس من ارسلوا اليهم المرسل اليهم، ولو ان اللّه ارسل للكافرين ملائكة لقالوا لا نؤمن لهؤلاء الملائكة حتى يرسل

لنا اللّه بشرا مثلنا. وعلى ايـة حال فان جواب الرسول عن حقيقة ان الانبياء والرسل يرجعون الى عقول الناس ووجدانهم فى تمييز العالم مـن الجاهـل والمســىء مـن المحسـن، والا ـ لـن يكـون هنـاك اى معنى للاختبـار والامتحـان اذا كـانت الامـور كلهـا تجرى بالايـات والمعجزات. ان طبيعة الانسان تقتضـى انذاره وتحذيره، فان اسـتجاب لهذا التحذير وانتصر على هواه ونزعاته الذاتية، فسيكون قد اثبت انسانيته وكتب له الفوز والنجاح فى هذا الامتحان، والافالعلامات والمعجزات لا تتوافق مع الامتحان والابتلاء. وعلى كل حال، فكما ان عقل الانسان وضـميره بمثابـة الرسول والمبعوث الالهى الذى اودعه اللّه داخل النفس الانسانية، كذلك الانبياء والرسل ما هم الا بمثابة وجـدان اخلاقى على مسـتوى المجتمع والامـة، فان غلب العقل الفردى وهزم امام الهوى والنزعات النفسـية، فسـيكون من وظيفة العقل الاجتماعى، الذى هو الرسول، تنبيهه وايقاظه من غفلته، وذلك بارشاده الى الصواب، وتحذيره من الركون الى هوى النفس ووساوسها الشيـطانية، ولو اسـتجاب قوم عاد وثمود وصالح ولوط الذين ذكرهم القرآن الكريم لدعوة انبياء اللّه ورسـله لما هلكوا، فارسال الرياح وتسـخير العواصف وانزال المطر ورميهم بالحجـارة واخـذهم بالطوفان والسـيول وتـدمير منازلهم، كل ذلك لا يراد به المعانى الحرفية التى تحمل عادة على انها آفات وكوارث دنيوية، بل المراد بها والحاق المفاسد والمهالك بالمجتمع نتيجة عدم اسـتجابة هؤلاء الاقوام لنـداء العقـل والوجـدان الـذى هتف به انبياء اللّه ورسـله، وقـد وردت فى القرآن الكريم امثلـة كثيرة على ذلك، كما ان هناك آلاف الادلة التاريخية التى تثبت هذا المعنى.

ذيل رواية عروة بن الزبير

كتب عروة فى رسـالته الى الخليفـة الاموى عبـد الملك بن مروان يقول: «ائتمرت رؤوسـهم بان يفتنوا من تبعه عن دين اللّه من ابنائهم واخوانهم وقبائلهم.. فلما فعل ذلك بالمسـلمين امرهم رسول اللّه (ص) ان يخرجوا الى ارض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشـى، لا ـ يظلم احـد بـارضه، وكان يثنى عليه مع ذلك صـلاح، وكانت ارض الحبشـة متجرا لقريش يتجرون فيها، يجـدون فيها رفاغا من الرزق وامنا ومتجرا حسـنا، فامرهم بها رسول اللّه (ص)، فـذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكـة وخاف عليهم الفتن، فمكث هو فلم يبرح، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من اسلم منهم، ثم فشا الاسلام فيها، ودخل فيها رجال من اشرافهم».

الهجرة الى الحبشة و اسبابها

اشاره

يتضـح من روايـة عروة بن الزبير، الـتى تتجلى فيهـا آثـار الاصالـة، ان كفـار قريش كـانوا قـد عقـدوا العزم على ان يثنوا المسـلمين عن اسـلامهم ويردوهم الى دين آبائهم باى شـكل من الاشـكال، وقد سلكوا السلوك نفسه الذى سلكه ابوجهل. قال ابن هشام فى سيرته: [۲۲۳] «كان ابو جهل الفاسقالـذى يغرى بهم فى رجال قريش، اذا سـمع بالرجل قد اسـلم، وله شـرف ومنعة، انبه واخزاه، وقال: تركت دين ابيك وهو خير منك، لنسـفهن حلمك، ولنفيلن رايك، ولنضعن شرفك، وان كان تاجرا قال: واللّه لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وان كان ضعيفا ضربه واغرى به»، وبذلك اضطر الرسول (ص) الى ان يامر بعضا من اتباعه بالهجرة الى الحبشة لينجوا من اذى قريش، ويكونوا فى مـامن من ذلـك. يطرح مونتغمرى وات فى كتـابه (محمـد فى مكـة) آراء ل (كايتـانى) وآخرين غيره حول هجرة المسـلمين الى الحبشـة، احـد هـذه الاراء ما ينقله (وات) عن (كايتانى) من ان: السـبب الاول لعدم قبول الهجرتين ان ابن اسـحاق، كما يقـول ابن هشـام والطـبرى، لا ـ يقـول صـراحة بوجود هجرتين. فهو يقول: وكـان اول من خرج من المسـلمين. ثم يـذكر قائمـة صـغيرة ويردف قائلا: ثم خرج جعفر بن ابى طالب وتتابع المسـلمون. لانلاحظ ذكر اى جماعة عادت لتهاجر من جديد مرة ثانية، ونلاحظ من ناحيـة ثانيـة ان القوائم لا تتبع نظام الرحيل الى الحبشـة، بل تتبع تنظيما يقوم على المكانة، حيث نجد ذكر الاسم حسب سـجل الخلافة

الذى اخذت منه، نقرا فيها ان اول من وصل الى الحبشة هو (ابو سبرة) وان (عمر بن سعيد بن العاص) هاجر بعد سنتين من هجرة اخيه خالد. تدل هذه الامثلة كما تدل كلمة «تتابع» انه لم يكن هناك جماعتان كبيرتان بل جماعات صغيرة. ويضيف وات انه بعد ان اصبحت الهجرة احد الامتيازات المهمة للحصول على اعطيات اكثر، فقد كثر من ادعاها، يقول: «عدل الخليفة عمر فى السنة ۱۵ للهجرة النظام الذى كان المسلمون يتقاضون بموجبه اعطيات سنوية من بيت المال تقديرا لخدماتهم فى القتال او فى الادارة، وهذه الاعطيات تختلف باختلاف تاريخ اعتناق الاسلام، ذلك لان المسلمين الاوائل كانوا يتقاضون اكبر الاعطيات، وقد اصبحوا حسب النظام الجديد فى ارفع الطبقات بعد زوجات الرسول واقربائه... وكل من برهن على قيامه بهجرة او هجرتين ينال شرفا رفيعا يؤهله لاحتلال ارفع درجات النبل فى الاسلام. ويضيف وات قائلا: قرر محمد فى السنة السابعة للهجرة ان يقوى مركزه بالاعتماد على تاييد الجماعة الصغيرة فى الحبشة، فارسل اليهم رسولا ـ يعدهم بالاستقبال الحار ويصحبهم فى طريق العودة، فعادوا او عاد قسم منهم فاستقبلوا استقبالا حافلا ونالوا جزءا من فىء خيبر التى استولى عليها محمدلتوه». ويتابع قائلا: ولربما اطلق لفظ الهجرة على مغامرة الحبشة فى هذا الوقت على يد محمد نفسه اعترافا بموقف جعفر الكريم وصحبه، واصبح يحق لهم بسبب هجرتهم الى الحبشة ان يعاملوا كمهاجرين، وان يكونوا اندادا للذين اعطواهذا اللقب. [۲۲۴] .غير اننى لا ـ اعتقد بصحة ذلك، لان سورة النحل وهى سورة مكية تقول: (والذين هاجروا فى اللّه من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولاجر الاخرة اكبر لو كانوا يعلمون) «النحل:۴۱». ومعلوم ان الهجرة المشار اليها ليس الهجرة الى المدينة، وانما الهجرة الى الحبشة لان الاية مكية، (وقد اشير الى هذا المعنى ايضا فى تفسير الطبرى، وبناء على هذا فان السفر الى الحبشة قد اطلق عليه فى مكة (الهجرة) وقد ذكر هذا المعنى ايضا فى القرآن الكريم). اما بشان الهجرتين الى الحبشة، فيجب القول ان هذا صحيح خلافا لما يرى (كايتانى). يقول (كايتانى) و (وات): «ان هذا المعنى لم يذكر صراحة فى سيرة ابن هشام»، بمعنى ان محمد بن اسحاق لم يذكره، لكنهما كانا لا يملكان طبعة القرويين (سيرة محمد بن اسحاق). وقد لخص ابن هشام السيرة المذكورة وحررها طبقا لرواية زياد بن عبداللّه البهائى، اما نسخة القرويين فكانت طبقا لرواية يونس بن بكير عن محمد بن اسحاق، كما ان رواية الطبرى لسيرة محمد بن اسحاق كانت بطريق (ابن حميد وسلمة). جاء فى سيرة محمد بن اسحاق برواية يونس (نسخة القرويين) عند ذكره لاسماء من هاجر الى الحبشة: «وكان ممن هاجر من مكة الى ارض الحبشة قبل هجرة جعفر واصحابه..». ويتضح من العبارة السابقة ان هناك مجموعتين مستقلتين هاجرتا الى الحبشة، كانت الثانية بقيادة جعفر بن ابى‌طالب. وجاء فى سيرة ابن هشام بعد استعراضه لاسماء المهاجرين العشرة الاوائل قوله: «فكان هؤلاء العشرة اول من خرج من المسلمين الى ارض الحبشة فيما بلغنى» ويضيف ابن هشام قائلا: «وكان عليهم عثمان بن مظعون فيما ذكر لى‌ب عض اهل العلم». ومن هنا يتضح ان هناك مجموعتين منفصلتين هاجرتا الى ارض الحبشة، كانت الاولى بقيادة عثمان بن مظعون، بينما اسندت قيادة المجموعة الثانية الى جعفر بن ابى طالب اخى اميرالمؤمنين على بن ابى طالب (ع). وفضلا عن هذا، كان هناك من عاد من ارض الحبشة الى مكة بعد ان سمع الاخبار الكاذبة عن ايمان كفار قريش، ثم ما لبث ان رجع الى الحبشة حين اكتشف عدم صدق تلك الاخبار، وقد اطلق على هذه العودة الهجرة الثانية. لكن التحقيق فى الروايات يظهر ان المقصود بالهجرة الثانية انما هو هجرة مجموعة ثانية بقيادة جعفر بن ابى طالب وقد انضمت اليها تلك الجماعة العائدة، والدليل على هذا ما رواه ابن‌سعد [۲۲۵] عن ام خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص، قالت: «كان ابى خامسا فى الاسلام، قلت: فمن تقدمه؟ قالت:ابن ابى طالب، وابن ابى قحافة، وزيد بن حارثة، وسعد بن ابيوقاص، واسلم ابى قبل الهجرة الاولى الى ارض الحبشة، وهاجر فى المرة الثانية، واقام فيها بضع عشرة سنة». وعند مراجعة سيرة ابن هشام لا نجد اسم خالد بن سعيد بين اسماء المهاجرين العشرة الاوائل فى الهجرة الاولى بينماورد اسمه فى قائمة اصحاب الهجرة الثانية. [۲۲۶] .وورد اسم عثمان بن عفان مرتين: مرة مع المهاجرين فى الهجرة الاولى، ومرة مع المهاجرين فى الهجرة الثانية. وقد صرح ابن سعد فى طبقاته [۲۲۷] عند ذكره الهجرة الاولى، والهجرة الثانية قائلا: «لما قدم اصحاب النبى (ص) مكة من الهجرة الاولى اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم اذى شديدا، فاذن لهم رسول اللّه (ص) فى الخروج الى ارض

الحبشـة مرة ثانيـة، فكـانت خرجتهم الاخرة اعظمها مشـقة»، ثم يقول: «قال عثمان بن عفان: يا رسول اللّه، هجرتنا الاولى وهـذه الاخرة الى النجاشـى، ولست معنـا؟ فقـال رسول اللّه (ص): انتم مهـاجرون الى اللّه والى، لكم هاتـان الهجرتـان جميعـا. قال عثمان: فحسـبنا يا رسول اللّه». وقد سـبقت الاشارة الى ان ابن هشام ذكر الهجرة الى الحبشة كما ذكر الاحداث الاخرى بتلخيصه لسـيرة ابن اسحاق، ولم يسـتطع اعطاء صورة كاملة عن الهجرة الى الحبشة واسـماء المهاجرين فى الهجرتين، كما ان نسخة القرويين ناقصة ايضافهى لا تحتوى على تفاصـيل الهجرتين، ولكننـا نعلم من مصـادر اخرى ان ابن اسـحاق ذكر الهجرتين بشـكل صـريح، فمن المحتمـل جـدا ان يكـون المهاجرون فى الهجرة الاولى هم العشـرة الواردة اسـماؤهم فى قائمة ابن هشام، وكانوا طبقا لروايته بقيادة عثمان بن مظعون. اما القائمة الثانية الطويلة التى وردت فى سـيرة ابن هشام، فانها متضـمنة اسماء المهاجرين فى الهجرة الثانية الى ارض الحبشة، وقد كان عثمان بن مظعون، الـذى قـاد المهـاجرين فى الهجرة الاـولى، حاضـرا ايضا فى الهجرة الثانيـة التى كانت بقيادة جعفر بن ابى طالب. اما المصـدر الاخر الذى ينقل عن سـيرة ابن اسـحاق فهو طبقات ابن سـعد، وبناء عليه فان ابن اسحاق اشار بشكل صريح الى الهجرة الاولى والثانية. يقول ابن سـعد فى ترجمة عبداللّه بن مسـعود: [۲۲۸] «هاجر عبـداللّه بن مسـعود الىارض الحبشة الهجرتين جميعا فى رواية ابى معشـر ومحمدبن عمر، ولم يذكره محمد بن اسـحاق فى الهجرة الاولى، وذكره فى الهجرة الثانية». وهكذا فانه لم يرد فى سيرة ابن هشام اسم (المقـداد بن عمر) او (المقـداد بن الاسود) فى قائمـة العشـرة ممن هاجروا الى ارض الحبشة، بينما ورد فى القائمة الثانية الطويلة. وجاء فى طبقات ابن سـعد: [۲۲۹] «هاجر المقـداد الى ارض‌الحبشـة الهجرة الثانيـة فى روايـة محمد بن اسـحاق ومحمد بن‌عمر، ولم يذكره موسـى بن عقبة ولا ابو معشـر». وما ذلك الادليل على ان نسـخة سـيرة محمد بن اسـحاق كانت قد ذكرت (الهجرة الاولى) و (الهجرة الثانيـة) صـراحة غير ان ابن هشـام اسـقطها فى تلخيصه، او انه لم يصـرح بهـا فى روايته. على ايـة حـال فان (الهجرة الاولى) و (الهجرة الثانيـة) كانتا قدذكرتا منذ القدم حتى فى رواية محمد بن اسـحاق. يقول ابن سـعد فى ترجمته لعثمان بن مظعون: [۲۳۰] «قالوا: وهاجر عثمان بن مظعون الى ارض الحبشـة الهجرتين جميعا فى روايـة محمد بن اسـحاق ومحمد بن عمر». ولا تعنى كلمة (قالوا) التى وردت فى الروايـة ان ابن سـعد سـمع روايـة محمد بن اسـحاق او نقلها عن الاخرين، بل تعنى ان القول قطعى ومحقق. فمن المسـلم به ان ابن سعد كان قد سـمع سيرة محمد بن اسحاق وكانت تحت يده. فقد روى ابن سعد سيرة محمد بن اسحاق عن طريق ابراهيم بن سعد بن ابراهيم الزهرى. وبنـاء على هـذا، فـان كلاـم مونتغمرى وات [۲۳۱] الـذى يقول: «ونشـعر من قراءة سـيرة ابن اسـحاق انه وجـد، لبعض الوقت، قائمتان باسـماء المهاجرين للحبشـة، وانه هو نفسه لم يكن واثقا من صـحة القائمتين». وقد راينا نحن عن طريق رواية محمد بن سعـد كاتب الواقـدى ان ابن اسـحاق كان قد صـرح بالحقيقة، لكن ابن هشام حذف ذلك ولخصه، وكذلك الطبرى فانه بعد ان ذكر اسـماء المهاجرين العشـرة الاول (اول من خرج من المسـلمين) عن طريق محمد بن اسحاق قال: قال محمد بن اسحاق: ثم خرج جعفر بن ابى طـالب وتتـابع المسـلمون..» ومن هنـا يتضـح ان الطبرى قام هو الاخر باختصار كلام ابن اسـحاق، والا لم يقل: «قال». واساسا لا مبرر لقوله: «ثم خرج جعفر بن ابى طالب» بعـد ذكره لاسـماء المهاجرين العشـرة الاوائل. وقال بعـد ذلك: «ثم عد اى ابن اسـحاق بعد ذلـك تمام اثنين وثمانين رجلا بالعشـرة الـذين ذكرت اسـماءهم». ويمثل هؤلاء ال (۸۲) رجلاـ مجموع المهاجرين فى الهجرة الثانيـة، وكان من ضـمنهم العشـرة الاوائل اصـحاب الهجرة الاولى التى كانت بقيادة عثمان بن مظعون، فانهم كانوا قـد عادوا الى مكـة بعد ان سمعوا خبر اسـلام اهـل مكـة الكاذب، ثم رجعوا مع من هاجر الى الحبشـة، وكان جعفر بن ابى طالب هو قائـد المهاجرين هـذه المرة. وجاء فى طبعة (نسـخة القرويين) البند (۲۸۱) ما نصه: «فلما اشتـد البلاء وعظمت الفتنـة، تواثبوا على اصـحاب رسول اللّه (ص) وكانت الفتنـة الاخيرة التى اخرجت من كان هاجر من المسـلمين بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم الى ارض الحبشة..» ولم يوضع البند (۲۸۱) فى موضـعه الواقعى فى طبعـة نسـخة القرويين، فقـد كان عنوانه (حـديث الهجرة الاولى الى الحبشة) فى حين ان الموضوع مرتبط بالهجرة الثانية.

الهجرة الى الحبشة

وردت اشارة فى رواية عروة بن الزبير التى نقلناها فيما سبق الى ان الحبشة كانت واحدة من البلدان التى تعاملت معها قريش فى التجارة، وقصدها القرشيون لهذا الغرض. اذا كان المهاجرون على معرفة باوضاع الحبشة، ولهذا كانت انسب من غيرها لان تنتخب مكانا للهجرة، ولم تكن مدينة يثرب حينذاك قد بلغت الاوضاع فيها تلك الدرجة من الاطمئنان التى كانت قد بلغتها بعد عدة سنوات حين قصدها الرسول (ص) والمسلمون عند الهجرة، ولم يكن باستطاعتهم ان ينعموا بالامن هناك. وكانت الطائف مدينة تربطها علاقات وثيقة جدامع اثرياء قريش، كما ان آلهتها قد تعرضت للهجوم والاستهزاء من قبل الرسول (ص). اضف الى ذلك ان الهجرة الى بلاد الامبراطورية الفارسية او الرومانية لم تكن مناسبة باى وجه من الوجوه. فكانت الحبشة فضلا عما ذكرنا اقرب من غيرها الى مكة عن طريق البحر من جانب، ومن جانب آخر يحتمل انلا يكون ملك الحبشة واهلها على قدر كبير من التعصب الدينى، ولهذا كله كانت انسب للهجرة من اى مكان آخر. وقدجاء فى سيرة ابن اسحاق ان الرسول (ص) قال: «لو خرجتم الى ارض الحبشة، فان فيها ملكا لا يظلم احد عنده، وهى ارض صدق».

سبب الهجرة

اعتقد ان اسباب الهجرة هى نفسها الاسباب التى ذكرتها الروايات، والتى تتلخص فى سعى الرسول (ص) الى تجنيب اصحابه الاذى والاستهزاء والملاحقة من قبل قريش ولو لفترة معينة، ريثما يتكاثر عددهم ويصبح الوضع اكثر امنا وسلاما للقيام بالنشاطات الاسلامية المطلوبة فى الدعوة والتبليغ للرسالة الجديدة. وذهب (مونتغمرى وات) الى الاعتقاد بان سبب الهجرة الحقيقى هو محاولة الرسول (ص) رفع الاختلاف الذى حصل بين مجموعتين من المسلمين، يتزعم احداهما عثمان بن‌مظعون، بينما يتزعم الثانية ابوبكر، فامر رسول اللّه (ص) المجموعة الاولى بالهجرة الى الحبشة. ان سببا كهذا الذى يراه (وات) يحتاج الى مزيد من الادلة، اذانه من المحال ان ينشا مثل هذا النزاع الذى يقسم المسلمين الى مجموعتين فى ظل زعامة الرسول (ص) التى ليس لها منازع، ولو فرضنا حصول مثل هذا الانقسام بين تلك الجماعة الصغيرة التى تعرضت لشتى صنوف التعذيب من التنكيل والحاق الاذى والتهم والملاحقة من قبل كفار قريش، فسيكون من السهل معالجة ذلك بآية قرآنية تحذر من الانقسام وتدين الجهة المخالفة للرسول (ص)، وليس ثمة آية فى القرآن الكريم تتحدث حول هذا الموضوع. وربما اراد الرسول (ص) من الهجرة الى الحبشة امورا اخرى غير الابتعاد عن اذى كفار قريش، كايجاد قاعدة للنفوذ الاسلامى هناك واستخدامها ضد الاعداء كما يرى بعض المستشرقين والعمل على تهديد تجارة قريش الحيوية والمهمة جدا مع الحبشة، وتحويل مخاوف قريش وهو اجسها التى تتحدث عنها الاية الشريفة: (نتخطف من ارضنا) الى واقع عملى. اما السؤال عن الاسباب التى دعت الى هجرة جماعة من المسلمين وبقاء جماعة اخرى، فلا نملك له جوابا ناجعا، سوى ان ذلك من المسائل المرتبطة بظروف المسلمين واوضاعهم الخاصة، وهذا ما لا تتحدث عنه الروايات ولم تاتعلى ذكره، على ان المسلمين لا يمكنهم الهجرة جميعا وترك الرسول (ص) وحده، وليس بمقدورهم مخالفة رغبته فى بقاء مجموعة منهم معه، رغم جهلنا بالاسباب التى اوجدت عنده مثل هذه الرغبة. واذا ما تابعنا المهاجرين الى الحبشة لتقصى اخبارهم والاطلاع على سبل معايشهم والطرق التى كانوا يؤمنون بواسطتها نفقات‌حياتهم اليومية خلال تلك المدة الطويلة التى قضوها هناك، فاننا نجد فى رواية عروة اشارة الى ذلك اثناء الحديث عن تجارة قريش مع الحبشة، بحيث يمكن القول ان تمرس القرشيين بالتجارة واضطلاعهم بها، جعلهم قادرين على تامين حياتهم حتى فى المهجر من خلال المتاجرة والكسب. وربماكان المهاجرون الذين قضوا فترة اطول فى المهجر اكثر نجاحافى تجارتهم من اولئك الذين عادوا قبلهم. هناك رواية اوردها البلاذرى [۲۳۲] تقول: «ان ابا طالب كان يمول جعفر بن ابى طالب بالمال اللازم حتى وفاته». وحتى مع صدق هذه الرواية فانه كان لابد لجعفر من مصدر يدر عليه ما يؤمن نفقاته خلال الفترة التى قضاها هناك بعد وفاة ابيه. ويحتمل ان يكون ملك الحبشة هو الممول والمسؤول عن حياة المهاجرين طيلة وجودهم فى مملكته

وتحت حكمه باعتبـارهم فى حكم اللاجئين السياسـيين. ويفهم من روايـات عروة ومحمـد بن اسحاق ان الحبشـيين لم يظهروا خلال تعاملهم مع الاديان الاخرى نوعا من الشدة والتعصب الدينى، فقد عاشت تلك المجموعة الصغيرة المهاجرة الى هناك فى امن وسلام. دامت هذه الهجرة من ثلاثة الى اربعة اشـهر، فقد جاء فى رواية محمد بن اسحاق عن محمد بن عمر ان المسلمين كانواقد هاجروا الى الحبشة فى رجب من السـنة الخامسة للبعثة (فى حدود سنة ۶۱۴م) وامضوا هناك شـهرى شعبان ورمضان، ولم يعودوا الى مكة الا فى شهر شوال من العام نفسه، لسماعهم بسجدة قريش، التى وقعت بموجب هذه الرواية فى شهررمضان. [۲۳۳] .

قصة السجدة و الغرانيق

اشاره

روى ابن سـعد فى طبقاته عن محمـد بن عمر، قال: «حـدثنى يونس بن محمـد بن فضالة الظفرى، عن ابيه، قال: وحدثنى كثير بن زيد، عن المطلب بن عبداللّه بن حنطب، قالا: راى رسول اللّه (ص) من قومه كفا عنه فجلس طالبا فتمنى فقال: ليتهلا ينزل على شىء ينفرهم عنى! وقارب رسول اللّه (ص) قومه،فدنا منهم ودنوا منه، فجلس يوما مجلسا فى ناد من تلك الاندية حول الكعبة، فقرا عليهم: (والنجم اذا هـوى) «النجم: ۱» حتى اذا بلغ (افرايتم اللات والعزى، ومنوة الثالثة الاخرى) «النجم:۱۹ - ۲۰» القى الشيطان كلمتين على لسانه: «تلك الغرانيق العلى وان شـفاعتهن لترتجى» فتكلم رسول اللّه (ص) بهما، ثم مضى فقرا السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعا، ورفع الوليد بن المغيرة ترابا الى جبهته فسـجد، وكان شيخا كبيرا لايقدر على السجود، ويقال: ان ابا احيحة سعيد بن العاص اخذ ترابا فسجد عليه رفعه الى جبهته وكان شـيخا كبيرا، فبعض الناس يقول: انما الـذى رفع التراب الوليـد، وبعضـهم يقول: ابواحيحـة، وبعضـهم يقول: كلاهما جميعا فعل ذلك. فرضوا بماتكلم به رسول اللّه (ص)، وقالوا: قـد عرفنا ان اللّه يحيى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هـذه تشـفع لنا عنده، اما اذا جعلت لها نصيبا فنحن معك، فكبر ذلك على رسول اللّه (ص) من قولهم حتى جلس فى البيت، فلما امسى اتاه جبريـل (ع) فعرض عليه السورة، فقـال جبريـل: جئتـك بهـاتين الكلمتين، فقـال رسول اللّه (ص): قلت على اللّه ما لم يقل، فاوحى اللّه اليه: (وان كـادوا ليفتنونـك عن الـذى اوحينـا اليـك لتفترى علينا غيرهواذا لاتخـذوك خليلا) الى قوله: (ثم لا تجـد لك علينا نصـيرا) «الاسراء: ۷۳- ۷۵». ويضـيف ابن سـعد الى ذلك قائلا: «اخبرنا ابن عمر قال: حـدثنى محمـد بن عبداللّه، عن الزهرى، عن ابى بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، قال: فشت تلك السـجدة فى الناس حتى بلغت ارض الحبشة، فبلغ اصحاب رسول اللّه (ص) ان اهل مكة قد سـجدوا واسـلموا حتى ان الوليد بن المغيرة وابا احيحة قد سجدا خلف النبى (ص) فقال القوم: فمن بقى بمكة اذا اسلم هؤلاء؟ وقالوا: عشائرنا احب الينا. فخرجوا راجعين حتى اذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقواركبا من كنانة فسالوهم عن قريش وعن حالهم، فقال الركب: ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملا، ثم ارتد عنها فعاد لشـتم آلهتهم وعادوا له بالشـر. فتركناهم على ذلك، فائتمر القوم فى الرجوع الى ارض الحبشـة، ثم قالوا: قـد بلغنا نـدخل فننظر مافيه قريش، ويحدث عهدا من اراد باهله ثم يرجع». ثم يضـيف: «اخبرنا محمـد بن عمر، قال: حـدثنى محمـد بن‌عبـداللّه، عن الزهرى، عن ابى بكر بن عبـد الرحمن، قال:دخلوا مكـة ولم يدخل احد منهم الا بجوار، الا ابن مسـعود فانه مكث يسيرا ثم رجع الى ارض الحبشة». وقد روى الرواية السابقة نفسـها اهل السـير المعتبرون عن ابى‌معشر بن عبد الرحمن السـندى المدنى عن محمد بن كعب‌القرظى، وجاءت فى الطبرى مع اختلاف بسـيط عن رواية محمد بن اسحاق، وقد ذكرناهـا فى اسـباب نزول الايتين (۷۳،۷۴) من سورة الاسـراء: (وان كـادوا ليفتنونـك عن الـذى اوحينـا اليـك لتفترى علينـا غيره واذا لاتخذوك خليلا، ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا). وقد اورد محمد بن اسـحاق نحوها فى نسـخة (القرويين) برواية يونس بن بكير بن واصـل الشـيبانى بصورة موجزة، حيث قال: «فاقاموا حتى بلغهم ان اهل مكـة قـد اسـلموا وسـجدوا، وذلك ان سورة النجم انزلت على رسول اللّه (ص) فقراها (ص) فانصت لها كل مسـلم ومشـرك، حتى انتهى الى قوله: (افرايتم اللات والعزى) فاصغوا

له والمؤمنون مصدقون، وارتد ناس حين سمعوا سجع شيطان فقالوا: واللّه لنعبدهن ليقربونا الى اللّه زلفى. وعلم الشيطان بتلك الايتين كل مشرك وتكلمت بها السنتهم، وكبر ذلك على رسول اللّه (ص) حتى اتاه جبريل (ع) فشكا اليه هاتين الايتين، وما لقى من الناس بسببهما، فتبرا جبريل (ع) منهما، وقال: لقد تلوت على الناس مالم آتك به عن اللّه عز وجل، وقلت ما لم يقل لك، فحزن رسول اللّه حزنا شديدا وخاف، فانزل اللّه عز وجل تعزية له: (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته) الى قوله: (عليم حكيم).

نقد قصة الغرانيق

هناك اختلاف فى قصة الغرانيق بين تلك التى اوردها الطبرىعن طريق سلمة برواية يونس بن بكير، وتلك التى وردت فى سيرة ابن اسحاق (نسخة القرويين)، اذ يبدو ان يونس بن بكير قد لخصها ورواها مختصرة. اما ابن هشام فقد حذف القصة تماما، ولم يات على ذكرها، وكان ذلك كما يبدو فى وقت بدا فيه المحدثون وعلماء الدين يشككون فى مضمون الرواية، ويترددون فى نقلها. فقد جاء فى صحيح البخارى تحت عنوان (ما جاء فى سجود القرآن وسنتها) نص مقتضب جدا لهذه القصة نورده فيما يلى: «... قال: قرا النبى (ص) النجم بمكة فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ اخذ كفا من حصىاو تراب فرفعه الى جبهته، وقال: يكفينى هذا، فرايته بعد ذلك قتل كافرا» وجاء فى رواية اخرى فى نفس الباب: «ان النبى (ص) سجد معه بالنجم المسلمون والمشركون والجن والانس..». ورد القاضى عياض فى كتاب الشفاء الرواية نقلا وعقلا، كماردها الفخر الرازى فى تفسيره تفصيلا، بينما قال ابن حجر العسقلانى فى شرح صحيح البخارى: ان اختلاف الطرق فى نقل الرواية دليل على اصالة الرواية، وقد وردت هذه الرواية بثلاث طرق تتوفر فيها الشروط المذكورة فى تصحيح السند. لهذا لا بد من الركون الى تاويل ندفع به ما يظهر فيها من سوء وتقصير فى جلال الرسول (ص) وهذا يعنى عدم رده لاصل الرواية. ومن استبعد قصة الغرانيق وردها انما اعتمد فى رده لها علىاصول العقائد والكلام، اذ التسليم بالقصة كما نقلت وبالتفاصيل التى وردت فيها، قد يؤدى الى تجويز السهو والخطا فى اداء الرسول (ص) للرسالة لا قدر اللّه حيث تقول ان هناك جملتين نطق بهما الرسول (ص) وقد القاهما الشيطان على لسانه، ومن ثم نسخهما اللّه فيما بعد. والتسليم بهذه يؤدى كما قلنا الى تجويز صدور الخطا عن الرسول (ص) معاذ اللّه وهذا بدوره يؤدى الى نتائج خطيرة تمس اركان الدين والقرآن الكريم. اعتقد ان قصة الغرانيق كما وردت فى الطبرى تنطوى على شيء من التناقض، ومن ناحية اخرى قال ابن حجر: «ان لها اساسا من الصحة والاصالة»، ولكن لا بمعنى تصحيح ما جاء فى الرواية والعياذ باللّه من نسبة الاشتباه والسهو الى الرسول (ص) الذى نفاه القرآن بشدة واعتبر انه من المستحيل ان يتقول الرسول (ص) على اللّه شيئا او ان يوسوس له الشيطان فى تبليغ كلام اللّه، ويبدو ان رواة هذه الرواية لم يلتفتوا الى النتائج الخطيرة المترتبة عليها، ولم يدركوا ما يمكن ان تتيح لاعداء الاسلام من فرص للطعن فى دين اللّه. اما الذين عرضوا الرواية بهذا الشكل فيبدو انهم كانوا ينساقون وراء دوافع معادية للاسلام، ويحاولون هز قواعده وزعزعة بنيانه من الاساس.ونعود الان الى التناقض والتضاد المشار اليه سابقا، والذى يعترى الرواية فقد جاء فى رواية الطبرى التى ينقلها عن محمد بن اسحاق عن محمد بن كعب القرظى «ان اللّه انزل علىرسوله (ص) سورة النجم، وكان الرسول (ص) قد تلا هذه السورة المباركة على جمع من المسلمين والمشركين حتى وصل الى قوله تعالى: (افرايتم اللات والعزى، ومنوة الثالثة الاخرى) وهنا القى الشيطان على لسانه (ص): «تلك الغرانيق العلى، وان شفاعتهن لترتجى» ويبدو ان رواة هذه القصة لم يلتفتوا الى الايتين الثالثة والرابعة من السورة المباركة ذاتها (سورة النجم) التى تقول (وما ينطق عن الهوى، ان هو الاوحى يوحى). وتمضى السورة الى ان تقول: (علمه شديدالقوى) «النجم: ۵» فكيف يمكن للشيطان ان يلقى على لسان الرسول (ص) وان ينطق الرسول (ص) بغير ما انزل عليه من القرآن مع وجود هذه التاكيدات القرآنية الشديد والصريحة النافية لاى نوع من الاشتباه والسهو مهما صغر وتضاءل؟! انمن شان هذه الرواية ان تجيز استيلاء الشيطان على الوحى الالهى فضلا عن تجويزها وقوع الرسول (ص) فى الخطا والاشتباه معاذ اللّه. وهذا امر منكر يرفضه القرآن ويشجبه

بشدة (ان هو الا وحى يوحى). وهذه نقطة لم يلتفت اليها حتى اولئك الذين ردوا هذه الرواية، فقد اعتمدوا فى رفضها على امر واحد فحسب الا وهو انها تؤدى الى اقرار وقوع الرسول (ص) فى الخطا والاشتباه. جاء فى رواية الطبرى عن محمد بن اسحاق: «ان قريشا كانوا قد فرحوا وسرهم واعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فاصاخوا له، والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم، ولا يتهمونه على خطا ولا وهم ولا زلل، فلما انتهى الى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقا لما جاء به واتباعا لامره، وسجد من فى المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد. ان الايات (٢١، ٢٢، ٢٣) من سورة النجم والتى يفترض انها جاءت بعد هاتين العبارتين الشيطانيتين كانت: (الكم الذكر وله الانثى، تلك اذا قسمة ضيزى، ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم). وهذا سؤال استنكارى يستبطن الطعن بقريش ويقول: بعد ان جعلتم اللات ومناة والعزى بناتا للّه، فتلك اذا قسمة ضيزى، غير عادلة ولا ـ متوازنة، لا ـن وجوهكم كانت تسود من الحزن لمجرد سماعكم بخبر ولادة بنت لكم، بينما تجعلون ذرية اللّه من البنات فقط! فهل ستفرح قريش وتبتهج لهذا الطعن والقدح الذى كالتهما لها السورة المباركة هل تسر قريش وتقول: ان محمدا ذكر آلهتها بخير؟! وهى تسمع القرآن الكريم ياتى على ذكر آلهتها ثم لا يعتبرها اكثر من اسماء ليس الا: (ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم)؟! جاء فى هذه الرواية ايضا: ان الرسول (ص) كان قد حزن عند ذلك حزنا شديدا، او خاف من اللّه خوفا كثيرا، فانزل اللّه عز وجل، وكان به رحيما، يعزيه ويخفف عنه، ويخبره انه لم يك قبله نبى ولا ـ رسول تمنى كما تمنى ولا ـ احب كما احب، الا ـ والشيطان قد القى فى امنيته كما القى على لسانه (ص)، فنسخ اللّه ما القى الشيطان واحكم آياته (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته). يبدو ان راوى هذه الرواية نسى ان هذه الاية هى من سورة الحج، وسورة الحج مدنية، او على الاقل انها نزلت على رسول اللّه (ص) بين مكة والمدينة طبقا لبعض المصاحف واذا فهناك فترة زمنية مقدارها على الاقل خمس او ست سنين بين قصة الغرانيق ونزول سورة النجم. ويلاحظ فى الايتين السابقتين من سورة الحج الطول المعهود فى الايات المدنية، اذن كيف يترك اللّه تعالى رسوله (ص) فى حزن واسى طيلة خمس او ست سنوات، ثم ينزل عليه ما يعالج به مسالة قد عفا عليها الزمن؟!. وكلمة النسخ التى وردت فى الاية لا يقصد بها النسخ المصطلح عليه، من تبديل حكم مكان حكم وآية بدل آية، اذلم تكن الجملتان الشيطانيتان آيتين حتى يقال انهما قد نسختا. فصريح الاية الشريفة ان الشيطان يحاول ان يدخل على امانى الرسل ويتسلل عبرها الى ساحتهم المقدسة، فيتدخل البارى جل شانه فورا ليرفع هذه الوسوسة وينسخها قبل ان تخرج من عالم النفس على شكل قول او حديث. وعلى هذا فسوف لن يكون لهذه الاية من سورة الحج اى ارتباط بتلك العبارتين الشيطانيتين، حيث تدعى الروايات ان الرسول (ص) كان قد اعتبر الاية الشريفة من الايات التى نزلت بحق كفار قريش. وبهذا صار من السهل رد الرواية وتفنيدها بناء على تلك الصورة التى نقلت فيها دون حاجة الى البراهين الكلامية والمسائل الاعتقادية، وذلك بالاشارة الى تناقضاتها الداخلية وما تضمنه متنها من تضاد وتهافت. ولكن كما اشرنا سابقا فان ابن حجر قال فى شرح صحيح البخارى: ان الرواية طبقا لقواعد الحديث يجب ان تكون قد استندت الى اصل ما او حادثة ما، ولهذا حاول توجيهها وتاويلها تبعا لذلك. وفى الحقيقة ان رواية صحيح البخارى تنص على ان المسلمين والمشركين كانوا قد سجدوا جميعا مع الرسول (ص) حين تلا ـ آية السجدة من سورة النجم. وهنا يطرح السؤال التالى: ما الذى جعل المشركين يسجدون؟ او ما الذى دعا ذلك الرجل المشرك الى السجود؟، والذى تنقل رواية اخرى فى صحيح البخارى انه اخذ قبضة من التراب ووضع عليها جبهته علامة على السجود. لم تكن الاجوبة التى نقلت خالية من التكلف. منها مثلا ما نقله (الكرمانى) فى شرح صحيح البخارى، [٢٣۴] حيث قال:لانها كانت اول سجدة نزلت، فانهم لم يشاءوا اظهار المعارضة للمسلمين فى السجود لمعبودهم، او انهم سجدوا بدون قصد وارادة». وروى العلامة المجلسى [٢٣۵] عن الطبرى انه روى عن البلخى المتكلم قوله: «انه من الممكن ان يكون الرسول (ص) قد سبقه لسانه ونطق بهاتين الكلمتين اللتين حفظهما عن قومه بعد ان ذكره الشيطان بهما اثناء تلاوته لسورة النجم، ولكن اللّه منعه من ذلك». ونحن نعتقد ان كلام البلخى ينطوى على شىء من الحقيقة، فان الرسول (ص) كان قد سمع هاتين العبارتين من قومه، يقولالكلبى: «ان قريش

كانت تطوف حول الكعبة وتردد شعارها المعروف: واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى،فانهن الغرانيق العلى، وان شفاعتهن لترتجى». [۲۳۶] .اذن كانت قريش تهتف بهاتين العبارتين حول اللات والعزى ومناة عند طوافها حول البيت، وحين تلا الرسول (ص) الوحى الالهى من سورة النجم حتى وصل الى الاية (۱۸) (لقد راى من آيات ربه الكبرى) فاوحى اليه الاية التى تليها (افرايتم اللات والعزى) يعنى ان الرسول (ص) قد راى من آيات ربه العظمى، فهل رايتم شيئا من اربابكم؟ وهنا ذكر الرسول (ص) هاتين الجملتين اللتين تلهج بذكرهما قريش فى الطواف لاعلى انهما من القرآن، بل للطعن بمعتقدات قريش والاستخفاف باربابهم، واظهار عجز هذه الاسماء (اللات والعزى ومناة)، التى كانت تحتل مقام الربوبية عند العرب، وكانوا يعتبرونهم آلهتهم العليا. ثم سخر القرآن منهم بقوله: (الكم الذكر وله الانثى، تلك اذا قسمة ضيزى)، اى لم تروا انكم زعمتم ان اللات والعزى ومناة هى بنات اللّه، فى الوقت الذى تكرهون ذلك لانفسكم وتودون ان ترزقوا ذكورا؟! وهنا ظنت قريش ان الرسول (ص) اقر بتلفظه بهاتين العبارتين بآلهتها، وانه ايد مقولتها بكلام اللّه، ولهذا سجدت لالهتها حينما سجد رسول اللّه (ص). وبهذا التفسير نكون قد حافظنا على اصل رواية الطبرى بدون تجزئتها او تقطيعها، ودون الحاجة الى القول بان الشيطان القى هاتين العبارتين على لسان النبى (ص) وهو يتلو سورة النجم. وكذلك اصبح من المعلوم والمسلم به وفقا لهذا التفسير ان الرسول لم يات بهاتين الجملتين ان كان قد نطق بهما على انهما جزء من القرآن الموحى، وانما للاستخفاف والاستهزاء، فكرر اقوالهم وما يدعونه عن آلهتهم، فلما سمعت قريش منه ذلك وشاهدته وهو يسجد سجدت معه. وقد نتج عن هذه الحادثة الصغيرة شائعات ترددت فى مكة وخارجها، بان مشركى قريش قد اسلموا، وبوصول هذه الشائعة الى ارض الحبشة قرر المسلمون المهاجرون العودة من هناك الى مكة. اما اولئك الذين يحاولون النيل من كلام اللّه والنزول بالوحى الالهى الى مستوى البشر وجعله كالسجع الذى كان يتداوله المشركون، فقد وجدوا فى هذه الرواية عونا على تاييد ما ذهبوا اليه من تدخل الشيطان فى الوحى نعوذ باللّه من ذلك وتشبثوا بالاية الشريفة من سورة الحج كذريعة لاثبات صحة ما ذهبوااليه.

قريش تتابع المهاجرين الى الحبشة

والان لندع الحديث عن الغرانيق جانبا ونعود الى المهاجرين‌الى الحبشة، اذ تقول الروايات ان قريش بعثت باثنين من انشط واشد رجالها الى ملك الحبشة، وحملتهم بمختلف الهدايا الثمينة، فى محاولة لاقناع ملك الحبشة بضرورة حمل المسلمين المهاجرين على ترك الحبشة والعودة الى مكة. وهنا يطرح تساؤل حول الاسباب التى دعت قريش لتتبع المهاجرين وسعيها لاعادتهم الى مكة فى الوقت الذى تخلصت فيه من ازعاجهم واذيتهم، واصبح بامكانها التفرغ للرسول (ص) ومن بقى معه من المسلمين فى مكة. علما ان قريش كانت اكثر ما تشكو منه طبقا للروايات هو سب المسلمين لالهتها وتسفيههم لمعتقداتها واحلامها، ففى مثل هذه الحالة تكون قد تخلصت من اذى جماعة كبيرة من المسلمين، او انها على الاقل لم تعد تسمع سبهم لالهتها، اذا لماذا كانت تقلق من بقاء هذه الجماعة من المسلمين فى الحبشة، وتسعى جاهدة لاعادتهم؟ وهنا يتضح السبب الحقيقى وراء مناهضة قريش لرسول‌اللّه (ص)، كما اعتقد، ذلك السبب الذى تشير اليه الاية (۵۷) من سورة القصص اذ تقول: (ان نتبع الهدى معك نخطف من‌ارضنا..). لقد كانت قريش تشعر بمخاوف حقيقية من تاثير المسلمين هناك. وتخشى دخول الاحباش فى الاسلام او دخول ملك الحبشة نفسه فى دين محمد (ص)، وما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة قد تنتهى بقيام الاحباش بالهجوم على مكة وتهديد موقع قريش ومركزها هناك كما جرى فى عهد ابرهة. لهذا سارعت الى تلافى الامر فى بدايته وبعثت كل من عبداللّه بن ابى ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل السهمى الى الحبشة، وزودتهم بافخر الهدايا، وخاصة الجلود المكية المعروفة على امل اقناع ملك الحبشة بطرد المسلمين من هناك. وقد عرف عمرو بن العاص بمكره ودهائه قبل الاسلام وبعده، ولا يخفى دوره فى تثبيت حكم معاوية واستحكامه عندما لجاالى حيلته المعروفة فى معركة صفين، ومن ثم مراوغته فى‌قضية التحكيم وخداعه لابى موسى الاشعرى. وطبقا لرواية ام سلمة (زوج الرسول (ص))، التى كانت قد هاجرت مع زوجها ابى سلمة بن الاسدالمخزومى [۲۳۷] .قبل زواجها من رسول اللّه (ص)، فقد جاء فيها انها

قالت: «لما نزلت ارض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشى، امنا على ديننا وعبدنا اللّه تعالى، لا نؤذى ولانسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم على ان يبعثوا الى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين، وان يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من اعجب مايأتيه منها الادم، فجمعوا له ادما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا اهدوا اليه هدية، ثم بعثوا بذلك عبداللّه بن ابى‌ربيعة، وعمرو بن العاص وامروهما بامرهم، وقالوا لهما: ادفعا الى كل بطريق هديته قبل ان تكلما النجاشى فيهم، ثم قدما الى النجاشى هداياه ثم سلاه ان يسلمهم اليكما قبل ان يكلمهم. فخرجا حتى قدما على النجاشى، ونحن عنده بخيردار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريقا الا دفعا اليه هديته قبل ان يكلما النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم انه قد ضوى [۲۳۸] الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاؤا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا انتم، وقد بعثنا الى الملك فيهم اشراف قومهم ليردهم اليهم، فاذا كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه بان يسلمهم الينا ولا يكلمهم، فان قومهم اعلى بهم عينا، واعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم انهما قدما هدايا هما الى النجاشى فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: ايها الملك، انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا دينك، وجاؤا بدين ابتدعوه،لا ـ نعرفه نحن ولا ـ انت، وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشيرتهم، لتردهم اليهم، فهم اعلى بهم عينا، واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه». قالت: «ولم يكن شىء ابغض الى عبداللّه بن ابى ربيعة وعمرو بن العاص من ان يسمع كلامهم النجاشى، فقالت بطارقته حوله: صدقا ايها الملك، قومهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم، فاسلمهم اليهما، فليرداهم الى بلادهم وقومهم. فغضب النجاشى، ثم قال: لاها اللّه، اذا لا اسلمهم اليهما، ولا يكاد قوم جاورونى، ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى ادعوهم فاسالهم عما يقول هذان فى امرهم، فان كانوا كما يقولون اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما واحسنت جوارهم ما جاورونى». قالت: «ثم ارسل الى اصحاب رسول اللّه (ص) فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل اذا جئتموه؟ قالوا: نقول واللّه ما علمنا، وما امرنا به نبينا (ص) كائنا فى ذلك ما هو كائن. فلما جاؤا، وقد دعا النجاشى اساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سالهم فقال لهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولافى دين احد من هذه الملل؟ فكان الذى كلمه جعفر بن ابى طالب، فقال له: ايها الملك، كنا قوما اهل جاهلية، نعبد الاصنام، وناكل الميتة، وناتى الفواحش، ونقطع الارحام، ونسىء الجوار، وياكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه الينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه، فدعانا الى اللّه لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان، وامرنا بصدق الحديث، واداء الامانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، واكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وامرنا ان نعبد اللّه وحده لا نشرك به شيئا، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام» قالت: «فعدد عليه امور الاسلام فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من اللّه، فعبدنا اللّه وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ماحرم علينا، واحللنا ما احل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنوناعن ديننا، ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة اللّه تعالى، وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا الى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا الا ـ نظلم عندك ايها الملك! فقال له النجاشى: هل معك مماء جاء به عن اللّه من شىء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشى فاقراه على. فقرا عليه صدرا من (كهيعص) قالت: «فبكى واللّه النجاشى حتى اخضلت لحيته، وبكت اساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم! ثم قال لهم النجاشى: ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة! انطلقا، فلا واللّه لا اسلمهم اليكما، ولا يكادون»! قالت: «فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: واللّه لاتينه‌غدا عنهم بما استاصل به خضراءهم. [۲۳۹] فقال لهعبداللّه بن ابى ربيعة وكان اتقى الرجلين فينا: لا تفعل فان لهم ارحاما، وان كانوا قد خالفونا. فقال: واللّه لاخبرنه انهم يزعمون ان عيسى ابن مريم عبد! ثم غدا عليه من الغد فقال له: ايها الملك، انهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما، فارسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه. فارسل اليهم ليسالهم عنه». قالت: «ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون فى عيسى ابن‌مريم؟ فقال جعفر بن ابى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا،يقول:

هو عبد اللّه ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول. فضـرب النجاشـی بيده الارض فاخذ منها عودا، ثم قال: واللّه ماعدا عيسـی ابن مريم مما قلت هذا العود. فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وان نخرتم واللّه، اذهبوا فانتم شيوم [۲۴۰] بارضی، من سبكم غرم، من سبكم غرم! ما احب ان لی [۲۴۱] دبرا من ذهب وانی اذيت رجلا منكم! ردوا عليهما هـداياهما، فلا حاجة لی بها. فقال: اذهب يا ابن اخی، فقل ما احبت، فواللّه لا اسـلمك لشیء ابدا» [۲۴۲] .تضمنت رواية ام سلمة بعض النكات التی ينبغی الاشارة اليها، احداها تسمية مبعوثی قريش الی المسلمين المهاجرين ب (غلمان سفهاء) فان ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه سابقا من ان اكثرالمسلمين الاوائل كانوا شـبانا. والثانيـة تعريف هـذين المبعوثين بانفسـهما بانهما رسولا اشـراف مكة، وهما صادقان فی ذلك، فان اعداء الرسول الاشداء كانوا كما اشرنا سابقا اشراف القوم واصحاب النفوذ فيهم. والنكتة الثالثة قيام جعفر بن ابی‌طالب بدور الناطق باسم المهاجرين، مما يعنی ان خطوة قريش هذه، ای ارسالها للمبعوثين (عمرو بن العاص) و (عبداللّه بن ابی ربيعة) كانت بعد الهجرة الثانية الی الحبشة، اذ لم يرد اسم جعفر بن ابی طالب فی قائمة المهاجرين فی‌الهجرة الاولی الی الحبشة، وقد كان جعفر بن ابی طالب قائد المهاجرين فی الهجرة الثانية. اما عن تصديق النجاشـی لقول المسلمين: ان عيسی كان عبداللّه وكلمة اللّه وروح اللّه، فربما يعود الی انسجام ذلك الی حـد ما مع عقائـد (المونوفيزتيين) ای المعتقـدين بالطبيعـة الواحدة فی عيسـی، فقد كان (المونوفيزت) مذهب النجاشـی واهل الحبشـة الذی كان يختلف تماما عن مذهب اباطرة بيزنطة وعقيدتهم فی عيسـی (المذهب المكابی) وكذلك مع عقائد النسطوريين. ربما اعتبر النجاشـی كلمة (عبد) تتطابق مع عقائد (المنوفيزتيين) الذين عبروا عن عيسـی بما يشـبه ذلك التعبير،اذ كانوا يعتبرونه انسانا كاملا وربا فی آن واحد. فاعتبر كلمة (عبد) هنا اشارة الی انسانيته، بينما كانت كلمتا (روح اللّه) و (كلمة اللّه) تعبيرا عن ربوبيته، وربما كان ذلك هو السبب وراء تخفيف حـدة الاعتراضات التی اثيرت من قبل الاساقفـة. لقـد كان تاريـخ الحبشـة فی هـذا الوقت ای فی العقـد الثانی من‌القرن السابع مظلما، وكانت الحبشة، وفقا للروايات التی تحدثت عن هجرة المسـلمين الی الحبشة، مسـرحا للانقلابات الداخلية. هذا وقد وردت بعض القصـص عن دخول النجاشـی الاسلام واعتناقه الدين الجديد، وربما كانت هذه الروايات غيردقيقة بصورة عامة، غير انها تكشف علی اقل تقدير عن ميل النجاشـی الی الدين الاسلامی. ونقلت روايات اخری عن مبعوثی قريش الی ملك الحبشة، منها ما جاء فی (الاغانی)، [۲۴۳] وكانها قصـة تـدور اكثرفصولها حول الحب والعشاق وما الی ذلك. ويذكر فی هذه الرواية عمارة بن الوليد المخزومی علی انه المبعوث الثانی مع عمرو بن العاص بدلا عن عبداللّه بن ابی ربيعة، وقد اشتهرعمارة بن الوليد المخزومی فی قريش بشدة جماله، وقيل عنه‌احيانا بانه ارتبط فی هذا السـفر بعلاقة حب مع زوجة عمرو بن العاص وزوجة النجاشـی، واخيرا صار مع السحرة فی الصـحراء، ولا يمكن الاعتماد علی هذه الرواية. هذا وقد ورد اسم عمارة بن الوليد فی غير هذه الرواية باعتباره احد مبعوثی قريش، ويعتقد ان اشتهاره بالجمال وحسن الخلقة كان هو السبب وراء افتعال تلك القصص حوله فی (الاغانی).

عودة المهاجرين

هناك اختلاف حول عودة المهاجرين من الحبشة بعد انتشار خبر اسـلام اهل مكة، بين روايات ابن اسحاق كما ورد فی الطبری وسيرة ابن هشام، وروايـة الواقـدی عن ابن ابی نجيح. فطبقا لرواية ابن هشام عن ابن اسـحاق ان العائدين من الحبشة كانوا قد اكتشـفوا كذب خبر اسـلام اهل مكـة قبل دخولهم اليها وعنـدما كانوا علی مقربـة منها، فكان دخولهم الی مكة اما بواسـطة (الجوار) من قبل احد افراد قريش او بالتخفی والتستر، وذكر اسـماء بعض الاشـخاص الـذين اقاموا فی مكـة الی ان هاجروا مع الرسول (ص) الی المدينة وشـهدوا بـدرا، اوبقوا محبوسـين فی مكة حتی فاتتهم المشاركة فی معركة بدرو غيرها، بينما توفی آخرون بمكة، ثم نقلت الرواية قائمة باسـماء من عاد الی الحبشـة تحتوی علی ثلاثة وثلاثين اسـما. اما [۲۴۴] الواقدی فقد قال كمامرت الاشارة اليه ان‌هجرة المسـلمين الی الحبشـة كـانت فی رجب من السـنة الخامسـة للبعثـة، وبقوا هنـاك شـهری شـعبان ورمضـان حتی جـاءهم خبر السـجدة، وكـان ذلك فی شـهر رمضان، فكانت‌عودتهم الی مكـة فی شوال، وبعـد عودتهم لقوا اذی شديدا من قريش وتعاون علی ظلمهم البعيد والقريب، الامر الذی

دعا الرسول (ص) الى ان ياذن بالهجرة الثانية الى ارض الحبشة، وكان خروج المسلمين هذه المرة اشد كثيرا من سابقه فى الهجرة الاولى حيث ازدادت معاناتهم من قريش سيما بعد ان اصبحت على علم بما وجده المسلمون من حسن المعاملة وطيب الاقامة عند النجاشى. وقد سال عثمان بن عفان رسول اللّه (ص): «يا رسول اللّه، قد هاجرنا ثانية الى الحبشة ولم تكن معنا؟» فقال (ص): «انما هجرتكم الى اللّه والى، واجر الهجرتين لكم». فقال عثمان: «هذا يكفينا، يا رسول اللّه». وقد كان عدد المهاجرين فى هذه الهجرة (۸۳) رجلا و (۱۱) امراة من قريش، و (۸) من سائر الناس، فاقاموا جميعا فى الحبشة بامان وسلام واحسان حتى سمعوا بهجرة الرسول (ص) الى المدينة، فهاجر (۳۳) رجلا و (۸) نساء منهم الى مدينة الرسول (ص)، وشهد (۱۴) رجلا منهم بدرا، حتى بعث رسول اللّه (ص) كتابا الى النجاشى يدعوه فيه الى الاسلام، يحمله عمرو بن امية الضمرى فى السنة السابعة للهجرة. ويلاحظ، بناء على رواية ابن هشام، ان (۳۳) رجلا، ومن جملتهم عثمان بن عفان، لبثوا فى مكة بعد العودة الاولى من الحبشة، ولكن وفق رواية الواقدى فان عثمانا هاجر ثانية الى الحبشة، وكانت هجرته من الحبشة الى المدينة، وبالنظر للترتيب الواقعى والتوالى المنطقى فى رواية الواقدى عن ابن نجيح، فاننا نرجحها على رواية ابن هشام الملخصة عن رواية ابن اسحاق والتى تحتمل السقط والاختصار، ونقل البلاذرى الاحداث وفقا لترتيبها فى رواية الواقدى ايضا. وفى هذا المجال كثير من التفصيل، وروايات هذا الباب بحاجة الى مزيد من النقد والتحليل مما لا يتناسب مع حجم كتابنا. وبما ان جعفر بن ابى طالب كان قائد الهجرة الثانية، فان تتبع عمرو بن العاص وعبداللّه بن ابى ربيعة للمهاجرين الى الحبشة كان بعد الهجرة الثانية.

ما قامت به قريش ضد الرسول

بعد ان عاد مبعوثا قريش بخفى حنين من الحبشة، تحفزت قريش لانزال مزيد من الاذى والعذاب بالمسلمين داخل مكة وفى مقدمتهم الرسول (ص)، غير انها لم تجد طريقا لالحاق الاذى به غالبا، الا عن طريق المحاربة الكلامية وتوجيه التهم والافتراءات اليه، وذلك لوقوف ابى طالب بصورة خاصة وبنى هاشم بصورة عامة الى جانبه (ص) واصرارهم على حمايته والذود عنه (ص). وقد هجموا عليه مرة او مرتين، غير انهم لم يستطيعوا فعل شىء يذكر، بسبب طبيعة النظام القبلى الذى كان سائداو الالتزامات التى يفرضها على الحلفاء فى حماية افراد القبيلة، واحيانا كانت تنتهى بنتيجة السب والشتم والتى كان يتعرض لها الرسول (ص) بدلا من الحاق الضرر به، كما فى اسلام حمزة بن عبد المطلب الذى كان نتيجة احدى فعال قريش السيئة مع رسول اللّه (ص).

اسلام حمزة بن عبد المطلب

اشتهر حمزة بشجاعته وجلده وعلو همته، غير انه كان بعيدا عن شؤون مكة السياسية، كما يبدو، ولم يسبق له ان اعار اهتماما خاصا بالدين الجديد الذى جاء به ابن اخيه، لقد كان حمزة صيادا ماهرا، وقد اعتاد على ان يذهب الى البيت الحرام ويطوف حول الكعبة قبل ان يتجه الى منزله فى كل مرة يعودبها من الصيد، وفى طريقه الى المنزل كان يمر بتجمعات قريش ويسلم على اهلها ويتبادل الحديث معهم. وبينما كان الرسول يقف يوما قرب جبل الصفا، [۲۴۵] مربه ابو جهل فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لامره، فلم يكلمه رسول اللّه وكان هناك مولاة لعبداللّه بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ثم انصرف عنه فعمد الى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى اللّه عنه ان اقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص له، وكان اذا فعل ذلك لم يمرعلى ناد من قريش الا ـ وقف وسلم وتحدث معهم، وكان اعزفتى فى قريش واشدهم شكيمة، فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول اللّه (ص) الى بيته قالت له: «يا ابا عمارة، لو رايت ما لقى ابن اخيك محمد آنفا من ابى الحكم بن هشام! وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد (ص)». فاحتمل حمزة الغضب لما اراد اللّه به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على احد معدا لابى جهل اذا لقيه ان يوقع به، فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا فى القوم، فاقبل نحوه

حتى اذا قـام على راسه رفع القوس فضـربه بهـا فشـجه شـجة منكرة، ثم قـال: «اتشـتمه وانـا على دينه اقول مـا يقول؟ فرد ذلك على ان استطعت». فقام رجال من بنى مخزوم لينصـروا ابا جهل، فقال ابو جهل: «دعوا ابا عمارة، فانى واللّه قد سببت ابن اخيه سبا قبيحا. وبقى حمزة على اسـلامه وعلى مـا تـابع عليه رسـول اللّه (ص) فلمـا اسـلم حمزة عرفت قريش ان رسـول اللّه (ص) قـد عز وامتنـع وان حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانواينالون منه. [۲۴۶] .

اسلام عمر بن الخطاب

كان عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبـد العزى من بنى عـدى من قريش، وهو الخليفـة الثانى بعـد ابى بكر، وفى نظر العلماء والمحدثين من اهل السـنة ان عمر افضل الصـحابة بعد ابى بكربن ابى قحافة، وسواء صـحت وجهة النظر هذه او لا، فان ذلك لا يؤثر على الحقيقة التاريخية فى كون عمر ابن الخطاب كان الخليفة الثانى، ومع هذا المقام الذى كان يحتله عمر يصبح من الضرورى معرفة الاسباب التى جعلته يتاخر اكثر مما يتوقع فى اعتناق الاسـلام، وبتعبير آخر انه اسلم بعد ان اسلمت شخصيات عديدة اقل منه منزلة بين الصحابة، ولم يحتلوا فيمـا بعـد المقـام الـذى شـغله عمر فى الاسـلام، لقـد اسـلم عمر بعـد هجرة المسـلمين الى الحبشـة وفقـا لمـا جاء فى الروايات وبالتحديد فى السنة السادسة بعد البعثة النبوية، وكان فى السادسة والعشرين من عمره، ونظرا لانتمائه الى قريش، ولانه كان من الرجال اللامعين فى مكة، فقد اعتبر من شـباب المسلمين الاوائل الذين يصنفون عادة الى (احداث، وضعفاء، ومستضعفين). وهنا ينبغى البحث داخل شخصـيته لمعرفـة السـبب وراء تاخره فى اعتناق الاسـلام، فقد كان عمر كما تؤكد الروايات وكذلكسـيرته الشخصـية رجلا ذا شكيمـة وشـدة وصـلابة، يصـعب اقناعه، ويتعـذر تغيير رايه، او تبديل معتقداته. وكان الى جانب ذلك سـريع الغضب، عصبى المزاج، خشن الطباع، وقد وصفه الامام على بن ابى طالب (ع) فى نهج البلاغة بانه: «حوزة خشناء» ولكنه كان يستسلم للمنطق، وكان مع شدته وخشونته يضـعف امـام المناظر المؤثرة ويرق قلبه للاحـداث المؤلمـة، لقـدعكست قصـة اسـلامه هـذه الصـفات المتضادة والمتناقضـة التىانطوت عليها شخصـيته. وكان سـبب اسـلام عمر ان اخته فاطمـة بنت الخطاب كانت قد اسـلمت واسـلم بعلها سـعيد بن زيد، وهما مسـتخفيان باسـلامهما من عمر، وكـان نعيم بن عبـداللّه النحام رجل من قومه من بنى عـدى بن كعب قـد اسـلم، وكان ايضا يسـتخفى باسـلامه فرقـا من قومه، وكـان خبـاب بن الا-رت يختلف الى فاطمـة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشـحا سـيفه يريد رسول اللّه (ص) ورهطـا من اصـحابه قـد علم انهم اجتمعوا فى بيت عنـد الصـفا، وهم قريب من الا-ربعين ما بين رجل وامراة وكان مع رسول اللّه (ص) عمه حمزة بن عبد المطلب وابو بكر الصديق، وعلى بن ابى طالب، فى رجال من المسـلمين، ممن كان اقام مع رسول اللّه (ص) بمكـة ولم يخرج الى ارض الحبشـة، فلقيه نعيم بن عبـداللّه، فقال له: «اين تريـد، يا عمر؟» فقال: «اريـد محمـدا هـذا الصابى الذى فرق امر قريش، وسفه احلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فاقتله». فقال له نعيم: «واللّه لقد غرتك نفسك، يا عمر! اترى بنو عبد منـاف تاركيك تمشـى على الارض وقـد قتلت محمـدا؟! افلا ترجع الى اهل بيتك فتقيم امرهم؟» قال: «ومن اهل بيتى؟» قال: «ختنك وابن‌عمك سـعيد بن زيـد بن عمرو، واختك فاطمـة بنت الخطاب، فواللّه لقد اسـلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما». فرجع عمر الى اخته وختنه، وعندهما خباب بن الارت ومعه صـحيفة فيها (طه) يقرئهما اياها. فلما احسوا بقدوم عمر تخبا خباب فى مخدع لهم، او فى احـدى زوايا البيت، واخـذت فاطمـة بنت الخطاب الصـحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سـمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب، فلما دخل قال: «ما هـذه الهينمة، [۲۴۷] التى سـمعت؟» قالا له: «ما سـمعت شيئا». قال: «بلى واللّه، لقد اخبرت انكما تابعتما محمدا على دينه!» وبطش بختنه سـعيد بن زيـد، فقـامت اليه اخته فاطمـة بنت الخطـاب لتكفه عن زوجها، فضـربها فشـجها، فلما فعل ذلك قالا له: «نعم، قـد اسـلمنا وآمنا باللّه ورسوله، فاصـنع ما بـدالك»، فلما راى عمر اخته على هـذه الحال نـدم على ما صـنع فارعوى، وقال لاخته: «اعطينى هـذه الصـحيفة التى سـمعتكم تقرؤونها آنفا، انظر ماهذا الذى جاء به محمد»، وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك، قالت له اخته: «انـا نخشـاك عليهـا»، قـال: «لاتخـافى»، وحلف لها بآلهته ليردنها اذا قراها اليها، فلما قال ذلك طمعت فى اسـلامه، فقالت له: «يا اخى،

انک نجس، علی شرکک، وانه لا یمسها الا الطاهر»! فقام عمر فاغتسل، فاعطته الصحیفة، وفیها (طه) فقراها، فلما قرا منها صدرا قال: «ما احسن هذا الکلام واکرمه» فلما سمع ذلک خباب خرج الیه، فقال له: «واللّه انی لارجو ان یکون اللّه قد خصک بدعوة نبیه (ص)، فانی سمعته امس وهو یقول: اللهم اید الاسلام بابی الحکم بن هشام او بعمر بن الخطاب! فاللّه اللّه یا عمر!» فقال له عند ذلک عمر: «فدلنی یا خباب علی محمد حتی آتیه فاسلم». فقال له خباب: «هو فی بیت عند الصفا فی نفر من اصحابه». فاخذ عمر سیفه فتوشمه ثم عمد الی رسول اللّه (ص) واصحابه، فضرب علیهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من اصحاب رسول اللّه (ص) فنظر من خلال الباب فرآه متوشما السیف، فرجع الی رسول اللّه (ص) وهو فزع فقال: «یا رسول اللّه، هذا عمر بن الخطاب متوشما السیف»، فقالحمزة بن عبد المطلب: «فائذن له، فان کان جاء یرید خیرابذلناه له، وان جاء یرید شرا قتلناه بسیفه». فقال رسولاللّه (ص): «ائذن له»، فاذن له الرجل ونهض الیه رسول اللّه حتی لقیه فی الحجرة، فاخذ حجزته [۲۴۸] او بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شدیدة، وقال: «ما جاء بک یا ابنالخطاب؟ فواللّه ما اری ان تنتهی حتی ینزل اللّه بک قارعة». فقال عمر: «یا رسول اللّه، جئتک لاؤمنن باللّه وبرسوله وبماجاء من عند اللّه» [۲۴۹] .هذا وقد وردت روایة اخری عن کیفیة اسلام عمر، غیر اننا نری هذه الروایة اکثر انسجاما مع شخصیة عمر وخصائصه النفسیة، وقد نقلت عن حیاته فی تاریخ الاسلام تفاصیل کثیرة تشبه ذلک وتؤیده، فخروجه المفاجی من البیت لقتل الرسول تعبیر عن تلک الحالة التی کانت تتسم بها شخصیته وهی سرعة غضبه وانفعاله، وکذلک فان حالة الندم وسرعة التاثر والانکسار التی ظهرت علیه بعد فورة الغضب مباشرة والتی نقلت عنه مرارا تعبر ایضا عن تلک الحالة النفسیة المشار الیها، ثم تسلیمه للمنطق والحجة الاقوی صفة اخری فی شخصیة عمر، ومیزة ثالثة من ممیزاته النفسیة، فبمجرد انه قرا الایات الاولی من سورة (طه) فاذا به یسلم فورا. کذلک رویت عنه تفاصیل اخری ایام خلافته اظهرت تسلیمه لحکمة علی بن ابی طالب ودرایته بالقضاء، حیث قال مرارا: «لولا علی لهلک عمر». اشتهر عمر بین قومه وعشیرته بصلابته وحدته وشدة تطرفه رغم حداثة سنه، وکان الجمیع یحسبون له حسابا، ولهذا نجد الرسول (ص) بناء علی صحة الروایة یقرنه بابی جهل علی کبرسنه وعلو مقامه فی قومه، حیث کان یدعو اللّه ان یهدی الی الاسلام اباجهل او عمر. وبعد ان اسلم عمر سخر صلابته وشدته لخدمة الاسلام، حتی نقل عن ابن مسعود قوله: «ما کنا نقدر ان نصلی عند الکعبة حتی اسلم عمر بن الخطاب، فلما اسلم قاتل قریشا حتی صلی عند الکعبة وصلینا معه». [۲۵۰] .ولکن هناک نوعا من المبالغة فی تاثیر اسلام عمر وحمزة، فسنری الرسول (ص) بعد وفاة ابی طالب یبقی دون ناصر ومجیر، حیث یضطر بعد عودته من ثقیف ان یدخل مکة بجوار احد المشرکین، ولم یستطع حمزة او عمر فعل شیء له.

محاصرة بنی هاشم اجتماعیا و اقتصادیا

بعدما یئست قریش من اعادة المسلمین المهاجرین الی الحبشة الیها، وبعدما رفض ابو طالب تسلیمها محمدا (ص) ونتیجة لتزاید مخاوفها من انتشار الدعوة الاسلامیة بدخول شخصیات مهمة وخطیرة مع مرور الایام فی الاسلام، بعد هذا کله جمعت قریش امرها وجلس زعماؤها للتشاور فی امر محمد (ص) ودینه الجدید، وبعد المداولات توصلوا الی توقیع وثیقة تنص علی حرمان بنی هاشم وبنی المطلب من حقوقهم الاجتماعیة والمدنیة فی مکة، لحملهم علی التخلی عن محمد (ص)، وکتبوا من اجل هذا کتابا الا ینا کحوهم ولایبایعوهم ولا یخالطوهم، ثم علقوا هذا الکتاب فی جوف الکعبة. وبعد ان فعلت قریش فعلتها تلک، انحاز بنو المطلب الیابیطالب فی شعبه مع بنی هاشم. قال یاقوت: [۲۵۱] .«شعب ابی یوسف: هو الشعب الذی اوی الیه رسول اللّه (ص) وبنوهاشم لما تحالفت قریش ضد بنی هاشم وکتبوا الصحیفة، وکان لعبد المطلب فقسم بین بنیه حین ضعف بصره، وکان النبی (ص) اخذ حظ ابیه، وهو کان منزل بنی هاشم ومساکنهم». ولم ینفصل شخص من بنی هاشم سوی ابی لهب عم النبی (ص)، الذی ظاهر قریش علی بنی هاشم وبنی المطلب، ومکث بنو هاشم وبنو المطلب فی شعب ابی طالب سنتین او ثلاث سنوات وفقا لروایة ابن اسحاق وهم علی تلک الحال من الشدة والحصار، لا یصل الی احد منهم شیء الا سرا، وذکروا ان ابا جهل لقی حکیم بن حزام بن خویلد ومعه قمح یرید به

عمته خديجة وهى عند رسول اللّه (ص) فى الشعب، فتعلق به، وقال: «واللّه لا تبرح حتى افضحك»، فجاء ابوالبخترى بن هشام، فقال: «مالك وله؟ عنده طعام لعمته افتمنعه ان يحمله اليها؟ خل سبيله». فابى ابوجهل فنال منه، فضربه ابوالبخترى بلحى جمل فشجه ووطاه وطئاشديدا. [۲۵۲] .وكان احسنهم بلاء فى نقض الصحيفة وتوصيل الطعام الى المحاصرين (هشام بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن لؤى)، وهو ابن اخى نضلة بن هشام بن عبد مناف لامه وهو احد المحاصرين وكان ياتى بالبعير قد اوقره طعاما ليلاويستقبل الشعب ويخلع خطامه فيدخل الشعب. [۲۵۳] .وقد كان حصار بنى هاشم وبنى المطلب فى الشعب هلال المحرم سنة سبع من تنبى رسول اللّه. [۲۵۴] وظلوا على هذه الحال مدة ثلاث سنين، لا يخرجون من الشعب الا فى موسم الحج، حتى بلغهم الجهد، وسمعت اصوات صبيانهم من وراء الشعب. وعن ابن عباس: «حصرنا فى الشعب ثلاث سنين، قطع عنا فيها الطعام، حتى ان الرجل ليخرق من الشعب ليشترى طعامافلا يبايعه احد، فمات عدد منا». [۲۵۵] .هذه خلاصة عن اخبار الحصار الاقتصادى والاجتماعى الذى فرض على بنى هاشم وبنى المطلب فى شعب ابى طالب، كما وردت فى تاريخ الطبرى وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد، ولنا على ذلك ملاحظات ندرجها فيما يلى: ۱- ان الذين حاصرتهم قريش هم وبنو هاشم بنو عبد المطلب ولم تحاصر عامة المسلمين، اى ان ابابكر مثلا الذى هو من بنى تيم، او عمر الذى يعود نسبه الى بنى عدى، او بعض المسلمين الاخرين الذين لم يهاجروا الى الحبشة من غير بنى هاشم، لم يكونوا جزءا من المحاصرين، بقوا فى مكة كما كانوا قبل الحصار، ومن جانب آخر نرى بين المحاصرين من لم يدخل الاسلام، فبناء على ما نقله البلاذرى ان بنى هاشم دخلوا الحصار اما بسبب اسلامهم او بسبب حميتهم وتعصبهم لعشيرتهم وبنى عمومتهم، اذا قامت هذه المحاصرة على اسس قبلية ونعرات عشائرية. والدليل على ذلك موقف بنى هاشم بزعامة ابى طالب عم النبى (ص) المدافع والمحامى ابداعن رسول اللّه (ص)، ولهذه المسالة ارتباط بالنظام القبلى وكيفية تطبيق العدالة والقانون فيه، اذ لو نهضت قريش لمحاربة بنى هاشم لشب نزاع شامل يجر اليه حلفاء بنى هاشم فى حلف الفضول، وقد تحدث حرب داخلية كتلك الحروب التى تندلع عادة فى يثرب، وهذا ما تتجنبه قريش بشدة وتهرب منه لاعتماد اهل المكة، خلافا لاهل يثرب، على التجارة والمتاجرة التى لا تنمو وتزدهر الا فى جو من الا من بعيد عن الحروب والمنازعات. ولهذا لم تسفر تلك المحاصرة، وخصوصا الاقتصادية منها، عن نتائج مهمة، فبنو هاشم قوم يصعب عزلهم واحكام الحصار عليهم لكثرة تشعباتهم وارتباطاتهم الاجتماعية مع الاقوام والطوائف الاخرى بواسطة الزواج وغيره، كما ان لبنى هاشم محبين ومناصرين فى القبائل الاخرى، وللقبائل الاخرى اقرباء وارحام فى بنى هاشم لا يرضون بحرمانهم وتعرضهم للجوع. لقد فرضت هذه المحاصرة بتاثير وقيادة بنى مخزوم الذين كانت لهم الكلمة الاولى واليد الطولى فى قريش، وكان زعيمهم ابو جهل كما تشير الروايات اكثر الناس حماسا لها واشدهم تحريضا عليها، كان ابوجهل يدرك تماما خطر انتشار الاسلام فى مكة على زعامته وعلى موقع بنى مخزوم فى قريش. ۲- يبدو ان فترة ثلاث سنوات او حتى سنتين من المحاصرة فترة طويلة لا يمكن تحملها. اذ لا تستطيع طائفة معينة تحمل مثل هذا الحصار داخل منازلها تلك المدة الطويلة، حتى مع حصول بعض الاختراقات من وصول بعض المساعدات سرا وخفية. ويبدو ان المحاصرة اخذت تشتد فيما بعد، حتى تحدثت الروايات عن انه كانت تسمع صرخات الصبيان المحاصرين فى الشعب، ولم يكن الامر كذلك فى بدايته، وكان يمكن لبنى هاشم ان يجدوا من يتعامل معهم، اما من قريش نفسها او من خارجها، ولهذا السبب طالت المحاصرة وامتد امدها، وللسبب استطاع بنو هاشم الصبر عليها وتحمل مشاقها، الى ان قررت قريش تشديد الحصار ومراقبة كافة عمليات البيع والشراء مع افراد بنى هاشم داخل الشعب، وقد ادى ذلك الى توقف كافة اشكال المساعدات والعون او ندرتها. وقد ذكر فى انساب الاشراف ان العباس بن عبد المطلب، الذى لم يسلم يومئذ، خرج من شعب ابى طالب ليشترى طعاما، فاراد ابوجهل ان يسطو به، فمنعه اللّه منه، وارسلت خديجة بنت خويلد الى زمعة بن الاسود: ان ابا جهل يمنع من ابتياع ما نريد، فاسمع اباجهل كلاما، فاسمعه فامسك. ويبدو ان هاتين الحادثتين مع واقعة ارسال الطعام من قبل حكيم بن حزام الى عمته خديجة، قد حصلت فى مرحلة وصول الحصار الاقتصادى الى الذروة من المضايقة والشدة التى ادت الى الغائه. اذ لو كان الحصار الاقتصادى ومنع وصول الطعام بهذه الدرجة من الشدة والصرامة منذ البداية لما استطاع بنو هاشم الثبات

لسنتين اوثلاثة من الحصار.

نقض الصحيفة

انتهى الحصار اخيرا، واستطاع بنو هاشم الخروج من شعب ابى طالب، وقد ذكر فى اسباب فك الحصار ونقض الصحيفة علتان، تبتنى احداهما على اساس تاريخى، بينما تقوم الثانية على اساس دينى، ولكن لا يوجد تنافى بين الرواية ذات المنحى التاريخى مع الرواية ذات الصبغة الدينية، لذا نحن ننقل الروايتين بدأ بالاولى التى يمكن تلخيصها كالتالى: ان هناك خمسة اشخاص من خمسة بطون مهمة فى قريش تعاهدوا سرا على ان يعلنوا يوما، وعندما تجتمع قريش فى مسجد مكة عن انهم سينقضون هذه الصحيفة او المعاهدة. ومن الجدير بالذكر ان التعرض لهؤلاء الخمسة قد يؤدى حرب داخلية، لانهم ينتمون الى خمسة بطون مهمة فى قريش، ولكل واحد منهم انصار ومؤيدون فى قومه، يشدون ازره ويسهلون عليه تنفيذ قراره. كان احد هؤلاء الخمسة هاشم بن عمرو بن ربيعة من بنى عامر بن لؤى، وكان عم امه نضلةبن هاشم بن عبد مناف من بنى هاشم المحاصرين. اما الثانى فهو زهير بن ابى امية المخزومى من بنى مخزوم، وامه عاتكة بنت عبد المطلب، وخاله احد المحاصرين. اما الثلاثة الاخرين فقد كان اثنان منهم من بنى اسد وهما: ابو البخترى بن هشام وزمعة بن الاسود، وكان بنو اسد احلاف بنى هاشم فى حلف الفضول. اما الخامس فهو مطعم بن عدى، من بنى نوفل، وهم ايضا جزء من حلف الفضول طبقا لرواية اوردها ابن هشام، [٢٥٦] على اناخبار حلف الفضول فى (المنمق) و (المحبر) و (سيرة ابن‌هشام) لم تات على ذكر دخول وخروج بنى نوفل وبنى عبد شمس، اذ لا ذكر لهذا الخبر سوى فى تلك الرواية المشار اليها التى رواها حفيد مطعم بن عدى لعبد الملك بن مروان وصدقها الاخير، وهناك قرينة اخرى على صحة الخبر المذكور فى تلك الرواية، وهى عبارة عن ابيات من الشعر انشدها ابوطالب وهو يشكو قريشا حين شددت من ضغطها على رسول اللّه (ص) وعمه. احد هذه الابيات كما رواهابن‌هشام: [٢٥٧] .فاخص خصوصا عبد شمس ونوفلا هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمرويبدو ان هذا التخصيص فى ذكر بنى نوفل وبنى عبد شمس دون باقى الخصوم لارتباطهم بحلف الفضول. ويقول ابوطالب فى قصيدة اخرى، يشكو بها ايضا قريش لخذلانها رسول اللّه (ص)، ويوجه لومه بصورة خاصة الى مطعم بن عدى الذى يقول انه طلب منه العون يوما فلم يبخل عليه فى شىء غير ان مطعما لم يحفظ له ذلك الموقف، حيث يقول:فجزى اللّه عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلا غير آجل [٢٥٨] .وهذا دليل آخر على خصوصية هاتين الجماعتين (بنى عبد شمس ونوفل)، لذلك خصهما ابوطالب بهذا العتاب، وذكرمطعم بن عدى بما بذله له من عون ومساعدة، وسبب تلك الخصوصية على ما يبدو ارتباطهم بحلف الفضول. على اية حال نفذ هؤلاء الخمسة ما تعاهدوا عليه، فاعلنوا عزمهم على نقض الصحيفة على رؤوس الاشهاد عند الكعبة، ولم يفلح ابوجهل فى صدهم عن ذلك رغم ما بذله من جهود، فقد عمد مطعم بن عدى الى الصحيفة وانتزعها عن جدار الكعبة ثم مزقها. وتقول الرواية الثانية: ان رسول اللّه (ص) اخبر اباطالب بان الصحيفة قد اكلتها الارضة، فلمست كل ما كان فيها من قطيعة غير (باسمك اللهم) فذكر ابوطالب ذلك لكفار قريش وقال لهم: «ان ابن اخى اخبرنى ولم يكذبنى قط ان اللّه قد سلط على صحيفتكم الارضة، فلمست كل ما كان فيها من جور او ظلم او قطيعة رحم، وبقى فيها كل ما ذكر به اللّه، فان كان ابن اخى صادقا نزعتم من سوء رايكم، وان كان كاذبا دفعته اليكم فقتلتموه او استحييتموه»، قالوا: «قد انصفتنا»، فارسلوا الى الصحيفة ففتحوها، فاذا هى كما قال رسول اللّه (ص)، فسقط فى ايديهم، ونكسوا على رؤوسهم، فقال ابوطالب: «علام نحبس ونحصر وقد بان الامر»؟ ثم دخل هو واصحابه بين استار الكعبة، فقال: «اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع ارحامنا واستحل ما يحرم عليه منا»، ثم انصرفوا الى الشعب. وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببنى هاشم، فيهم: مطعم بن عدى، وعدى بن قيس، وزمعة بن الاسود، وابو البخترى بن هاشم، وزهير بن ابى امية، ولبسوا السلاح، ثم خرجوا الى بنى هاشم وبنى المطلب،فامروهم بالخروج الى مساكنهم ففعلوا. [٢٥٩] .وليس هناك من تناقض بين الروايتين، وقد يكون تسلط الارضة على الصحيفة امرا عاديا عندما تكتب الصحيفة على مادة لا يؤمن عليها من الارضة فى ذلك الجو الحار الذى كانت عليه مكة، علما ان التدخلات

الالهية والدعم الربانى عادة ما يتم فى اطار القوانين الطبيعية.

وفاة خديجة و ابى طالب

كان خروج بنى هاشم من الشعب فى السنة العاشرة منالبعثة النبوية طبقا لما ورد فى انساب الاشراف. [۲۶۰] .وفى هذه السنة فقد رسول اللّه (ص) كلا من زوجته خديجة وعمه ابى طالب، وقد اختلف فى تحديد اليوم الذى فارق فيه ابوطالب الحياة، فقيل: فى الاول من ذى القعدة، وقيل: فى النصف من شوال من السنة نفسها (اى العاشرة بعد البعثة). ووقع خلاف ايضا فى الفترة الواقعة بين وفاة خديجة ووفاة ابى‌طالب، فبين قائل انها كانت ثلاثة ايام فقط، وقائل خمسة ايام، وقيل: انها كانت خمسة وعشرين يوما.

اسلام ابى طالب

وردت رواية فى سيرة ابن اسحاق [۲۶۱] عن وفاة ابى‌طالب تشعر بانه لم يسلم حتى فارق الحياة. وقال عنه الرسول (ص): «هو فى ضحضاح من نار». وقد طرحت قضية اسلام ابى طالب كواحدة من الامور التى دار حولها خلاف بين الشيعة ومعارضيهم منذ القدم، ففى الوقت الذى يذهب اكثر اهل السنة الى انه مات مشركا، تصر الشيعة على اعتقادها بانه مات مسلما موحدا، وقد تطرق ابن ابى الحديد المعتزلى الى هذه المسالة فى ج (۱۴) من شرح نهج البلاغة بالتفصيل وعرضها على ضوء ادلة الفريقين، غير انه توقف واحجم عن اعطاء الراى فيها. هذا وقد كتبت ابحاث عديدة حول اسلام ابى طالب بعضها مطبوع. ولسنا هنا فى معرض اعطاء الراى فى هذه الادلة او تلك، لذا نترك الكلام فى هذه المسالة، لانها خرجت عن اطارها التاريخى واتخذت طابعا مذهبيا او كلاميا،غير ان ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى موقف ابى طالب المحامى ابدا عن ابن اخيه منذ بعثته وحتى السنة العاشرة للبعثة، وهى السنة التى توفى فيها ابوطالب، وهو ما تعكسه سيرة الرسول (ص) خلال تلك الفترة بشكل واضح لا غبارعليه. وبسبب هذه الحماية الشديدة والمستمرة تعرض ابوطالب مع بنى هاشم وبنى المطلب جميعا لحصار مر دام ثلاث سنين فى شعب ابى طالب، وقد اجمع اصحاب السيرة على ان حماية ابى طالب وذوده عن ابن اخيه هما اللذان حالا دون وصول قريش اليه (ص)، وقد حزن الرسول (ص) لوفاته حزنا عميقا، وعادت قريش تحاول الحاق الاذى به، فاضطر الرسول (ص) الى ان يذهب الى الطائف، وعند عودته دخل مكة بجوار مطعم بن عدى. وعلى ضوء هذا الدعم وتلك الحماية، ومع فرض عدم ايمانه، فهل يمكن ان يكون جزاء مثل هذا العم الودود الشهم ان يخلد فى ضحضاح من نار؟! اذا فما هو الفرق بينه وبين ابى لهب فى هذا المجال؟! والقول: (ان فى جهنم ضحضاحا وغمرا، وان مقام ابى طالب فى الضحضاح)، لا يحل المشكلة. ولا يمكن ان يكون جزاء من ضحى وتفانى فى سبيل الاسلام الضحضاح لا الغمر. نحن نعتقد ان الروايات التى تتحدث عن بقاء ابى طالب على شركه الى ان فارق الحياة روايات موضوعة، وضعها بنو امية لشدة عدائهم لعلى (ع) وابيه وابنائه، او وضعها بنو العباس لحسدهم وحقدهم على العلويين بما امتازوا به من فضائل عليهم. وسياتى الحديث عن موقف ابى سفيان بن حرب الذى ظل يناصب الاسلام العداء هو وابناؤه حتى فتح مكة وقتل كل من خال معاوية واخيه فى معركة بدر على يد حمزة بن عبد المطلب وعلى بن ابى طالب (ع). ولم تنته هذه العداوة حتى بعد مقتل عثمان ومطالبة معاوية بالخلافة وشهادة على (ع) فى السنة الاربعين للهجرة، بل زادتها تلك الاحداث حدة واتقادا. فقاد معاوية وبعده خلفاء بنى امية حملة واسعة لتشويه صورة على وابنائه (ع) واستمرت هذه الحملة الشرسة الى ايام خلافة عمر بن عبد العزيز. لقد كان سبق على (ع) الى الاسلام وتضحياته الجسام من اجله فى الغزوات العديدة، وكذلك حماية ابى طالب ودفاعه القوى عن ابن اخيه، من فضائل على واهل بيته (ع) التى لا يتسنى لاحد انكارها، فلم يجد بنو امية مغمزا ولا مطعنا يمكنهم من خلاله الطعن بعلى (ع) غير ادعاء عدم اسلام ابى طالب فى الوقت الذى اسلم فيه ابوسفيان والد معاوية! ومن المحتمل جدا ان يكون انصار بنى امية ودعاتهم هم الذين عملوا على اخفاء روايات اسلام ابى طالب ووضعوا مكانها الاخبار التى تتحدث عن حشره فى النار، ليمسوا من هذا الباب جلال على وابنائه بتوجيه الطعن اليهم، وقد وجد من

بين دعاة بنى امية من كان ساذجا الى الحد الذى اضحى كل اهتمامه هو نقل الروايات على ظاهرها وسندها، ولم يلتفت الى مدى انسجامها فى مضامينها، اذ كيف يبشر الرسول (ص) عمه اباطالب بالنار ويتغاضى عن تضحياته وصبره واخلاصه فى حين يامر فى معركة بدر ان لا يتعرض احد لحياة المشركين الذين لم يسبق لهم ان آذوه ويطلب احضارهم سالمين اليه؟ وحصلت القضية ذاتها فى العهد العباسي، حيث سعى بنو العباس الى ان ينسبوا الى العباس عم النبى، الذى لم يقدم شيئا مهما لصالح ابن اخيه ايام البعثة الشريفة، المزيد من الفضائل والكرامات، وعلى العكس فقد عملوا على ترويج الروايات التى من شانها المساس بمنزلة جد العلويين ابى طالب والحط من شانه. وبناء على ذلک، فاننا نعتقد ان التعصب العائلى والحمية القبلية لم يكونا السبب الوحيد فى دفاع ابى طالب عن ابن اخيه، وانمالا بد ان يكون وراء هذا الدفاع المستميت وتلک الحماية الدائمة، التى لم تفتر ابدا، ايمان بالاسلام واعتقاد برسالته. [۲۶۲] .

السفر الى الطائف

تقع الطائف على بعد اثنى عشر فرسخا من مكة، وكانت مستوطنا لقبيلة ثقيف، من قبائل هوازن ايام الرسول (ص)، وتكثر فيها الكروم، وكان لاثرياء قريش بساتين هناک، وقد اشتهر اهلها بالثراء والمراباة. قرر الرسول (ص) السفر اليها بعد ان ضاق عليه الخناق واشتداذى قومه فى الفترة التى تلت وفاة خديجة وعمه ابى طالب، وكان يعزم على دعوة اهلها الى الاسلام عله يجد فيهم عوناعلى قريش. وقال بعضهم: «انه كان وحيدا فى هذا السفر». بينماقال آخرون: انه ذهب بمعية مولاه زيد بن حارثة. ولما انتهى رسول اللّه (ص) الى الطائف، عمد الى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف واشرافها، وكانوا ثلاثة اخوة، فجلس اليهم رسول اللّه (ص) فدعاهم الى الاسلام وافصح لهم عن رغبته فى طلب نصرتهم على من خالفه من قومه، فردوا دعوته وهم من عائلة نميرة بن عوف بن ثقيف فقام رسول‌اللّه (ص) من عندهم، قائلا لهم: «اذا فعلتم فاكتموا عنى». وكره رسول اللّه (ص) ان يبلغ قومه عنه، فيذئرهم [۲۶۳] ذلک‌عليه. فلم يفعلوا واغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، والجاوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء قريش من كان يتبعه، فعمد الى ظل حبلة [۲۶۴] من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقى من سفهاء اهل الطائف. فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة (وهما من بنى عبد شمس) وشاهدا ما الم به تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له (عداس) فقالا له: «خذ قطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به الى ذلک الرجل فقل له ياكل منه». ففعل عداس، ثم اقبل به حتى وضعه بين يدى رسول اللّه (ص)، ثم قال له: «كل» فلما وضع رسول اللّه (ص) يده قال: «باسم اللّه». ثم اكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: «واللّه ان‌هذا الكلام ما يقوله اهل هذه البلاد»! فقال له رسول اللّه: «ومن‌اى البلاد انت يا عداس، وما دينک»؟ قال: «نصرانى، وانا رجل من اهل نينوى». [۲۶۵] فقال رسول اللّه (ص): «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى»! فقال له عداس: «وما يدريک ما يونس بن متى»؟ فقال رسول اللّه: «ذاک اخى، كان نبيا وانا نبى»! فاكب عداس على رسول اللّه (ص) يقبل راسه ويديه وقدميه. قال: «يقول ابنا ربيعة احدهما لصاحبه: اما غلامک فقد افسده عليک! فلما جاءهما عداس قالا له: ويلک يا عداس مالک تقبل راس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدى، ما فى الارض شىء خير من هذا، لقد اخبرنى بامر ما يعلمه الا نبى! قالا له: ويحک يا عداس، لا يصرفنک عن دينک، فان دينک خير من دينه»! ثم ان رسول اللّه (ص) انصرف من الطائف راجعا الى مكة، حين يئس من خير ثقيف، حتى اذا كان بنخلة [۲۶۶] قام من جوف الليلى [۲۶۷] صلى. ويقال: ان الايات التى تتحدث عن الجن وكذلک سورة الجن قد نزلت فى هذا المكان. كان سفر الرسول (ص) الى الطائف بداية مرحلة جديدة فى سياسته (ص) فى الدعوة الى الاسلام، فقد قام اولا بدعوة اقاربه وعشيرته كما امر بذلک: (وانذر عشيرتک الاقربين) فكان اكثر همه متجها الى عوائل قريش واشراف مكة، فلما لقى منهم ما لقى من الاعراض عن الاسلام والاصرار على الكفر والضلالة، وبعد ان تضاعف عليه الاذى من قومه بعد وفاة حاميه الاكبر عمه ابى طالب، بدا الرسول (ص) يخطط لدعوة القبائل العربية الاخرى الى رسالته، وبدا باقرب القبائل واكثرها قوة وثراء وهى ثقيف، غير انها رفضت دعوته لما كان لها من‌علاقات اقتصادية واجتماعية وثيقة مع قريش،

ولشعورها بالخطر المحدق بالهها الاكبر (اللات)، التى كانوا يطلقون‌عليها (ربة)، من جراء هذه الدعوة، وبانه لو سقطت ربتهم فسوف تكون تبعية ثقيف لمكة وقريش مطلقة. لقد اوصدوا الابواب بوجه الرسول (ص) وقد فاتهم بذلك شرف عظيم. «وفى طريق عودته (ص) الى مكة، مر به بعض اهل مكة، فقال له رسول اللّه (ص): هل انت مبلغ عنى رسالة ارسلك بها»؟ قال: «نعم»، قال: «ائت «الاخنس بن شريق» فقل له: يقول لك محمد: هل انت مجيرى حتى ابلغ رسالة ربى؟ قال: فاتاه، فقال له ذلك، فقال له الاخنس: ان الحليف لا يجير على الصريح. قال: فاتى النبى (ص) فاخبره، قال: تعود. قال: نعم، قال: ائت سهيل بن عمر فقل له: ان محمدا يقول لك: هل انت مجيرى حتى ابلغ رسالات ربى؟ فاتاه فقال له ذلك قال: فقال ان بنى‌عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب. قال: فرجع الى النبى (ص) قال: تعود، قال: نعم، قال: ائت المطعم بن عدى، فقل له: ان محمدا يقول لك: هل انت مجيرى حتى ابلغ رسالات ربى؟ قال: نعم فليدخل، قال: فرجع الرجل اليه فاخبره، واصبح المطعم بن عدى قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو اخيه فدخلوا المسجد، فلما رآه ابوجهل قال: امجير ام متابع؟ قال: بل مجير. قال: فقال: قد اجرنا من اجرت، فدخل النبى (ص) مكة». [۲۶۸] .والمهم فى هذه الرواية انها تكشف عن ان الرسول (ص) لم‌يعد يملك بعد وفاة عمه ابى طالب من يدافع عنه من انصاره، ومن له القدرة على مواجهة قريش، بما فيهم حمزة وابوبكر وعمر، الامر الذى اضطره الى طلب جوار مشرك من مشركى مكة.

الرسول يعرض دعوته على القبائل

بعد عودة الرسول (ص) من الطائف عزم على اجراء تغيير شامل فى سياسته الخاصة بالدعوة لرسالته، فقد يئس بعد سفره هذا من مكة وقريش واهل الطائف المرتبطين باهل مكة بعلاقات وثيقة جدا، وقد شكل هذا التغيير الذى من المؤكدانه حدث بامر وهداية الهية منعطفا كبيرا فى تاريخ الدعوة الاسلامية واتساع رقعة الاسلام، حيث ادى ذلك الى خروج الاسلام من دائرة مكة وانتشاره فى شبه الجزيرة العربية بصورة عامة، ومن ثم فى انحاء العالم المتحضر آنذاك. لقد كان الامر الالهى يتركز فى البداية على دعوة الاقربين الى الدين الجديد: (وانذر عشيرتك الاقربين) «الشعراء: ۲۱۴». وبعد ان اعرض هؤلاء الاقربون عن هذه النعمة الالهيةو واجهوا صاحبها بالاذى والتنكيل وعملوا على محاربته ومحاصرته مع بنى هاشم اقتصاديا واجتماعيا فى شعب ابى‌طالب، وتجاوزوا الحدود فى ظلمه واضطهاده. بعد هذا كله لم‌يبق امامهم عذر يعتذرون به، وتمت الحجة عليهم فآن الاوان لان يكسر الاسلام هذا الطوق وينطلق خارج حدود المدينة الواحدة والقبيلة الواحدة. لقد قرر الرسول (ص) بعد عودته من الطائف دعوة القبائل الاخرى الى الاسلام. ومن الجدير بالذكر ان هناك من بين المسلمين الاوائل من كان يرجع فى انتمائه القبلى الى قبائل اخرى غير قبيلة قريش، لكنه كان يقيم فى مكة اما بالجوار او بالتحالف او بامور اخرى، وكان اسلام هؤلاء الافراد اسلاما فرديا وكان جزأ من اسلام قريش نفسها لارتباطهم بها بالتحالف او الجوار او ما الى ذلك. فاسلام ابى ذر الغفارى مثلا لا يعنى اسلام قبيلة غفار باكملها او انضمامها الى معسكر الاسلام واعلان حمايتها له والدفاع عنه. ولا ينبغى ان يفهم من هذا الكلام ان الرسول (ص) كان يخص فى دعوته القرشيين داخل مكة ولم يدع غيرهم خارجها، بل ما نريد قوله هنا ان دعوة هؤلاء الى الاسلام ان حصلت فى السابق فقد حصلت بصفة فردية ولم يخاطبهم الرسول (ص) بصفتهم ممثلين عن قبائلهم التى ينتسبون اليها. اما سفر الرسول (ص) الى الطائف ودعوته لقبيلة ثقيف، فيبدوانها كانت تندرج فى محاولاته (ص) لادخال قريش فى الاسلام دون اراقة دماء، وذلك لشدة ارتباط ثقيف بقريش وكثرة الوشائج بينهما. لم يبق امام الرسول (ص) بد من التحرك لدعوة القبائل الاخرى بعد ان يئس من الطائف واهلها. وقد اختار الرسول (ص) ان يبقى فى مكة يدعو هذه القبائل اثناء قدومها فى مواسم الحج، بدلا من الذهاب اليها، لما كان ينطوى عليه ذلك العمل من خطر جدى على حياته (ص)، اما بقاؤه فى مكة فقد كان يوفر له حماية بنى هاشم وحلفائهم. وهكذا كان الرسول (ص) يدعو هؤلاء القادمين فى مواسم الحج الى الدين الجديد، ويوصى من يسلم منهم ان يكون داعية لقومه وعشيرته بعد عودته، وبهذه الطريقة فشا امر الاسلام وانتشرت اخباره فى انحاء شبه الجزيرة العربية، وقد تحدثت كتب السيرة عن دعوة الرسول (ص) لقبائل كندة وبنى كلب وبنى حنيفة

وبنى عامر بن صعصعة وبنى عبس وغسان وبنيالمحارب وشيبان بن ثعلبة. [۲۶۹] .وقد وردت رواية فى عيون الاثر [۲۷۰] تؤيد ما ذهبنا اليه من ان الرسول (ص) توجه فى دعوته الى القبائل الاخرى بعد ان يئس من قريش، وجاء فى الرواية عن جابر بن عبداللّه الانصارى، انه قال: «كان النبى (ص) يعرض نفسه على الناس فى الموقف، ويقول: الا رجل يعرض على قومه، فان قريشا قد منعونى ان ابلغ كلام ربى». وقد ردت بعض هذه القبائل دعوة الرسول (ص) بلطف ولين، بينما جابهتها قبائل اخرى بخشونة وعنف، حتى فعلت الرعاية واللطف الالهيان فعلهما، فلبى اهل يثرب نداء الرسول (ص) ودعوه الى مدينتهم، وكان ذلك اهم منعطف فى تاريخ الدعوة الاسلامية.

پاورقى

[۱] شد مبدل اين جو چند بار عكس ماه وعكس اختر بر قرار.

[۲] الموفقيات، طبعة بغداد، ص ۳۳۱ الى ۳۳۴.

[۳] خلافته بين عامى (۹۶ الى ۹۹ه).

[۴] ابن سعد، الطبقات الكبرى: ۲/ ۸، ۹.

[۵] الاغانى: ۳۳/ ۳۱.

[۶] المصدر نفسه: ص ۱۱.

[۷] مقدمة ابن خلدون: فصل (فى ان الصريح من النسبانما يوجد للمتوحشين).

[۸] مقدمة ابن خلدون: فصل (فى ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب).

[۹] الاغانى، ۱۴/ ۱۴۴.]

[۱۰] المصدر نفسه: ۲۲/ ۱۴۷.

[۱۱] نهاية الارب: ج۲.

[۱۲] سيرة ابن هشام: ۱/ ۱۲.

[۱۳] البلاذرى، فتوح البلدان، طبعة مصر، ۱۳۱۷ ه، ص۴۵۴.

[۱۴] ابن حزم، جمهرة انساب العرب: ص ۱۵.

[۱۵] سيرة ابن هشام، ۱/ ۱۱۷.

[۱۶] المصدر نفسه: ۱/ ۱۸.

[۱۷] ابن حزم، الملل والنحل، ص ۲۳۴، ۲۳۵.

[۱۸] سيرة ابن هشام، ۱/ ۸۰.

[۱۹] المسعودى، مروج الذهب، ۲/ ۱۷۵.

[۲۰] الازرقى: ص ۶۳، ۶۴.

[۲۱] ابن سعد، الطبقات: ۱/ ۳۸، سيرة ابن هشام: ۱/ ۱۳۲.

[۲۲] السهيلى، روض الانف: ۲/ ۵۳، ۵۴.

[۲۳] ابن سعد، الطبقات، ۱/ ۷۰.

[۲۴] المصدر نفسه: ۱/ ۲۳۹.

[۲۵] سيرة ابن هشام، ۱/ ۱۳۶، ۱۳۷.

[۲۶] ابن هشام، المصدر نفسه: ۱/ ۱۴۰.

[۲۷] العقد الفريد، ۳/ ۳۱۲، ۳۱۴.

[۲۸] جواد على، تاريخ العرب قبل الاسلام، ۳/ ۴۷۲.

[۲۹] جواد على، المصدر نفسه: ۳/ ۴۸۳ فما بعد.

[۳۰] الكامل فى التاريخ، ۱/ ۳۴۳، ۳۴۴، ۳۴۵.

[۳۱] سنگ وگل: كلمتان فارسيتان، معناهما: الحجروالطين.

[۳۲] البلاذرى، انساب الاشراف: ص ۵۵، ۵۶.

[۳۳] ابن سعد، الطبقات الكبرى: ۱/ ۷۸.

[۳۴] البلاذرى، انساب الاشراف، ۱/ ۵۷.

[۳۵] الانساب، ۱/ ۲۶۵.

[۳۶] الازرقى، اخبار مكة: ص ۲۸۱.

[۳۷] وردت تفاصيل ذلك فى الدر المنمق ص ۸۸ ومابعدها.

[۳۸] المصدر نفسه: ص ۹۲.

[۳۹] المصدر نفسه: ص ۹۰.

[۴۰] مستشرق بلجيكى، وراهب يسوعى، شديد التعصب ضد الاسلام، ويفتقر افتقارا تاما الى النزاهة فى البحث، والامانة فى نقل النصوص وفهمها. ولد فى بلجيكا عام ۱۸۶۲ وجاء الى بيروت فى صباه وتعلم فى الكلية اليسوعية ببيروت. عمل استاذا فى (معهد الدروس الشرقية) لمادة التاريخ الاسلامى، كتب فى السيرة النبوية ما لايقل عن عشرة كتب مليئة بالافتراءات والاستنتاجات الذوقية وتعمد فى بعضها الاشارة الى مصادر ليس لها وجود. كما دافع فى كتابه (دراسات عن حكم الخليفة الاموى معاوية الاول) عن الامويين دفاعا مستميتا وبرر لهم كل افعالهم الشنيعة، وخاصة ما ارتكبه يزيد بن معاوية. راجع موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوى. (المترجم).

[۴۱] سيرة ابن هشام: ص ۶۴.

[۴۲] سيرة ابن هشام: ص ۷۱.

[۴۳] سيرة ابن هشام: ص ۱۳۸، ۱۳۹.

[۴۴] سيرة ابن هشام، ۳/ ۱۴۱.

[۴۵] الاغانى، ۲۲/ ۵۹: بنو لحيان.

[۴۶] الدر المنمق: ص ۲۷۵.

[۴۷] البلاذرى، انساب الاشراف: ص ۷۶، ابن الاثير: ص۵۸۷.

[۴۸] الاغانى، ۲۲/ ۵۴، ۷۵.

[۴۹] ابن الاثير: ۱/ ۵۹۴، النهاية فى غريب الحديث: ۱/ ۳۳۰، طبعة الدار الاسلامية بيروت.

[۵۰] من الواضح ان المؤلف يشير فى بحثه هذا الى نظرية (التطور التقدمى او التصاعدى) التى سادت فى اوروبا فى القرن التاسع عشر، ونادى بها فريق من العلماء، وحاول تطبيقها على تاريخ الاديان منهم سبنسر وتيلور دوركيم وغيرهم، حيث ذهب هذا الفريق الى ان الدين بدا فى صورة الخرافة والوثنية وان الانسان اخذ يترقى فى دينه على مدى الاجيال حتى وصل الى الكمال فيه بالتوحيد، كما تدرج نحو الكمال فى علومه وصناعاته، حتى زعم بعضهم ان عقيدة (الاله الاحد) عقيدة حديثة للغاية، بل قال بعضهم: انها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامى. غير ان هذه النظرية واجهت اعتراضات اساسية، وعجزت عن الاجابة على الاسئلة التى اثارتها بوجهها

النظرية المقابلة، وهى نظرية (اصالة التوحيد) او (فطرة التوحيد) التى انتصر لها جمهور من علماء الاجناس وعلماء النفس، ومن اشهرهم لانج وشريدر وبروكلمان ولرواة وكاترفاج وغيرهم. ومن الاعتراضات التى اثيرت بوجه النظرية الاولى: اولاـ ان مؤرخو الاديان يعترفون بصورة صريحة ان الديانات الخاصة بالعصر الحجرى وما قبله لا تزال مجهولة لدينا جهلا تاما ولا سبيل للخوض بها الا على سبيل التكهن والرجم بالغيب، اما الاستدلال على ديانة الانسانية فى مراحلها الاولى بديانة الامم الحالية المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية، فانهمبنى على افتراض ان هذه الامم كانت منذ بدايتها على الحالة التى وصل اليها البحث، وانها لم تمر بادوار متقلبة، وذلك افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذى اثبته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية، هو ان فترات الركودو التقهقر التى سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة، وهذه بدورها قامت على انقاض مدنيات بائدة، وهكذافى ادوار تتعاقب على البشرية بحيث يصبح من العسير ان نحكم بصفة قاطعة بايهما بدات دورة الزمان، ولقد انصف العلامة هوفدنج حين قال: ((انه يبعد كل البعد ان ينجح تاريخ الاديان فى حل مشكلة بزوغ الدين فى النوع الانسانى.. فان التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الاولى فى موضع ما، وكل مانجده انما هو سلسلة من صور مختلفة لديانات متقدمة قليلا او كثيرا حتى ان احط القبائل الهمجية التى نعرفها قد مرت بادوار شتى وتطورت تطورا بعيدا» اقتباس عن (الدين.. بحوث تمهيدية لدراسة تاريخ الاديان) عبداللّه دراز. وثانيا: ان نظرية (التطور التقدمى او التصاعدى) قائمة على افتراض ان الملكات والاحاسيس الروحية يمكن قياسها على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية، فكما ان الانسان ينتقل فى نموه البدنى من الضعف الى القوة، وفى نموه العقلى من الجهل وعدم العلم الى المعرفة والعلم، فانه كذلك على الصعيد الروحى قد بدا حياته بالسخف والخرافة، ولم يصل الى العقيدة السليمة الا بعد جهد وعناء، ولكن من اين جاء هذا الافتراض؟ وما هو الدليل عليه؟ وهل ان الواقع يؤيده ام يعاكسه؟! كل هذه التساؤلات من شانها ان تزعزع الاساس الذى اقامت عليه هذه النظرية بنيانها. بعد هذا كله نتجه الى النصوص الدينية، فنجدها تذهب الىغير الجهة التى يتجه اليها ذلك المذهب التطورى، فانها اى النصوص الدينية تقرر ان (العقيدة الالهية الصحيحة) مغروسة فى ذات الانسان (فطرة اللّه التى فطر الناس عليها).. ثم تقررالايات القرآنية حقيقة اخرى وهى ان الانسان بدا حياته بالعقيدة الصحيحة، ثم طرا الانحراف والاختلاف (وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا) «يونس: ۱۹». وهنا انتهى البعض الى نظرية ثالثة تقول: ان الهدى والضلال ليسا ظاهرتين متعاقبتين فقط فى المسالة الدينية صعودا او انحدارا، بل هما ظاهرتان متعاصرتان تتواجدان فى كل امة، اذلا يخلو جيل من نفوس نقية تدرك الحقيقة، واخرى دون ذلك تخطئها وتتجه الى الخرافة والشعوذة وما الى ذلك (المترجم). وليرجع من اراد التفصيل الى كتاب (الدين.. بحوث تمهيدية لدراسة تاريخ الاديان) للدكتور عبداللّه دراز.

[۵۱] الاصنام: ص ۱۴.

[۵۲] الاصنام: ص ۲۸۰.

[۵۳] المصدر نفسه: ص ۹ الى ۲۱.

[۵۴] الاصنام: ص ۶۰، ۶۱.

[۵۵] لسان العرب، ذيل الشمس.

[۵۶] الازرقى، تاريخ مكة: ص ۱۸۹.

[۵۷] تاريخ اليعقوبى: ۱/ ۲۵۶.

[۵۸] الازرقى: ص ۱۳۲، لسان العرب، مادة حرر.

[۵۹] صبح الاعشى، ۱/ ۴۱۰، ۴۱۱.

[۶۰] الوكاء: الخيط الذى تشد به الصرة او الكيس وغيرهما.

[۶۱] المسير: ثوب فيه خيوط من القز والحرير ونحوه كالسيور.

[۶۲] العدنی: کل ما ینسب الی عدن من ثیاب وغیرها.الاغانی:۲۲/ ۵۷.

[۶۳] دائرة المعارف بریتانیکا، ذیل الیمن.

[۶۴] البیرونی، الاثار الباقیة، ص ۱۱.

[۶۵] القلمس: البحر الزخار.

[۶۶] الاثار الباقیة: ص ۶۲.

[۶۷] تاریخ الیعقوبی: ج ۱.

[۶۸] المحبر: ص ۱۶۱.

[۶۹] المعارف: ص ۶۲۱.

[۷۰] المنمق: ص ۵۰۶.

[۷۱] المحبر: ص ۳۴۰.

[۷۲] المحبر: ص ۳۱۰ و ۳۱۱.

[۷۳] المحبر: ص ۳۰۹.

[۷۴] المحبر: ص ۳۳۸.

[۷۵] المصدر نفسه: ص ۲۲۵.

[۷۶] المصدر نفسه: ص ۳۲۶.

[۷۷] لسان العرب، مادة سعی.

[۷۸] المحبر: ص ۳۴۰.

[۷۹] صحیح البخاری، باب النکاح، حدیث رقم ۴۷۹۰.

[۸۰] المحبر: ص ۳۳۰.

[۸۱] المحبر: ص ۳۳۱.

[۸۲] لسان العرب، مادة حما.

[۸۳] تاریخ الیعقوبی: ۱/ ۲۵۹.

[۸۴] المصدر نفسه، المحبر: ص ۲۲۳ ۲ الی ۲۲۵.

[۸۵] صحیح البخاری (باب ثمن الکلب من کتاب البیع).

[۸۶] لسان العرب، مادة سجع.

[۸۷] لسان العرب، ذیل کهن.

[۸۸] تاریخ الیعقوبی: ۱/ ۲۵۸.

[۸۹] راجع المنمق ص ۱۹۶، وتاریخ الیعقوبی فیالموضع المذکور.

[۹۰] المطالعات الاسلامیة: ج ۱.

[۹۱] المفصل: ۱/ ۳۹ الی ۴۲.

[۹۲] روض الانف: ۲/ ۱۵۸.

[۹۳] تاریخ الطبری، احداث سنة ۱۱ هجریة.

[۹۴] نولدکهر تاریخ ساسانیان.

[۹۵] يبدا التاريخ السلوكی من عام ۳۱۲ قبل الميلاد وليس كما ورد خطا فی حاشية مروج الذهب بانه العام ۳۲۴ قبل الميلاد.

[۹۶] مروج الذهب: ۲/ ۱۲.

[۹۷] روض الانف: ۲/ ۱۵۹.

[۹۸] طبقات ابن سعد: ۱/ ۶۰، ۶۱.

[۹۹] الطبقات: ۱/ ۱۱۲.

[۱۰۰] الطبقات: ۱/ ۷۳.

[۱۰۱] المعارف: ص ۵۷۵.

[۱۰۲] المنمق حريره: ص ۲۱۳.

[۱۰۳] الاغانی: ۲۲/ ۵۴.

[۱۰۴] الاغانی: ۲۲/ ۵۶.

[۱۰۵] الكامل فی التاريخ: ۱/ ۵۹۲.

[۱۰۶] الاغانی: ۲۲/ ۷۸.

[۱۰۷] المحبر، يظهر منه ذلك ص ۱۸۴ الی ۱۷۲.

[۱۰۸] المنمق: ص ۷۷۹.

[۱۰۹] المصدر نفسه: ص ۲۲۰.

[۱۱۰] الطبقات: ۱/ ۱۲۹.

[۱۱۱] الطبقات: ۱/ ۱۳۳.

[۱۱۲] اخبار مكة: ص۱۵۹.

[۱۱۳] المصدر نفسه: ص ۱۶۱.

[۱۱۴] السيرة: ۱/ ۲۰۴.

[۱۱۵] الطبقات: ص ۱۴۵.

[۱۱۶] سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۰۵.

[۱۱۷] المصدر نفسه.

[۱۱۸] تاريخ مكة: ۱/ ۱۶۰.

[۱۱۹] المصدر نفسه: ۱/ ۱۶۲.

[۱۲۰] المصدر نفسه: ۱/ ۱۵۹.

[۱۲۱] المصدر نفسه: ۱/ ۱۶۳.

[۱۲۲] تاريخ مكة: ۱۶۳ و ۱۶۶.

[۱۲۳] سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۵۲.

[۱۲۴] الميل العربی يساوی ثلاثة آلاف ذراع.

[۱۲۵] سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۵۱.

[۱۲۶] لسان العرب، مادة حنث.

[۱۲۷] سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۵۱، ۲۵۲.

[۱۲۸] سيرة ابن هشام: رقم ۱۴۰ ص ۱۰۰.

[۱۲۹] تاريخ الطبرى: ۱/ ۱۱۴۸.

[۱۳۰] الطبرى: ۱۱۴۹– ۱۱۵۲.

[۱۳۱] سيرة ابن هشام، ۱/ ۲۵۱ الى ۲۵۴.

[۱۳۲] سيرة ابن هشام: ۲۵۲.

[۱۳۳] هذه الفقرة اسقطها ابن هشام فى سيرته (المترجم).

[۱۳۴] جاء فى رواية ابن سعد: «انى اخشى ان اكون كاهنا» وفى رواية اخرى: «انى اخشى ان يكون فى جنن» طبقاتابن سعد، ۱/ ۱۹۴، ۱۹۵.

[۱۳۵] من الواضح ان المؤلف حاول تفسير الروايات منخلال مقارنتها مع بعضها البعض، وبالاستعانة بما ينسجم وتلك المعانى من القرآن الكريم، وبعبارة اخرى انه بذل جهدا للوصول الى بعض النتائج من خلال الاعتماد على النصوص وحدها بعيدا عن احتمالات التشكيك بصحة مثل هذه الروايات وما يمكن ان يكون قد داخلها من تحريف وتشويه، بل وحتى دون الزام نفسه بمسبقات اعتقادية تخالف ما انتهى اليه الاستاذ المؤلف من نتائج مهمة، وربما كانت هذه المسبقات هى التى دعت ابن هشام الى اسقاط تلك الفقرة من روايته. (المترجم).

[۱۳۶] طبقات ابن سعد: ۱/ ۱۹۸.

[۱۳۷] سيرة ابن هشام، ۱/ ۲۶۴.

[۱۳۸] الطبقات: ابن سعد: القسم ۱، ص ۲۷،۲۸.

[۱۳۹] الطبرى، ص ۱۱۶۸.

[۱۴۰] الطبقات: القسم۱، ص ۱۲۲.

[۱۴۱] الطبرى: ۱/ ۱۱۶۷.

[۱۴۲] ابن هشام، ۱/ ۲۶۷، ۲۶۹.

[۱۴۳] الطبقات، ج۳، القسم۱، ص ۱۷۳.

[۱۴۴] الطبقات، ۱/ ۱۹۹.

[۱۴۵] انساب الاشراف: ص ۲۲۹.

[۱۴۶] الطبقات: ۱/ ۲۱۲.

[۱۴۷] انساب الاشراف: ص ۱۲۸.

[۱۴۸] طبقات ابن سعد، ص ۷۱، ۱۲۳.

[۱۴۹] الطبقات: ص ۸۸، ۱۲۳.

[۱۵۰] الطبقات: ۳/ ۹۸.

[۱۵۱] الطبقات: ص ۱۲۳ الى ۱۷۷.

[۱۵۲] انساب الاشراف: ص ۱۶۳.

[۱۵۳] تفسير الطبرى: ج۱۷، سورة الحج، الاية: ۵۲.

[۱۵۴] تفسير الطبرى، ج۱۷، سورة الحج، الاية: ۵۲.

[۱۵۵] انساب الاشراف: ص ۱۵۶ فما بعد.

[۱۵۶] سیرة ابن هشام: ۱/ ۳۴۲.

[۱۵۷] انساب الاشراف: ۱/ ۱۵۸.

[۱۵۸] المصدر نفسه: ۱/ ۱۵۹.

[۱۵۹] انساب الاشراف: ۱/ ۱۷۶.

[۱۶۰] الطبقات ج۲، القسم۱، ص ۱۱۶.

[۱۶۱] انساب الاشراف: ۱/ ۱۷۶.

[۱۶۲] انساب الاشراف: ص ۱۷۶.

[۱۶۳] المصدر نفسه: ص ۱۸۰.

[۱۶۴] انساب الاشراف: ص ۱۸۱.

[۱۶۵] انساب الاشراف: ص ۱۸۵.

[۱۶۶] المصدر نفسه: ص ۱۸۶.

[۱۶۷] انساب الاشراف: ص ۱۸۴.

[۱۶۸] انساب الاشراف: ص ۱۸۶.

[۱۶۹] انساب الاشراف: ص ۱۹۱.

[۱۷۰] انساب الاشراف: ص ۸۹.

[۱۷۱] الطبقات: ۳/ ۲۳۴.

[۱۷۲] الطبقات: ۴/ ۲۱۴، ۲۱۵.

[۱۷۳] الجمهرة: ص ۱۸۶.

[۱۷۴] طبقات ابن سعد: ۴/ ۲۱۹ الی ۲۲۲.

[۱۷۵] الصرمة: القطعة من الابل.

[۱۷۶] الخفاء: خرقة توضع علی السقاء.

[۱۷۷] سخفة الجوع: رقته وهزاله.

[۱۷۸] طبقات ابن سعد، ۴/ ۲۱۹ الی ۲۲۲.

[۱۷۹] طبقات ابن سعد، ح۲، القسم۱، ص ۲۷۸، انساب‌الاشراف:ص ۱۱۶.

[۱۸۰] المنمق: ص ۱۰۴.

[۱۸۱] المنمق: ص ۱۰۰، ۱۰۱.

[۱۸۲] المنمق: ص ۱۰۶.

[۱۸۳] انساب ابن حزم: ص ۱۴۴.

[۱۸۴] المحبر: ص ۱۳۹، ۱۴۰.

[۱۸۵] القری: ما یقدم للضیف من الطعام.

[۱۸۶] سیرة ابن اسحاق، نسخة القرويين، سیرة ابن هشام:۱/ ۳۳۷ الی ۳۳۸.

[۱۸۷] سیرة ابن هشام: ۱/ ۳۴۲.

[۱۸۸] الانساب، ص ۱۳۳.

[۱۸۹] تفسير الطبری، ذيل الآية.

[۱۹۰] المنمق: ص ۴۸۸، ۴۸۹.

[۱۹۱] انساب الاشراف: ص ۱۳۴.

[۱۹۲] راجع تفسير الطبری: ج ۲۵.

[۱۹۳] انساب الاشراف: ص ۱۴۱، المحبر: ص ۱۶۵.

[۱۹۴] انساب الاشراف: ص ۱۴۱.

[۱۹۵] الطبقات، ج۴، القسم ۱، ص ۷۰ الی ۷۲.

[۱۹۶] انساب الاشراف: ص ۱۵۱.

[۱۹۷] هكذا عرض المؤلف موقف الرسول (ص) من عقبة بن ابی المعيط، كما ورد فی النص الفارسی، وقد ظهر من‌خلال هذا العرض وكان الرسول (ص) يريد فی موقفه هذا الانتقام والثار لذاته، ورغم ان المؤلف استند فی عرضه هذا الی روايتين وردتا فی انساب الاشراف ص ۱۴۷ الی ۱۴۸غير انه لفق بين الروايتين بطريقة اسهمت الی حد ما فی ابراز ذلك العنصر الذاتی الغير معروف عن الرسول (ص)، وها نحن نورد نص الروايتين كما جاء فی انساب الاشراف (ص ۱۴۷ الی ۱۴۸): عن محمد بن عمر الواقدی، باسناده: «ان عقبة بن ابی معيط عمد الی مكتل، فجعل فيه عذرة ثم القاه علی باب رسول اللّه (ص). فبصر له طليب بن عمير بن وهب بن عبد بن قصی بن كلاب وامه اروی بنت عبد المطلب فاخذ المكتل منه، وضرب به راسه، واخذ باذنيه، ونشب به عقبة، فذهب به الی امه، فقال لها: الا- ترين الی ابنك قد صار غرضا دون محمد؟ فقالت: ومن اولی منه بذلك؟ هو ابن خاله، اموالنا وانفسنا دون محمد. وجعلت تقول: فان طليبا نصر ابن خاله آساه فی ذی دمه وماله فلما كان يوم بدر، اتی بعقبة اسيرا. وكان الذی اسره عبداللّه بن سلمة بن مالك العجلانی، من بلی، وعداده فی الانصار، جمح به فرسه، فاخذه. فامر رسول اللّه (ص) عاصم بن ثابت بن ابی‌الاقلح الاوسی من الانصار بضرب عنقه، فجعل عقبة يقول: ياويلتی علام اقتل يا معشر قريش! اقتل من بين هؤلاء؟ فقال رسول اللّه (ص): لعداوتك للّه ولرسوله. قال: يا محمد، منك افضل فاجعلنی كرجل ممن هاهنا من قومك وقومی. ويامحمد من للصبية؟ قال رسول اللّه (ص): النار. وكان قتله بعرق الظبية. وقال الواقدی: قتل بالصفراء. وقيل: ان رسول اللّه (ص) اسر به فصلب. فكان اول مصلوب صلب فی الاسلام». الرواية الثانية: عن عامر الشعبی: «ان رسول اللّه (ص) قال لعقبة يوم بدر: واللّه لاقتلنك. فقيل: اتقتله من بين قريش؟ قال: نعم، انه وطیء علی عنقی وانا ساجد، فما رفع حتی ظننت ان عينی قد سقطتا، وجاء يوما وانا ساجد بسلی شاة فالقاه علی راسی، فانا قاتله»، هذا ويلا حظ قول الرسول (ص) فی الرواية الاولی «لعداوتك للّه ورسوله» فالعداوة للّه وللرسالة هی التی تحدد موقف الرسول لا الثار والانتقام لاغراضشخصية (المترجم).

[۱۹۸] المنمق: ص ۴۸۸.

[۱۹۹] لا ينطلق الرسول (ص) فی موقفه من اعدائه عن (دوافع شخصية)، ولا اعتقد ان المؤلف يقصد ذلك رغم كون العبارة توحی بذلك (المترجم).

[۲۰۰] المنمق، ص ۴۸۸.

[۲۰۱] الانساب، ص ۱۳۹، ۱۴۰.

[۲۰۲] سيرة ابن هشام: ۲/ ۳۳.

[۲۰۳] سيرة ابن هشام: ۱/ ۳۸۶،۳۸۵.

[۲۰۴] الانساب: ص ۱۴۰.

[۲۰۵] لا ينبغی ان يفهم من عبارة المؤلف ان الامر بقتل النضر بن الحارث كان لدوافع شخصية، فهذا ما لا يمكن ان يقع بحق رسول

اللّه (ص) الذى كان على خلق عظيم والذى ارسل رحمهٔللعالمين. (المترجم).

[۲۰۶] المحبر: ص ۱۶۱.

[۲۰۷] المحبر: ص ۱۶۱.

[۲۰۸] الانساب: ۱۲۸.

[۲۰۹] المنمق.

[۲۱۰] سيرهٔ ابن هشام: ۳/ ۴۶.

[۲۱۱] الانساب: ص ۱۳۱.

[۲۱۲] انساب الاشراف: ص ۱۰.

[۲۱۳] الطبقات، ۱/ ۱۹۹.

[۲۱۴] راجع تفصيل ذلک فى الطبقات: ۳/ ۲۴۳.

[۲۱۵] الطبقات، ۱/ ۲۰۰.

[۲۱۶] تهذيب سيرهٔ ابن هشام لعبد السلام هارون: ص ۴۹.

[۲۱۷] الطبقات: ۱/ ۱۹۹.

[۲۱۸] لا ـ نشارک المؤلف رايه فى ان الهدف من تكثيف الانذار والتهديد والوعيد بيوم القيامهٔ انما هو ردع كفار قريشعن غيهم وصدهم عن ارتكاب القتل والظلم والشرک والنهب وعبادهٔ الاصنام فحسب، بل نعتقد ان السور المكيهٔ كانت لها اهداف ومقاصد ابعد من معالجهٔ حالهٔ انحراف مؤقتهٔ ومحدودهٔ، فقد كانت فى صدد معالجهٔ حالهٔ انحراف عامهٔ وشاملهٔ كان الناس يعيشونها، وتتجسد فى قضيتين اساسيتين هما: الشرک، ونكران الاخرهٔ ويوم القيامهٔ، ولم تكن هذه المسالهٔ موضع اهتمام الرسالهٔ الاسلاميهٔ فقط بل هى محور اهتمام الرسالات جميعا. (انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا، فعصى فرعون الرسول فاخذنه اخذا وبيلا، فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا) «المزمل: ۱۵ – ۱۷». فقد اراد القرآن الكريم عبر هذه السور ايجاد نظام جديد من شانه ان يهذب الانسان اى انسان كان ضعيفا او قويا ويحرره من قيود الذات واغلال الشرک واثقال الارض. بعبارهٔ اخرى حاول القرآن الكريم معالجهٔ حالهٔ انسانيهٔعامهٔ، وليست مقصورهٔ باهل الجاهليهٔ فقط. (المترجم).

[۲۱۹] لقد تقدم من الاستاذ المؤلف ما يخالف ذلک فقد قالفى ص ۶۵: «ان اعمال السلب والتجاوز والاعتداء كان يرفضها الوجدان العام للعرب منذ القدم، ولا يقرها الضمير الباطنى لهم، لهذا كانوا يمتنعون عنها عند دخولهم حالات دينيهٔ كالاحرام». وفى معرض حديثه عن مراعاهٔ الرسول (ص) لقومه وعدم استفزازه لهم حيث قال فى ص ۹۹: «ويبدو انه (اىالرسول (ص» كان يحترم طقوسهم الدينيهٔ الى الحد الذى لايجعله مرتبطا باخلاقهم وآدابهم الفاسدهٔ». ثم يضيف: «فانتلک الاخلاق القبيحهٔ، قبيحهٔ فى نظرهم ايضا، من قبيل ارتكاب القتل والزنا والسرقهٔ وقطع الطريق». هذا اضافهٔ الى ان التاريخ حدثنا عن وجود بعض القيم التى كانت تحترمها العرب على جاهليتها وتسعى للالتزام بها، بينما كان هناک افعال اخرى ترفضها ولا تقرها وهى قبيحهٔ ومدانهٔ فى وجدانها العام وضميرها الباطن، وان اقترفها الكثيرون منهم. مثال ذلک ادانهٔ الظلم واغاثهٔ المظلوم، فقد جاء فى اسباب حلف الفضول: «ان رجلا من زبيد قدم مكهٔ ببضاعهٔ فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان ذا قدر بمكهٔ وشرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدى الاحلاف.. فابوا ان يعينوه على العاص وزجروه، فلما راى الزبيدى الشر اوفى على ابى قبيسعند طلوع الشمس وقريش فى انديتهم حول الكعبهٔ فصاح بالعلى صوته: يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكهٔ نائى الدار والنفر ومحرم اشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر ان الحرام لمن تمت كرامته ولا ـ حرام لثوب الفاجر الغدر فقام فى ذلک الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترک، فاجتمعت هاشم وزهرهٔ وتيم بن مرهٔ.. وتعاقدوا وتحالفوا على ان ترد الفضول الى اهلها وان لا يغزو ظالم مظلوما، وكان حلف الفضول. كما نرى احترام

قريش لبعض القيم من خلال حديث خديجة مع رسول اللّه (ص) يوم نزل عليه الوحى حيث قالت: «اعيذك باللّه يا ابا القاسم من ذلك، ما كان اللّه عز وجل ليفعل بك ذلك، مع ما اعلم من صدق حديثك، وعظم امانتك، وحسن خلقك، وصلة رحمك». سيرة ابن اسحاق نسخة بقرويين ص۱۳۲، وحديث خديجة هذا يدل على ان هناك قيما كانت تحترمها العرب وتعدها من الفضائل كالتى ذكرتها خديجة (المترجم).

[۲۲۰] الطبرى: ۲/ ۲۱۸، ۲۱۹.

[۲۲۱] الطبرى: ص ۲۱۹، ۲۲۰.

[۲۲۲] المصدر نفسه: ص ۲۲۱.

[۲۲۳] سيرة ابن هشام: ۱/ ۳۴۲.

[۲۲۴] مونتغمرى وات، محمد فى مكة: ص ۱۷۹، ۱۸۱،۱۸۰.

[۲۲۵] الطبقات: ۴/ ۹۶.

[۲۲۶] سيرة ابن هشام: ۱/ ۳۴۴ الى ۳۴۶.

[۲۲۷] الطبقات: ۱/ ۱۳۶ الى ۱۳۸.

[۲۲۸] الطبقات: ج۳، القسم۱، ص ۱۰۷.

[۲۲۹] الطبقات: ۳/ ۱۶۱.

[۲۳۰] المصدر نفسه: ۳/ ۳۹۳.

[۲۳۱] محمد فى مكة: ص ۱۱۱.

[۲۳۲] انساب الاشراف: ۱/ ۱۹۸.

[۲۳۳] طبقات ابن سعد: ج۱، القسم۱، ص ۱۳۸.

[۲۳۴] كتاب التفسير، سورة النجم.

[۲۳۵] بحار الانوار:۶/ ۲۱۰ (الطبعة الحجرية).

[۲۳۶] الاصنام: ص ۱۹.

[۲۳۷] ورد اسمه فى طبقات ابن سعد: ۱/ ۲۰۴، كالتالى:ابوسلمة بن عبد الاسد المخزومى (المترجم).

[۲۳۸] ضوى: اى انضم واوى.

[۲۳۹] خضراؤهم: شجرتهم التى منها تفرعوا.

[۲۴۰] شيوم: آمنون.

[۲۴۱] الدبر: الجبل، بلغة الحبشة.

[۲۴۲] تهذيب سيرة ابن هشام (عبد السلام هارون): ص ۶۱ الى۶۳.

[۲۴۳] الاغانى:۹/ ۵۵، وما بعدها، طبعة دار الكتب.

[۲۴۴] سيرة ابن هشام: ۲/ ۳ الى ۸.

[۲۴۵] يبدو انه كان قرب دار الارقم المجاورة للصفا، والتى حولها الرسول (ص) الى منطلق لدعوته المباركة.

[۲۴۶] سيرة ابن هشام، (تهذيب عبد السلام هارون): ص۵۳.

[۲۴۷] الهينمة: الصوت الخفى الذى لا يفهم.

[۲۴۸] الحجزة: موضع شد الازار.

[۲۴۹] سیرة ابن هشام، (تهذیب عبد السلام هارون): ص ۶۴ الی ۶۶.

[۲۵۰] تهذیب سیرة ابن هشام (تهذیب عبد السلام هارون):ص۶۴.

[۲۵۱] معجم البلدان: ۳/ ۲۹۴.

[۲۵۲] الکامل فی التاریخ: ۱/ ۶۰۴.

[۲۵۳] الکامل فی التاریخ: ۱/ ۶۰۴.

[۲۵۴] انساب الاشراف: ۱/ ۲۳۴، سیرة ابن اسحاق، الرباط، ص ۱۴۰.

[۲۵۵] طبقات ابن سعد: ۱/ ۲۰۹.

[۲۵۶] سیرة ابن هشام: ۱/ ۱۴۲، ۱۴۳.

[۲۵۷] سیرة ابن هشام: ۱/ ۲۸۷.

[۲۵۸] المصدر نفسه: ۱/ ۲۹۶.

[۲۵۹] طبقات ابن سعد: ۱/ ۲۰۹، ۲۱۰.

[۲۶۰] انساب الاشراف: ۱/ ۲۳۶.

[۲۶۱] سیرة ابن اسحاق: ص ۲۲۰، ۲۲۳.

[۲۶۲] صدرت بحوث ودراسات کثیرة حول ایمان ابی‌طالب، منهاما صدر اخیرا بعنوان (ابو طالب مؤمن قریش) للشیخعبداللّه الخنزی (المترجم).

[۲۶۳] یذئرهم: یثیرهم ویجرئهم.

[۲۶۴] الحبلة: شجرة العنب او قضبانها.

[۲۶۵] مدینة فی شمال العراق.

[۲۶۶] احد وادیین علی لیلة من مکة، یقال لاحدهما نخلة شامیة وللاخر نخلة یمانیة.

[۲۶۷] سیرة ابن هشام: (تهذیب عبد السلام هارون): ص۶۳.

[۲۶۸] تاریخ الطبری: ۲/ ۲۳۱.

[۲۶۹] عیون الاثر: ۱/ ۱۵۳.

[۲۷۰] المصدر نفسه: ۱/ ۱۵۲.

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علیّ ُبنُ موسَی الرِّضا – علـَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َیَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشـّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علـَیهـم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز " القائمیّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی " القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفید مشروع " ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - في حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.


مرکز القائمیه اصفهان
للبحوث والتحریات الکمبیوتریه
www
للحصول علی المکتبات الخاصه الاخری
ارجعوا الی عنوان المـرکز من فضلـکم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للایصاء من فضلکم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹